

سلسلة دراسات في الثقافة الإسلامية 79
دراسات الشرق الأوسط و الإسلام (1)

سفير مغربي في مدريد في نهاية القرن السابع عشر

رحلة الوزير في افتكاك الأسير

محمد بن عبدالوهاب الغساني

تحقيق وتقديم

عبدالرحيم بنحادة

أستاذ بجامعة محمد الخامس أكدال - الرباط
أستاذ زائر بجامعة طوكيو للدراسات الأجنبية

منشورات معهد الأبحاث في لغات وثقافات آسيا وافريقيا

طوكيو 2005

المؤلف: عبدالرحيم بنحادة

عنوان الكتاب:سفير مغربي في مدريد في نهاية القرن السابع عشر

سلسلة: دراسات الثقافة الإسلامية

دراسات الشرق الأوسط والإسلام (1)

الناشر: معهد الأبحاث في لغات وثقافات أسيا وأفريقيا

سنة النشر: طوكيو2005

الغلاف: Pere Oromig, Embarque de los Moriscos en el Grau de Valencia

في ملكية Fundacio BANCAIXA في بلنسية بإسبانيا.

الإيداع القانوني:ISBN 4-87297-9079

إلى إلهام وسليم ويزيد

تقديم

الرحلة جنس أدبي متميز، يلتقي فيه اهتمام المؤرخ والأديب والأنتربولوجي وعالم الاجتماع، فإلى أي حد استطاعت رحلة الغساني أن تجمع هذه التخصصات ؟ وما هي الجوانب والقضايا التي أثارت اهتمام عبدالرحيم بنحـــادة كمحقق ودارس لهذه الرحلة ؟ وإلى أي حد يمكن اعتمادها كمصدر من مصادر تاريخ مغرب القرن السابع عشر ؟.

أثار الرحالة مواضيع تاريخية استرعت باهتمام معاصريه : تحدث كفاعل سياسي عن علاقات مغرب المولى إسماعيل مع الجارة إسبانيا. لم تتوقف الرحلة عند العلاقات بين البلدين بل ركزت أيضا على القضايا التي كانت تحرك هذه العلاقات. وقد أخذت مؤسسة فك الأسرى الحيز الهام من التأليف لأن هدف الرحلة الأساسي والمعلن هو هذا التحرير.وقد بين المحقق انطلاقا من النص كيف كانت الكنيسة تتحرك وتضغط على السياسيين لتوجه علاقات المسيحيين مع المسلمين عموما وبين المغرب وإسبانيا على الخصوص، وبحكم تخصص واهتمام المحقق بالعالم العثماني وبالبحر الأبيض المتوسط، فإنه توفق في إعطاء القارئ كل التوضيحات الضرورية. كما كان يتدخل عند الحاجة بتعليقات إما من أجل تصويب الأخطاء التاريخية التي كان يسقط فيها مؤلف الرحلة أو للمشاركة أحيانا برأيه في هذه القضية أو تلك، فاستطاع بفضل هذه التدخلات أن يسهل المأمورية على القارئ وأن يغني بالنقاش ما

تضمنته الرحلة. كمثال على ما سبق يمكن الوقوف عند ما دونه من تعاليق وتوضيحات عن علاقات العثمانيين بالمورسكيين وخصوصا عن النقاش الذي دار وما زال حول تخلي العثمانيين عن هذه الجالية المطرودة.

من القضايا التي أثارها الرحالة اندماج بقايا المسلمين في المجتمع الإسباني،فقد حاول مؤلف الرحلة أن يجعل القارئ يشعر بصعوبة هذا الاندماج وكان المحقق يتدخل ليعالج الظاهرة من زاوية المؤرخ الذي يناقش اعتمادا على منطق الزمن الذي يتطلب الأخذ بعين الاعتبار الصيرورة والتدرج.

لقد استطاع عبدالرحيم بنحادة أن يجعل القارئ يتخذ المسافة بينه وبين الرواية التي يرويها صاحب الرحلة. فإذا كان هذا الأخير يكتب بأسلوب المفاضلة: فكل ما هو موروث عن الإسلام في الأندلس أصيل ورائع وما هو منتمي للمسيحيين منبوذ، فإن المحقق كان يرجع الأحكام والمواقف إلى إطارها التاريخي ويترك حرية الحسم للقارئ. فمن الأمور التي انتبه إليها المحقق ونبه القارئ إليها استحضار مؤلف الرحلة في كتابته المرجعية المغربية الإسلامية : فالجهاز الحاكم في إسبانيا هو المخزن المغربي " والذين بيدهم ولاية أو خطة من الخطط المخزنية " وهكذا نراه لا يتردد في الكلام عن المخزن الإسباني أو المحلة الإسبانية.

من الأمور التي أثارت انتباه المحقق كثرة المعلومات التاريخية التي أوردها الغساني في رحلته عن أوروبا وعن الاكتشافات الجغرافية الكبرى وانعكاساتها على المجتمعات الأوربية، لقد فصل الرحالة في الكلام عن الحروب التي خاضتها البلدان الأوربية فيما بينها خلال العصر الحديث. وكان يتتبع التحالفات سواء عن طريق المعاهدات أو عن طريق الزواج ووقف مطولا عند الاكتشافات وانتبه إلى نتائجها السلبية على العالم الإيبيري، الذي خلد إلى الراحة والخمول، عكس أوربا الشمالية التي كانت تشتغل وبالتالي استطاعت مجتمعاتها أن تستفيد وتتقوى ولخص هذا بقوله " إن الترف والحضارة غلبت عليهم (الأسبان) فقلما نجد أحدا من هذا الجنس يتاجر

كعادة غيرهم من النصارى مثل الفلامنك والإنجليز والفرنسيين وكذلك الحرف المهينة التي يتداولها السقطة والرعاع وأرذل القوم لا يمارسها هذا الجنس (الأسبان) ويرى لنفسه فضيلة على غيره من الأجناس " واستطاع المحقق أن يثير انتباه القارئ لهذه الملاحظات التي أشار إليها صاحب الرحلة.

لقد توفق المحقق في ضبط وتدقيق ما دونه الغساني في رحلته وتوصل إلى ذلك بفضل المهارات التي يتوفر عليها كمؤرخ محترف ومنفتح لأن الباحث الأصيل هو الذي يتوفر- كما يقول لوسيان فيفر- على احترافية وانفتاح يمكنانه من توسيع مفهوم الوثيقة التاريخية.

عبدالمجيد القدوري

الرباط، دجنبر 2004

المقـــــــــــدمـــــــة

لم يعتمد المغرب في علاقته مع أوروبا، كما الشأن بالنسبة لباقي الدول الإسلامية الأخرى، تقليد السفير المقيم واكتفى السلاطين المغاربة بإيفاد عدد من المبعوثين كلما دعت الضرورة إلى ذلك. وقد كانت اسبانيا بحكم القرب الجغرافي من البلدان الأوربية التي أوفد إليها سلاطين المغرب في العصور الحديثة أكبر عدد من "السفراء" مقارنة مع باقي البلدان الأوروبية.

فخلال الفترة الممتدة ما بين 1500 و 1900 بعث السلاطين المغاربة إلى مدريد السفراء الآتية أسماؤهم[2]:

السنة	السفير
1586	القائد محمد بن ابراهيم السفياني
1614	منصور بن يحيى وعبدالرحمن الشاوي
1690	محمد بن عبدالوهاب الغساني
1766	أحمد بن المهدي الغزال
1779	محمد بن عثمان المكناسي
1792	الحاج محمد الدليمي
1792	القائد عباس سفير مولاي سلامة
1861	الأمير مولاي العباس

[2] اعتمدنا في ثبت هذه اللائحة على تحريات في المصادر والدراسات المغربية وبعض الأعمال التي أنجزت في السنوات الأولى للقرن العشرين كالدراسة التي قام بها Rouard de Card عن العلاقات المغربية الاسبانية خلال القرنين الثامن والتاسع عشر:

Rouard de Card, *Les relations de l Espagne et du Maroc au XVIII et au XIX siècles*, Paris 1906.

إدريس بن إدريس العمراوي	1863
أبي عبدالله محمد بن أحمد	1877
عبدالسلام السويسي	1877
الحاج عبدالكريم بريشة	1879
القائد بوشتى البغدادي	1883
عبدالصادق بن أحمد الريفي	1885
المعطي المزامزي	1889
عبدالحميد بن الفاطمي الرحماني	1891

وقد تراوحت مهام هؤلاء السفراء بين البحث في قضايا افتكاك الأسرى، و قضايا الجلاء عن الثغور التي تحتلها اسبانيا في الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط، و قضايا حدودية ارتبطت بالواقع الذي عرفه المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وبالرغم من كثرة الموفدين المغاربة إلى إسبانيا، فإن قلة منهم هي التي اهتمت بتدوين رحلة سفارية، وإن كانت الكتابة عن السفر تقليدا مغربيا راسخا منذ القدم[3]،وإن كان الموفدون على قدر كبير من الثقافة والمعرفة[4].و لم يكتب من هؤلاء سواء أربعة، وهم:

الأول – الوزير الغساني الذي زار إسبانيا في العقد الأخير من القرن السابع عشر. و قد كانت الغاية من السفارة، التي توجه على رأسها، افتداء الأسرى

[3]- سجل محمد الفاسي في تقديمه لكتاب **الإكسير في فكاك الأسير** لابن عثمان المكناسي ملاحظات قيمة حول هذا التقليد المغربي، وقد حلل عوامل تفوق المغاربة و ولوعهم بكتابة الرحلة قبل أن ينصرف إلى ذكر أنواع الكتابات الرحلية.

ينظر، محمد بن عثمان المكناسي، **الإكسير في فكاك الأسير**، حققه وعلق عليه محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط 1965، ص.ب وما يليها.

[4]- كل هؤلاء كانوا من النخبة المثقفة ومن المتمرسين على السفر، فالحاج عبدالكريم بريشة كان كثير التردد على إسبانيا ولم تكن سفارته المرة الأولى التي زار فيها هذا البلد، فقد سبق له أن توجه إليه ضمن أعضاء سفارة سابقة ولا شك أنه كان يتقن اللغة الإسبانية، كما أن إدريس بن إدريس العمراوي كان واحدا من المشاركين المنشطين للحياة الأدبية بالمغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ينظر، مصطفى الشابي، **النخبة المخزنية في القرن التاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط 1995.

المسلمين في إسبانيا واسترجاع ما يوجد من المخطوطات العربية في خزائنها. فقد استغل السلطان مولاي إسماعيل (1672-1727) من تم أسرهم في حصار مليلية ليقايض بهم الأسرى المسلمين والمخطوطات العربية، وإن كان بعض الدارسين يشكك في أن الغاية من السفارة هي افتكاك الأسرى وجلب الكتب[5]. ومهما يكن من أمر فإن الغساني يعتبر السفير الأول ممن ترك أثرا كتابيا عن سفارته حيث أنجز كتابا سماه **رحلة الوزير في افتكاك الأسير**[6].

الثاني- أحمد بن المهدي الغزال الذي بعثه السلطان محمد بن عبدالله (1757-1790). وكانت المهمة التي أوفد من أجلها تتعلق بالأسرى وتحسين وضعيتهم في إسبانيا. بدأت قصة السفارة مع إجراء قام به السلطان محمد بن عبدالله في السنوات الأولى لحكمه، ويتعلق بالإفراج عن عدد من الأسرى الأسبان بدون فدية، وهو الإجراء الذي فتح صفحة جديدة في تاريخ العلاقات الإسبانية المغربية. كان من نتائج الخطوة التي أقدم عليها السلطان المغربي أن بعث الملك الأسباني بعثة من القساوسة

---

[5] Pérès (Henri), *L'Espagne vue par les voyageurs musulmans de 1630 à 1930*, Adrien-Maisonneuve, Paris 1937 , p.7

[6]- حظي هذا الكتاب بالنشر لأول مرة في سنة 1939 حيث أشرف على نشره ألفريد البستاني ضمن منشورات مؤسسة فرانكو بالعرائش ، بعد أن كان قد ترجم جزئيا إلى اللغة الفرنسية من قبل المستشرق الفرنسي Sauvaire بعنوان: Voyage en Espagne d' un ambassadeur marocain (1690-1691)
وقبل البستاني و سوفير كان E.J. Stanley قدمه لأول مرة للقراء في مقالة نشرها بعنوان :
An Account of an Embassy from Morocco to Spain in 1690-1691, in *JRAS*, t.II, 1868, pp. 359-378
كما حظي الكتاب بدراسات تعريفية كما الشأن بالنسبة للدراسة السابقة الذكر التي قام بها هنري بيريس أو التعريف المقتضب بالرحلة وظروفها عند المستشرق الروسي كراتشوفسكي، والتي كانت عبارة عن تلخيص لما جاء في الدراسة السابقة. كما حظي الكتاب بمقاطع متميزة في الدراسة التي أنجزها برنارد لويس.
كراتشوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت1987. ص. ص .809-813.
Lewis (Bernard), *Comment l'Islam a découvert l'Europe*, La découverte, Paris ,1984
وقد انشغل برحلة الوزير المؤرخون الإسبان ونشروا دراسات وأبحاث ألقت أضواء جديدة على الرحلة وموضوعها من خلال نشر مجموعة من الوثائق الإسبانية المرتبطة ببعثة الغساني، وتكفي الإشارة إلى الدراسة المتميزة التي أنجزها J.Vernet التي عززها بنشر عشرين وثيقة ذات صلة بها، وكلها تدحض ما ذهب إليه البعض من أن افتداء الأسرى واسترجاع الكتب لم يكن سوى بغرض التمويه.
Vernet (J), La Embajada de Al-Ghassani (1690-1691), in *Al Andalus*, Vol. XVIII, 1953,pp.109-131
أما الباحثون والمؤرخون المغاربة فلم يفوا الكتاب حقه من الدرس والتحليل، ويكفي أن نلقي نظرة عن الندوة التي نظمت مؤخرا بالرباط لنقف عند هذا التقصير. ينظر:
الرحالة العرب والمسلمون : اكتشاف الآخر، المغرب منطلقا وموئلا منشورات وزارة الثقافة المغربية، الرباط 2003

تحمل رسالة شكر وهدايا للسلطان ودعوة لتوجيه سفير مغربي. و لم يكن هذا السفير سوى أبي العباس أحمد بن المهدي الغزال. وقد توجت سفارة الغزال بتوقيع معاهدة بين السلطان محمد بن عبدالله والملك الإسباني كارلوس الثالث وهي المعاهدة التي أشرف على تحرير نصوصها من الجانب المغربي أحمد الغزال ووقعت في26 مايو 1768، وهي أيضا المعاهدة التي أثارت الكثير من الجدل خاصة عندما أقدم السلطان المغربي على حصار مدينة مليلية في سنة 1771. مهما يكن من أمر نجاح هذه السفارة أو فشلها ونباهة صاحبها أو عدمها، فإن الغزال يعتبر ثاني سفير مغربي يترك أثرا كتابيا عن رحلته في كتاب بعنوان **نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد**[7].

الثالث- محمد بن عثمان المكناسي الذي قاد سفارة في زمن السلطان محمد بن عبدالله في سنة1779.وكانت المهمة التي توجه من أجلها بن عثمان المكناسي هي عقد معاهد لتجديد الصلح بين البلدين وافتكاك الأسرى الجزائريين الذين كانوا بإسبانيا . وقد خلف ابن عثمان عن سفارته كتابا مهما سماه **الإكسير في افتكاك الأسير**.[8]

الرابع- أحمد بن محمد الكردودي ، الذي ألف زمن السلطان مولاي الحسن 1876-1894، لم يكن الكردودي كما كان سابقوه رئيس البعثة المغربية التي وجهت إلى إسبانيا بل كان كاتبها الرئيسي فقط. ففي سنة 1885 تم اختيار الكردودي ليكون كاتبا في البعثة التي يرأسها عبدالصادق الريفي إلى إسبانيا. لم تكن هذه المهمة الأولى له خارج المغرب فقد سبق أن توجه إلى فرنسا صحبة السفير القائد المعطي المزامزي،

---

[7]- نشرت رحلة الغزال مرتين الأولى بعناية ألفريد البستاني سنة 1949 والثانية بعناية إسماعيل العربي الذي أعاد تحقيقها سنة 1980 بالاعتماد على ما توفر من نسخ المخطوط. وكان ألفريد البستاني قد اعتمد نسخة واحدة منها وهي الموجودة بالخزانة الوطنية بمدريد. وقد اعتمدنا في إحالاتنا على نتيجة الاجتهاد على التحقيق الذي قام به هذا الأخير. وكانت قبل نشرها قد ترجمت إلى اللغة الفرنسية من قبل عسكري مجهول ونشرت في حلقات ضمن مجلة Le lien médical marocain خلال سنة 1933.
أحمد بن المهدي الغزال، **نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، رحلة الغزال وسفارته إلى الأندلس**، تحقيق إسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1980.

[8]- نشرت هذه الرحلة مرة واحدة حققها وقدم لها محمد الفاسي ضمن مشروع كان يهدف إلى إنجازه ويتعلق بنشر متون الرحلات المغربية بكل أصنافها. وكانت رحلة ابن عثمان أولى هذه الرحلات، لكن المشروع لم يكتب له التحقق كاملا إذ لم تنشر في إطاره سوى ثلاث رحلات أخرى .

ثم عين مع النائب الطريس مندوبا في السفارة التي توجهت إلى إيطاليا. وكانت المهمة التي سافر في إطارها الكردودي إلى إسبانيا تختلف كليا عن المهام السابقة، وهي مرتبطة ارتباطا قويا بواقع المغرب ما بعد مؤتمر مدريد سنة 1880. وقد كتب الكردودي عقب سفره إلى إسبانيا كتابا بعنوان **التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الاصبنيولية.**[9]

الرحلة التي نقدم اليوم هي أول هذه الرحلات، أي أنها الرحلة الأولى من نوعها لمغربي إلى الديار الإسبانية، وتشكل المرجع الأساس الذي نهلت منه سائر الرحلات السفارية الأخرى. فمن يكون الوزير الغساني؟ وما هو سياق سفارته؟ وما هي إسهاماته في معرفة المسلمين بأوروبا؟

لا نتوفر إلا على معلومات قليلة حول شخصية الوزير الغساني، وكل الذين ترجموا له[10] من المغاربة يجمعون على أنه من أسرة أصلها من الأندلس استقرت بمدينة مراكش، وأنه كان يعمل كاتبا في البلاط السلطاني بمدينة مكناس. ويذهب ابن زيدان إلى أن الغساني اكتسب شهرة كخبير بجمع الكتب ونسخها وأنه كان خطاطا قبل أن يكون كاتبا. وأنه دعي للقيام بهذه السفارة لخبرته في ميدان جمع الكتب ونسخها. وكان النجاح الذي حققته هذه السفارة فيما يبدو داعيا لتوجيهه على رأس سفارة أخرى إلى الجزائر. باستثناء هذه المعلومات لا نتوفر على أي شيء آخر يتعلق بالوزير الغساني، وحتى رحلته السفارية لا تقدم معطيات حول شخصيته.

أما عن الظروف التي سافر فيها إلى إسبانيا فتذكر المصادر أن السلطان مولاي إسماعيل عندما استرجع العرائش[11] وأسر من كان في قلعتها من الأسبان فكر في توجيه سفارة قصد افتداء الأسرى المسلمين واسترجاع ما يوجد من الكتب العربية في أسبانيا. ويتعلق الأمر بالخزانة الزيدانية التي كانت قد سطا عليها القراصنة أثناء

[9]- اعتنى بنشرها عبدالوهاب بنمنصور وصدرت ضمن مطبوعات القصر الملكي بالرباط سنة 1963
[10]- ترجم له القادري ترجمة مقتضبة هي التي تداولها اللاحقون من أمثال محمد بن جعفر الكتاني وعبدالرحمن بن زيدان.
[11]- استرجع مولاي إسماعيل العرائش بعد حصار طويل سنة 1689.

رحلة زيدان السعدي البحرية بين أسفي وأكادير خلال الأزمة التي أعقبت وفاة السلطان المنصور السعدي[12]. وهذه الكتب التي تم السطو عليها تشكل إحدى المجموعات الأساسية في مكتبة الأسكوريال. و لأن الغساني كان على دراية بالكتب وما يتعلق بها فقد اختاره السلطان للقيام بهذه المهمة، ولا نشاطر بعض الباحثين قولهم إن مسألة استرجاع الكتب كانت من أجل التمويه ليس إلا.

تندرج سفارة الغساني إلى إسبانيا ضمن توجه جديد للمخزن المغربي في تعامله مع البلدان الأوربية، فلم تكن سفارة الغساني حالة فريدة في العلاقات الأوربية المغربية في عهد السلطان مولاي إسماعيل، بل نجد سفارات أخرى إلى فرنسا وانكلترا.

فإلى فرنسا أوفد السلطان إسماعيل في يناير 1682 سفارة محمد تميم التي شجعت الفرنسيين على بعث وفادات كان الهدف منها العمل على لإطلاق الأسرى الفرنسيين في المغرب، وقد أعطت السفارة المغربية ثمارها عندما وقع الطرفان معاهدة تضمنت من بين ما تضمنت الشروط المتعلقة بتبادل الأسرى. وفي شتنبر 1698 وصلت إلى باريس سفارة أخرى برئاسة أمير البحر عبدالله بن عائشة لمواصلة تعميق الروابط المغربية الفرنسية وتكييف بنود الاتفاقية الموقعة في 1682، وكانت مناسبة أيضا لمطالبة لويس الرابع عشر إرسال المخطوطات العربية التي تتوفر عليها الخزانات الفرنسية.[13]

وإلى إنكلترا أوفد السلطان اسماعيل سفارة محمد بن حدو أعطار، وكان موضوع السفارة مناقشة ما تخلف عن الهجوم الانجليزي على طنجة سنة 1678، ونتج عن هذه السفارة أيضا التوصل إلى وضع اتفاقية مغربية إنكليزية عرفت في تاريخ العلاقات المغربية الإنكليزية بمعاهدة ويت هول White Hall التي رفض السلطان المصادقة عليها فيما بعد.

---

[12]- تناول أحمد شوقي بنبين تفاصيل انتقال هذه الكتب من المغرب إلى إسبانيا في مقالة مهمة وموثقة. ينظر:
أحمد شوقي بنبيـــــن، خزانة مراكشية بالأسكوريال، في **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية،الرباط،** (9)،1982، ص. 127-142

[13]- حول هاتين السفارتين ينظر

Caille(Jacques), *La représentation diplomatique de la France au Maroc*, Paris,1951.

وهذه السفارات ارتبطت كلها إلى حد بعيد بالضغوط التي مارستها هذه البلدان على المغرب من خلال توجيه حملات على بعض ثغوره ومحاولة الاستفادة من الوضعية الصعبة التي كان يجتازها المغرب في النصف الثاني من القرن السابع عشر، ومن جهة أخرى ينبئ إيفاد هذه السفارات عن توجه جديد في السياسة الخارجية المغربية والتعاطي مع القضايا الساخنة في العلاقات المغربية الأوروبية، أو ما يمكن أن نسميه بإرهاصات الانفتاح.

خرجت السفارة من مدينة سبتة في الخامس عشر من محرم سنة 1102 الذي يوافق 19 من أكتوبر 1690 متجهة إلى جبل طارق، ومرت في طريقها على طريف وقادس وشريش وإيسكا وقرطبة وليناريس ثم منسناريس ومورة حتى بلغت مدريد في السابع من ربيع النبوي من نفس السنة الذي يوافق 6 دجنبر 1690. وبعد قضائها أكثر من ستة أشهر في مدريد غادرت السفارة العاصمة الإسبانية في اتجاه طليطلة في أوائل رمضان من سنة 1102 الموافق للتاسع والعشرين من شهر مايو من سنة 1691، وهو ما يعني أن السفارة استغرقت أقل من ثمانية أشهر، وهي نفس المدة التي استغرقتها الرحلات اللاحقة ، وفيما يلي جدول بتواريخ الذهاب والإياب للرحلات الأربعة إلى مدريد:

السفير	الذهاب	الإياب
الغساني	19 أكتوبر 1690	29 ماي 1691
الغزال	25 ماي 1766	ماي 1767
ابن عثمان	31 أكتوبر 1779	25 شتنبر 1780
الكردودي	11 يونيوه 1885	2يناير 1886

هذه المدة كانت كافية للوزير الغساني لأن يقدم وصفا ضافيا لإسبانيا يكاد يتجاوز بكثير من حيث الدقة الأوصاف التي قدمها أوربيون لإسبانيا خلال نفس المرحلة.فكان الغساني مؤرخا وإثنوغرافيا من الدرجة الرفيعة، وتعتبر رحلته أهم مصنف إسلامي عن تاريخ أوروبا في القرن السابع عشر كما يعتبر وصفه للمجتمع الإسباني واحدا من أبرز ما كتبه المسلمون عن أوروبا في العصر الحديث.وقد غدا الكتاب مرجعا لكل الرحالة المغاربة الذين كتبوا عن اسبانيا في الفترات اللاحقة.

الغساني المؤرخ:

لم يعن المسلمون بكتابة تاريخ أوروبا وربما لم يكونوا يرون ضرورة لذلك، وحتى عندما كتبوا فإن التاريخ الذي أنجزوه كان تاريخا احتراريا يغيب عنه تتبع المستجدات التي وقعت في أوروبا، فقد حافظ المسلمون على تصورهم السابق الذي يوجهه شعورهم بالتفوق.ويكفي أن نورد هنا مثالا من القرن السابع عشر، فعندما كلف مصطفى نعيمه، وهو أول مؤرخ عثماني رسمي، بكتابة تاريخ الفترة الممتدة ما بين1590 و 1660 لم تنل أوروبا عنايته في كتابه الذي يقع في ستة مجلدات، وعندما كتب عن حرب الثلاثين سنة في أوروبا لم يخصص لها سوى صفحتين، وكانت المعلومات التي قدمها عن هذه الحروب سطحية وخاطئة كأن يقول مثلا إن فليب الرابع "لا زال ملكا يحكم حتى الآن"[14]

بيد أن الطريقة التي كتب بها الغساني تاريخ أوروبا تختلف عن ذلك،و لم تكن الكتابة عنده احترارية،فهو لم يهتم بتاريخ الفترة الإسلامية في الأندلس إلا لماما وفي نهاية الكتاب، وفضل أن ينخرط في "التاريخ الراهن" آنذاك لأوروبا المسيحية وللعلاقات بين العالم الإسلامي وأوروبا، كما أن معلوماته لم تكن مختزلة كما هو الشأن بالنسبة لنعيمه. ونشعر عند الغساني أن الهدف من هذا التاريخ ليس استحضار البطولات، وليس أيضا لغرض تبرير وجوده كمسلم في دار الحرب، وإنما الغاية هي

[14]- عين مصطفى نعيمه مؤرخا رسميا للدولة العثمانية سنة 1709 وهو بهذا المعنى يكون قد كتب خلال العقد الثاني من القرن الثامن عشر، ينظر:

Babınger (Franz), *Osmanlı tarih Yazarları ve Eserleri*, Çevıren Coskun Uçok, Ankara, 1992, p. 269

محاولة فهم الآخر انطلاقا من تاريخه القريب. ولاشك أن السلطات المخزنية في المغرب كانت بحاجة ماسة إلى مثل هذه الصورة الدقيقة حتى تتمكن من رسم سياستها الأوربية.

اعتنى الغساني بكتابة تاريخ اسبانيا، منذ القرن الخامس عشر وكان المدخل لكتابة هذا التاريخ هو الوصف الذي قدمه للملك الإسباني كارلوس الثاني، والذي جره للحديث عن تاريخ ملوك إسبانيا. وتعتبر المعلومات التاريخية التي يزودنا بها عن تاريخ إسبانيا الحديث دقيقة ومفصلة جدا كما سبقت الإشارة، إلى درجة أن السفير يعرض لبعض الجزئيات مثلما هو الحال عندما يروي كيفية تولي شارلكان العرش أو مثلما هو الأمر عندما يعرض لعلاقة والدة كارلوس –ماريا دي اوسطريا- مع الشاعر الدويندي Fernando de Venezuela أو تلك الطريقة التي يحكي فيها عن علاقة فليب الرابع بأحد وزرائه.

والملاحظ أن الملوك الأسبان لم يكونوا سواسية في التقويم عند الغساني، وإن كان كلما ذكر ملك من هؤلاء أردف اسمه كما تقتضي ذلك العادة الإسلامية بعبارة "دمره الله". ففليب الثاني عنده يعتبر من أخبث ملوك أسبانيا، يفسر الغساني هذا التقويم بشكل غير مباشر عندما عرض لثورة مسلمي غرناطة وردود فعل الملك الإسباني المتميزة بالعنف والدموية. و يحظى عنده كارلوس الثاني بالكثير من التقدير، فهو "ليس من نسل طواغي إصبانية الذين كانوا حاربوا المسلمين وتغلبوا على البلاد الأندلسية وقشتالة وغيرها"، كما أنه ملك مسالم، فهو "لم يتقدم إلى موضع من المواضع ولا صحب محلة ولا برز إلى حرب ، وهو من الحضارة بما كان لا يركب فرسا ولا غيره، وإنما يركب دائما في كدش مع زوجته في غالب الأيام ..ويقصد الكنائس دائما ويتعبد بجميع متعبداهم"، ولكن هذا لا يعني أن كارلوس الثاني كان ينجو من تلك اللازمة التي تردف باسم الملوك الأوربيين عند المؤرخين المسلمين مهما يكن سلوكهم اتجاه البلاد الإسلامية.

لم يعتن الغساني كثيرا بوصف الملك وتغاضى عن استحضار ما كان يعاني منه كارلوس الثاني من أمراض وتشوهات بدنية كانت موضوع لعدد من الأوصاف الأجنبية. لقد زار الغساني إسبانيا في فترة بدأ يعاني منها الملك الإسباني من تشوهات، فقد ضاعت منه كل أسنانه وتساقط شعره و لم يعد بقادر على الوقوف كثيرا. ونعتقد أن إعراض المؤلف عن ذكر عيوب الملك الإسباني يدخل في إطار ثقافته الإسلامية التي تنبذ هتك أعراض الناس كما أنها تدخل في إطار لباقة وكياسة السفير الديبلوماسية.

ونلاحظ أن الغساني وعبر تاريخ أسبانيا لا يترك الفرصة تمر دون الحديث عن علاقة هؤلاء الملوك بالضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، فعندما كان يؤرخ لعهد شارلكان لم تفته الفرصة للحديث عن الهجوم الذي قاده شارل الخامس على الجزائر 1541 وكذا الهجوم الذي شنه لأجل أخذ تونس1534. بيد أن أهم حدث يؤرخ له الغساني والمتعلق بالضفة الجنوبية للمتوسط هو معركة وادي المخازن. وقد جاء الحديث عن هذه المعركة في سياق التاريخ لعهد فليب الثاني، إذ يورد أن فليب الثاني كان قد نصح "خاله" دون سباستيان بعدم الخروج "عن وطنه إلى وطن آخر ليس هو له، وأن لا قدرة له على مقاومة المسلمين إذ ذاك لوجود الملك بالمغرب." ويقف الوزير الغساني عند المقارنة بين الأرقام-أعداد المشاركين في معركة وادي المخازن من الجانبين الإسلامي والمسيحي- التي مده بها مخبروه والأرقام التي يتوفر عليها ليأخذ في النهاية بالأرقام التي يتوفر عليها دون تقديم تفسير لذلك، إذ يقول :

" وكان عدد النصارى على ما هو معروف عندنا ثمانين ألفا ، والنصارى يزعمون أن مبلغ الجيش الذي كان مع سبستيان في خروجه ذلك ثمانية عشرة ألفا، فمن جنس البرتقال أثنى عشر ألفا ومن الإنجليز ثلاثة آلاف ، أتوه مددا لصلح ومهادنة كانت بينه وبينهم، ومن الاصبنيول ثلاثة آلاف، أمده بها ابن أخته فلب شكوند، والصحيح ما هو مقرر عند المسلمين من العدد المذكور".

وهنا يمتزج التاريخ بالاعتزاز بالذات، فكل ما هو صادر عن الآخر خطأ ولا ينبغي الأخذ به دونما حاجة إلى تبرير. ويتأكد هذا الاعتزاز عندما يصور الطريقة التي قاتل بها عبدالملك في المعركة بالاعتماد هذه المرة على مخبره، ومن ثمة لا يشكل الغساني أي خرق لقاعدة تمجيد النصر و التقليل من شأن الهزيمة التي جرت عليها كتابات المؤرخين المسلمين.

وبالإضافة إلى تاريخ إسبانيا كتب الغساني تاريخا للعلاقات الأوربية — الأوربية ، وقبل أن يعرض للحروب بين البلدان الأوربية توقف عند ظاهرة السفير المقيم في أوروبا حيث استعرض البلدان التي كان لها سفراء مقيمون في مدريد ، وهي ألمانيا وإنجلترا والبرتغال، وقد عرض الغساني بصورة غير مباشرة لمثالب فكرة السفير المقيم عندما ذكر ما وقع للسفير الإنجليزي في مدريد وتحوله إلى العقيدة الكاثوليكية.

وكان أول ما عرض إليه السفير المغربي الحروب الفرنسية الإسبانية، وهو لا يكتفي باستعراض هذه الحروب فحسب، ولكن يحاول أن يبحث عن الأسباب التي تؤدي إليها. وقد لخص أسباب الحروب الإسبانية الفرنسية في سببين أساسين الأول منهما يتعلق بمسألة وراثة العرش في كل من البلدين، والثاني مرتبط بـــ" السياسة الإسلامية" لفرنسا والتي كانت تقض مضاجع البلدان المواجهة للدولة العثمانية.

واستعرض الغساني أيضا الحروب الإنجليزية الفرنسية والتي ربطها بالوضع الذي عرفته إنجلترا بعد تحول جاك الثاني (1685-1688) من الإنكليكانية إلى الكاثوليكية وما كان لذلك من العواقب إن على المستوى المحلي أو على مستوى العلاقات بين فرنسا وإنجلترا والأوضاع في البلدان المنخفضة.

وبالإضافة إلى التفسيرات والتحليلات التي يقدمها السفير المغربي يعرض بالتفصيل لبعض الأحداث مثل الهجوم الفرنسي على برشلونة واليقنتي، يقول الغساني:

"فزعموا أنه في هذا الشهر خيم عليها ونصب عليها (أي على قاطلونيا) وعلى مدينة برشلونة المدافع والبونبات وهد منها عدة دور، فنهض أهل برشلونة إلى

من ببلادهم من جنس الفرنسيس، وأمروا بخروج سائر من هو بها من أعزب ولا يترك إلا من هو متأهل. وحين فعلت سفن الفرنسيس في برشلونة ما فعلت تقدمت إلى مدينة تسمى اليقنتي ، فهدت منها أيضا بالبونبات ما ينيف عن ستمائة دار، فأحاط أهل اليقنتي بمن معهم أيضا من الفرنسيس وقتلوهم بحيث لم يفلتوا منهم أحدا، فزعموا أن عدة من قتل منهم باليقنتي ثلاثة آلاف نفس".

ولا يرتكب الغساني في كتاباته عن تاريخ أوروبا سوى بعض الأخطاء الطفيفة، وإن كان البستاني يعتبرها "أغلاط هامة"[15]، إلا أننا لا نعتبرها كذلك بالنظر إلى أن المؤلف كان أول مغربي يكتب تاريخ أوروبا في العصور الحديثة، فكان من الطبيعي أن يرتكب هذه الأخطاء وهي قليلة جدا، فهو مثلا خلط بين الملك الفرنسي والملك الانجليزي عندما تحدث عن انشقاق هذا الأخير عن الكنيسة الكاثوليكية وإحداثه المذهب الانكليكاني.

ولم يفت السفير المغربي أن يقف عند العالم الجديد حيث يتوقف عند الانعكاسات السلبية و الإيجابية للوجود الإسباني في أمريكا. إن حضور العالم الجديد في الكتابات المغربية نادر جدا، على عكس حضوره عند العثمانيين الذين اهتموا به ويبدو ذلك من خلال تلك الخريطة المحفوظة في أرشيف طوب قابي سراي، والتي أنجزت -على ما يبدو- سنة 1513، وهي نسخة عثمانية للخريطة التي استعملها كريستوف كلومبوس، كما بدا هذا الاهتمام في كتاب عثماني حول هذا العالم الجديد اعتمد فيه صاحبه على مصادر شفوية أوربية، وقد أنجز هذا الكتاب في نهاية القرن السادس عشر، ويصف الأرض وسكانها وحيواناتها ويتمنى أن تصبح هذه الأرض مسلمة لتلتحق بممتلكات السلطان العثماني[16]. وينضاف إلى هذين العملين المبكرين حول العالم الجديد رحلة عربية أخرى أنجزها أحد الرهبان الشاميين الذي

15- يتحامل البستاني كثيرا على الغساني في مناسبات عدة وبدا ذلك واضحا عندما تعسف فحذف بعض المقاطع من الكتاب معتبرا أنها غير ذات فائدة وفيها تحامل كبير على النصارى.

16- عن العثمانيين والعالم الجديد يراجع:

Goodrich (Thomas.D), *The Ottoman Turks and the new world: a study of Tarih I Hind-garbi and sixteenth century Ottoman Americana*, Wiesbaden, 1990.

قدم وصفا ضافيا لأمريكا الجنوبية والوسطى، ويتعلق الأمر بإلياس بن حنا الموصلي الذي أقام في هذا العالم خلال الفترة ما بين 1675و 1683[17].

بيد أن حضور العالم الجديد عند الغساني لم يكن سوى عرضا، وكان بمناسبة الحديث عن الملكة ايزبيلا، والأثر الإيجابي لوجود الأسبان في أمريكا حيث يذكر بمسلمة لم يعتن بتسجيلها المؤرخون المسلمون، وهي أن أسبانيا اكتسبت قوتها بفضل تجارتها مع العالم الجديد،يقول :

" و لم يزالوا يملكون في الهند بلدانا كثيرة وأقاليم متسعة يجلبون منها كل سنة ما يغنيهم. وبحصول هذه البلاد الهندية ومنفعتها وكثرة الأموال التي تجلب منها صار هذا الجنس الاصبنيولي اليوم أكثر النصارى مالا وأقوى دخلا..."

وكأن الغساني كان ينبهنا إلى سبب من أسباب قوة الغرب التي لم يتمكن المسلمون من استيعابها خلال المرحلة التي كتب فيها.ويلجأ السفير إلى التفسير الخلدوني للتاريخ عندما كان بصدد الانعكاسات السلبية للوجود الاسباني في أمريكا: ".. إلا أن الترف والحضارة غلبت عليهم، فقلما تجد أحدا من هذا الجنس يسافر للبلدان بقصد التجارة كعادة غيرهم من أجناس النصارى مثل الفلامنك والإنجليز والفرنسيس والجنويز..".

وتحتل الحروب العثمانية الأوربية موقعا مهما في الرحلة حيث يعرض للحروب التي قادها سليمان الثاني من أجل استرجاع مدينة بلغراد في السنة التي كان فيها السفير الغساني مقيما في مدريد. ويبدو من خلال عرضه لهذه الحروب عدم تملكه بناصية الخبر ويكتفي بإعطاء بعض المعلومات السطحية، كحديثه عن دخول بولونيا معترك هذه الحروب ومحاولات النمسا استقطاب الروس للمشاركة في الدفاع عن مدينة بلغراد. ومع ذلك فإن الغساني حافظ على حسه كمؤرخ "بالسليقة"،

---

[17] اعتنى الرباط في السنوات الأولى من القرن العشرين بنشر هذا الكتاب في بيروت تحت عنوان **رحلة أول شرقي إلى أمريكا**. ينظر:
كراتشوفسكي، **تاريخ...** ص.767-772

عندما ناقش المساعدات الفرنسية للدولة العثمانية التي يعتبرها الأوربيون حاسمة في التفوق التركي، يقول:

"وبسبب محاربة الفرنسيس للانبرادور حسبما تقدم ذكر الأسباب المثيرة لها ينسبون له المعونة لملك الترك قواه الله، ويزعمون أنه يمده بما يحتاجه من الأمور الحربية مثل المدافع وغيرها/ وبسبب مقام انبشادور للفرنسيس ببلاد اصطنبول. يزعمون أنه يمده والصحيح أن أهل فرانسة هم أهل أسباب وتجارات ، وجل تجارقم إنما هي في الناحية الاصطنبولية... و إلا فالترك يطلبون القوة والمعونة من الله تعالى لا كما يزعم هؤلاء الجهلة من أهل الضلال...".

وهذا الموقف من الدولة العثمانية ،إنما يعبر في الحقيقة عن موقف رسمي للمغرب من الدولة العثمانية المركزية ويعكس لحظة مهمة في تاريخ العلاقات المغربية العثمانية، فقد كان السلطان مولاي إسماعيل قد بعث بسفارة إلى استانبول بمجرد تولية السلطان سليمان الثاني، ويتعلق الأمر بسفارة عبدالملك الأيوبي. وتذكر المصادر المغربية وصول سفير عثماني عقب ذلك يحمل رسالة إلى السلطان العلوي عبارة عن دعوة لتجاوز آثار المواجهات العسكرية بين باشاوات الجزائر والمغرب. وقد يكون أيضا موقفا شخصيا لهذا المثقف المغربي من الدولة العثمانية كدولة منافحة عن الإسلام، بمعنى أنه موقف فرضه الانتماء إلى دار الإسلام. فقد حرص كل المثقفون المغاربة- كلما سمحت لهم الفرصة- على الإشادة بالسلاطين العثمانيين والدعاء لهم مهما كانت طبيعة العلاقات السياسية بين السلاطين العثمانيين والشرفاء العلويين.

الغساني الإثنوغرافي: لم يغفل الغساني المجتمع الاسباني وشمله بوصف يتميز بنفس الدقة التي أرخ بها لأوروبا، ولم يترك مجالا من الحياة اليومية إلا وطرقه. وقد كان الاختلاف والوعي بالصور الغائبة والمفتقدة وغير المألوفة والضدية وراء هذه الأوصاف غير المسبوقة.

لقد كان الغساني كباقي الرحالة المسلمين في أوروبا مهوسا بتسجيل كل ما هو غريب وعجيب في هذا البلد، فهو منذ البداية يخبرنا بحرصه على وصفه وتدوينه:

"فتوجهت مستعينا بالله تعالى إلى هاتيك الأقطار بإذنه الشريف وأمره مستظلا بظل جلالته وفخره، ورأيت هنالك من العجيب العجاب ما يسحر العقول ويبهر الألباب فجمعت بعض ذلك في هذه الرقاع لئلا تعدو عليه يد الضياع، ورسمته مخافة النسيان، رجاء أن يستفيد به من يطلع عليه من الأخوان"

والرغبة في تسجيل كل ما هو غريب كانت وراء الأوصاف التي أوردها للأعياد التي كان يقيمها الأسبان أو تلك الحفلات التي دعي للحضور إليها. لقد كان الغساني أحد الواصفين من المسلمين بشكل دقيق لما يسميه هو "عيد الثيران":

"فإن من عوائدهم إذا كان شهر ماي في العاشر منه أو في النصف يختارون ثيرانا فحولا سمانا، ويأتون هم إلى تلك البلاصة، ويزينونها بأنواع الفرش من الحرير والديباج، ويجلسون في المجالس المطلة على البلاصة، ويطلقون الثيران واحدا واحدا. ويدخل إليهم من يدعي الشجاعة ويحب إظهارها راكبا على فرسه ليقاتل الثور بالسيف، فمنهم من يموت ومنهم من يقتل".

وفي إطار ممارسة الاختلاف والغيرية، تحتل المرأة مساحة مهمة داخل هذا الوصف وهذا الحضور القوي للمرأة إنما يعكس واقعا ثقافيا متميزا بالرقابة الذاتية وبالتالي تكون مناسبة وصف الآخر وسيلة لتجاوز هذه الرقابة الجمعية و إطلاق العنان للمتخيل، وتمليه أيضا الرغبة في انتقاد المجتمع الموصوف لأن الرحلة إلى أوروبا –وينبغي أن نسجل ذلك– لم تكن تكتب فقط من زاوية الانبهار بل أيضا من زاوية انتقاد مجتمع بلاد الكفر.

لقد كانت المرأة حاضرة في أوصاف الغساني للمجتمع الإسباني بقوة كبيرة و في جميع المجالات:

سياسيا، حيث عرض الغساني لصور هذا الحضور في كل الاستقبالات التي خصصها الملك الإسباني للسفارة المغربية، وكان من الممكن أن يغض السفير الوزير

الطرف عن هذا الحضور البرتوكولي لكنه حرص في كل مرة على التذكير به وبالموقع الذي تحتله زوجة وأم الملك الاسباني. ولما كانت المرأة في إسبانيا تحكم، فقد وقف الغساني عند "المرأة الملكة" وذلك من خلال تعرضه للمرحلة الفاصلة بين موت فليب الرابع وتولية كارلوس الثاني حيث وصف حالة ماريا دي أوسطريا. وقد استرعى باهتمام السفير المغربي أيضا علاقات المصاهرة بين الملوك الأوربين وهو ما دفعه إلى إيراد عدد من القضايا التي تبرز الدور السياسي للمرأة في انتقال الملك في البلاد الأوربية. وعلاقات المصاهرة هذه هي التي جعلته يتنبأ بالوضع الذي عرفته إسبانيا بعد وفاة كارلوس الثاني.[18]

دينيا، عرض الغساني لهذا الجانب عندما كان بصدد الحديث عن الرهبنة في صفوف النساء، وحيث كان في ليناريس أتيحت له فرصة زيارة دير للراهبات، وهي مناسبة سمحت له بالتعمق في معرفة كيفية ولوج الأديرة من قبل النساء والأسباب التي تدفع بهؤلاء النساء إلى ولوج الدير. و عندما يسهب في وصف الدير فذلك ليس بطريقة التعميم، ولكنه يلجأ إلى الاستشهاد من خلال حالات بعينها، يقول :

"كما رأيت في كنبنط للمونكاص الراهبات من مدينة إشبيلية صبية في غاية الحسن والجمال واعتدال القامة وصباحة الوجه لها أربعة عشر عاما أو ما يقرب منها ولباسها غير لباس الراهبات ، فسألت عنها وعن سبب مخالفة لباسها لجميع الراهبات..."

وبنفس التدقيق، ومن خلال حالات ثابتة، يعرض لما كانت تتعرض له المرأة من تجاوزات داخل الأوساط الدينية، عندما يعرض لحالة رجل دين أجبر ابنة أخته على الزواج منه، وحالة أخرى أخبره عنها من يثق به وتتعلق بابنة بمدينة سبتة افتض بكارتها خالها من رجال الدين وكشف عن أمرها و لم تتزوج، وعندما يعرض أيضا لتعليق لإحدى النساء على ممارسة الفرايلية قائلا:

---

[18]- يقول الغساني: "ومن أجل ميراث النساء على هذه الصورة صار هذا الجنس الاصبنيولي يتوقعون تولية الفرنسيس عليهم بأحد الأمرين ، إما بالميراث إذا لم يولد لطاغيتهم، وذلك أن الفرنسيس كان تزوج ابنة فليب كوارط، أخت هذا الطاغية لأبيه، فولدت من الفرنسيس ولدا يسمى الدلفين... فإذا مات هذا الطاغية كرلوس شكوند ولم يخلف من يلي ملك اصبانيا من نسله صار ملكها لولد الفرنسيس بالميراث من قبل أمه".

"ويشهد لذلك ما سمعته من امرأة بمدينة إشبيلية حسنة الصورة، وقد وردت مع أمها وأختيها علينا بقصد الزيارة ... فتنهدت وقالت الفرايلية ملعون من يأمن بهم، فسألناها عن سبب ذلك، فقالت: أنا أعرف بهم من كل أحد ولا أحتاج مع قولي هذا إلى تفسير." ولقد كان استحضار الدور الديني للمرأة فرصة للغساني لممارسة غيريته، عندما يستهجن ويتهكم من الممارسات والطقوس الدينية، فهو لا يتردد في الرد على راهبة قالت له "سلكنا الله وإياكم مسلك النجاة والله ما عرفنا أن يسار بنا؟" بالقول :" إلى جهنم وبئس المصير".

اجتماعيا، توقف الغساني كثيرا عند دور المرأة في المجتمع الأسباني، فهي ليست ربة بيت وإنما أيضا تملأ الحياة خارج البيت، المرأة التي تبيع الخبز على جنبات الشوارع والتي تصهر على المطاعم التي تعج بها مدينة مدريد وغيرها من مدن اسبانيا، ويذكرنا هذا الوصف لحضور المرأة خارج البيت بالأوصاف التي قدمها محمد أفندي عندما زار باريس سنة 1721[19].

لا يتوقف الغساني عن ممارسة اختلافه وغيريته عندما يتعرض لبعض مظاهر الحياة اليومية في إسبانيا كالحديث عن الطعام والعادات الغذائية المختلفة، فخلال توقفه بمدينة منسناريس يصف إصرار مضيفه على تناول الخمر:"وكثيرا ما تضرع ورغب في أن نساعفه في شرب شيء من الخمر، وأطنب في شكرها، وزعم أنه قدم عنده وله سنون عدة، فقلنا له لا يحل ذلك في ديننا ولا يسوغ في ملتنا، فجعل يشفق من شربنا الماء البارد صرفا".

وقد اعتنى الغساني بالتراتب الاجتماعي في أسبانيا، وحاول نحت مفهوم خاص به، هو مفهوم "الكبيرة" ويقصد به الجاه. ويذكرنا أن كسب الكبيرة في إسبانيا لا يتأتى بالمستوى المادي ولكن بواسطتين، الواسطة الأولى هي التقرب من"المخزن"[20]، أما الواسطة الثانية فهي المشاركة في الحروب ضد المسلمين.وهاتان

[19]- Veinstein (Gilles),*Le paradis des infidèles : un ambassadeur ottoman en France sous la régence*, La Découverte, 2004, p.135.

[20]- لم يستطع الغساني التخلص من القاموس السياسي المغربي وتراه يستعمل كلمة "المخزن" كلما أراد أن يقصد "الدولة".

الطريقتان في تسلق السلم الاجتماعي كان لهما تأثير كبير على الوضع الاقتصادي في إسبانيا، فالأسبان قلما يشتغلون بالتجارة والحرف " وأكثر من يستعمل هذه الحرف المهينة في بلاد إصبانيا جنس الفرنسيس ، وذلك حيث كانت بلادهم ضيقة المعاش والأرزاق وصاروا يتقلبون في بلاد أصبانيا بقصد الخدمة واقتناء المال وجمعه، ففي أيام قليلة يجمع أموالا جمة ومنهم من يرغب عن بلاده ويستوطن بهذه البلاد وإن كانت غالية الأسعار فإن مردها كثير.."

لم يترك الغساني مظهرا من مظاهر الحياة الاجتماعية في البلد المضيف إلا وطرقه، ومن بين هذه المظاهر الاهتمام بالموسيقى والرقص، فقد أورد مجموعة أسماء الآلات الموسيقية كالأربة والقيتارة والدفوف والمهاريز، وعرف بها ووصفها وقارن بينها وبين ما هو معروف في المغرب، ومن ذلك مثلا هذا الوصف المفصل للأربة:

"وهذه الأربة هي آلة كبيرة من خشب تقرب قدر قامة الإنسان ولها من الوتر نحو الستة والأربعين، وهي حسنة النغم لمن يحسن جسها ونقرها، وهذه الأجناس من النصارى يستعملونها كثيرا ويعلمونها نساءهم وأولادهم وبناتهم، فقلما تجد دارا إلا وجميع أهلها يحسنون نقر الأربة، وضيافتهم وترحيبهم وإكرامهم هو ضرب هذه الأربة".

لم يكن قصد الغساني أن يتوقف عند ما يعتبر غريبا وعجيبا في البلاد التي زارها، ولكن أيضا كان يقصد أن يقدم بعض التنظيمات والمؤسسات التي كانت وسيلة من وسائل التقدم، ومن ثمة لا نشاطر رأي عدد من الباحثين الذين يعتقدون أن مسألة التفكير في الأخذ بوسائل التقدم الأوربية لم يتم إلا في نهاية القرن الثامن عشر.

ومن الوسائل التي يقف الغساني عندها طويلا:

أولا- البريد، إذ يعتبر الغساني من بين السفراء المسلمين الأوائل ممن اهتم بهذه الظاهرة وأثارت استغرابه منذ أن حط الرحال بأسبانيا. وقبل بلوغه مدريد، وعندما كان مقيما بمدينةسان لوكار، كانت ترد عليه من مدريد رسائل الكردينال

وأهل ديوان أسبانيا لثلاثة أيام من ساعة تاريخها، فكان يقضي "العجب من ذلك مع أن المسافة بينهما أكثر من ثلاثمائة ميل". و لم يمهل الغساني قارئه طويلا حيث قدم له الطريقة التي تجعل التواصل ممكنا داخل كل أوروبا وليس فقط داخل إسبانيا، فعندما كان بصدد وصف سوق مدريد استكمل شرح آليات اشتغال تقنية البريد وكذا ما تجنيه الدولة من أرباح من تقديمها هذه الخدمة.

"وبسوق مدريد أيضا موضع معد للرسائل والبراوات الواردة من جميع البلدان والأقاليم والأقطار، فإن في كل يوم من أيام الجمعة ترد رسائل بلد من البلدان ، فمن كان يرتجي ورود براءة يمضي إلى الحوانيت المعدة لذلك وينظر هل أتاه شيء أم لا...ويتجمل في هذه الرسائل من الأموال شيء كثير.. ولقد ورد شهر فبراير رقاص إيطالية ورومة وأتى معه بزنة ثلاثة وخمسين ربعا من الرسائل فتحصل من ذلك ثلاثة عشر قنطارا وربع القنطار من الفضة..".

ثانيا – وباتصال مع دور البريد في التواصل، عرض الغساني لوسيلة أخرى من وسائل الاتصال في العالم الأوروبي، ويتعلق الأمر بالصحافة. ونعتقد مرة أخرى أن الغساني يعتبر من الرحالة الأوائل ممن عرضوا للصحافة، وتعتبر معلوماته حولها من الأصالة بمكان.وإذا كان رحالة من القرن التاسع عشر[21] قد وقف عند أهمية الصحافة في التجارة، فإن الغساني أعطانا معلومات عن دورها في نقل الأخبار من البلاد النائية، و لم يفته التنبيه على مثالب هذه الوسيلة التواصلية، يقول:

" .. فمن أحب الإطلاع على ذلك يشتري منها قرطاسا يسمونه الكاسيطة، فيطلع الإنسان منها على أخبار كثيرة إلا أن فيها من الزيادة والكذب ما تحمل عليه الشهوة النفسانية".

---

[21]- يتعلق الأمر بالسفير محمد بن ادريس العمراوي الذي كتب عن الصحافة في باريس ما يلي:
"ومما يستعينون به على أمور الصحافة التي يسمونها الكازيطات ويسمونها أيضا الجرنالات، و كيفيتها أن لهم دارا يكتبون فيها ما يقع في العالم كله بحسب ما يروج سماعه من حروب ومهادنات ونوادر وما يتعلق بالدول وما عزمت عليه وما ينبغي أن يكون في الوقت بحسب ما يظهر لهم، ويذكرون السلع التي تباع وأسوامها.. ولها أثر في السياسة والتجارة".
محمد بن ادريس العمراوي، **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، تقديم وتعليق زكي مبارك، الرباط (1989)، ص.98

ثالثا- الأمن في الطرق، فلضمان التواصل داخل البلاد وتوفير شروط نجاح تقنية البريد والصحافة، كان لابد من توفر الأمن في الطريق. وقد انشغل الغساني بهذا الجانب كثيرا من خلال استعراضه لما عرف لما يسميه بالبنطات Ventas أي ما يمكن أن ترجمه بــ"الترالات" في المغرب أو الــ"كروانسراي" في الدولة العثمانية. وقد بين الغساني كيف كانت هذه البنطات تلعب دورا كبيرا في تنظيم التبادل التجاري والسفر في إسبانيا، كما تساهم في القضاء على ظاهرة اللصوصية التي يظهر أنها كانت متفشية في البلاد.

رابعا- ومن المؤسسات التي انبهر بها الغساني وتعمق في وصفها "المارستانات"، فيشير إلى أن مدريد وحدها بها "أربعة عشر مرستانا في غاية الكبر والنظافة والإقامة من الفراش والطعام والمعاجين ومن يقوم بأمر المرضى". ويتوقف كثيرا عند الإشراف على هذه المؤسسة، فيشير إلى الدور الذي يلعبه رجال الدين في تمويلها، فلكل مارستان طبيب خاص وهذا الطبيب تعين له دار سكناه "وجميع مؤونة الطبيب وما يتعلق به وبحشمه من الضروريات ومعيشته كلها من الأوقاف ليكون سائر الأوقات حاضرا غير غائب ولا مشتغل بشأن معاشه". بيد أن الغساني وإن انبهر بسير هذه المؤسسة، إلا أنه امتنع عن الاستشفاء بها لما رفض الموافقة على نقل أحد أعضاء البعثة إليها عندما أصيب بوعكة صحية زمن وجود السفارة بمدينة سان لوكار.

خامسا- نظام التفتيش ليس في المستوى المتعارف عليه عند المسلمين فحسب، باعتبار أداة للقمع، ولكن على المستوى القانوني.فالمؤسسة المكلفة بالتفتيش هي مؤسسة مستقلة لا مجال للطعن في قراراتها، بل الأكثر من ذلك أن الملك بالرغم من سلطاته وقداسته لا يمكن أن يتدخل للدفاع عمن أتخذ في حقه قرار المؤسسة، وهو في ذلك يتقاسم نفس الحكم الذي يطلقه السفير والرحالة الفرنسي Marquis de Villar الذي يعتبر أن سلطة قاضي محكمة التفتيش L'inquisiteur هي أعلى من سلطة

الملك [22]، وإذا كان السفير الفرنسي لا يعطي توضيحات بهذا الشأن فإن الوزير الغساني يعضد ذلك بأكثر من مثال، ويورد أن "أحد خواص الطاغية ووزرائه" ممن لمزوا باليهودية "قبضوا عليه وسجنوه بطليطلة، وهو باق بها إلى الآن". كما يضرب مثالا آخر بالقيم للملك "على محصول من محصولاته، فوثبوا عليه وعلى زوجته وأولاده وجميع عياله وحشمه وسجنوا جميعهم، وأخذوا ماله وجميع ما احتوت عليه داره من أمتعة، وهم إلى الآن في السجن، وكان له مال كثير".

الغساني الديبلوماسي:

كان الغساني، لا شك في ذلك، ديبلوماسيا مقتدرا، وبدا ذلك في مجموعة من الصور:

الأولى، تبدو من خلال العنوان الذي وضعه الغساني لكتابه، فالعنوان يكاد يكون تبريرا لوجوده كمسلم في دار الحرب. لقد حرم فقهاء الإسلام إقامة المسلم في ديار الكفار، وقد نصت المذاهب الفقهية على بعض الاستثناءات، ففيما كان الحنفية أكثر انفتاحا وأباحوا سفر المسلم إلى دار الحرب من أجل التجارة خاصة في زمن المسغبة والمجاعة، كان المالكية أكثر تشددا و لم يبيحوا سفر المسلم إلى دار الكفر إلا غازيا أو في مهمة افتداء الأسرى المسلمين. وحتى وإن كانت للغساني مهمة أخرى غير افتداء الأسرى كما يذهب إلى ذلك هنري بيريس، فإنه حرص على تفادي الحرج وتبرير أقامته بين ظهراني الكفار. والملاحظ أن كل الكتابات السفارية الأولى أي بدءا من الغساني كلها وضعت عناوين متشابهة، وهو ما يعني أن المغاربة حتى نهاية القرن الثامن عشر كانوا مجبرين على تبرير السفر إلى دار الكفر تبريرا مقبولا شرعا.

الثانية، وهي أن الغساني لم يثر مسألة الحجر الصحي التي أثارها اللاحقون سواء من العثمانيين أو المغاربة، مع أن مؤسسة الحجر الصحي معروفة ومعمول بها في جميع نقط التماس بين شمال وجنوب البحر الأبيض المتوسط منذ القرن الرابع

[22]- Bennassar(Bartolome et Lucile) , *Voyage en Espagne, anthologie des voyageurs français et francophones du XVI au XIX siècle*, Roert Laffont- Paris 1998, p850.

عشر. وقد أثار سائر الرحالة المسلمين هذه الظاهرة وتعامل كل من زاوية خاصة تراوحت بين الرفض والقبول والتبرير[23].

حقيقة كان الأسبان أقل تشددا في فرض الحجر الصحي على السفراء المسلمين[24] قبل نهاية القرن الثامن عشر فالغزال لم يقض من الحجر الصحي إلا ستة أيام، في حين قضى ابن عثمان و واصف أفندي أربعة عشر يوما، إلا أن الغساني لم يشر إلى قضائه حجرا صحيا. وربما أنه وجد طريقة لتفادي الحديث عن ظاهرة لم يستسغها المسلمون، أولا ببدء الوصف من جبل طارق، وثانيا عن طريق تغليف الإقامة من أجل الكرنطينة بحالة الطقس حيث أجبر على قضاء ثمانية أيام في جبل الفتح في انتظار هدوء البحر.

الثالثة، عندما يتعرض الغساني لطريقة الاستقبال من قبل الملك، فهو يقبل كل شيء في البرتوكول الذي يفرضه الأسبان، و لم يمانع كثيرا في حضور الحفلات التي كان يستدعى إليها، و لم يكن السفير متشددا إلا مرة واحدة عندما تعلق الأمر بطريقة السلام. فقد ظل السفير المغربي وفيا لتقاليد الشريعة عندما ذكر المسؤولين الأسبان بطريقة السلام:

"وحين كملت الإثني عشر يوما، قدم علينا القند الموكل بنا يعلمنا بتهيؤ عظيمه للملاقاة ، وبدأ يستفهمنا عن حال سلامنا ليخبره به قبل دخولنا عليه لكونه لم يتقدم له قبل ملاقاة مع أحد من أهل ملتنا أعزها الله تعالى، فأخبرناه بسلامنا من بعضنا على بعض، وبسلامنا على غير أهل ديننا وأنه قول السلام على من اتبع الهدى من غير زيادة عليها" .

---

[23] - عندما نقرأ ابن عثمان المكناسي نلاحظ قبول مبدأ قضاء الحجر الصحي إذ "لهم في ذلك قواعد لا يكادون يخرمونها، وموضع الكرنطينة المذكورة خارج من المدينة ". أما واصف أفندي فلم يستسغ هذا الإجراء خاصة عندما طلبت منه العودة إلى مينورقة قصد قضاء الحجر الصحي بها. فيما قام السيد علي مورالي أفندي بتبريرها ضاربا لذلك مثلا بوباء 1720.

ينظر مقالنا: **سفيران مسلمان في مدريد، في السفر في العالم العربي الإسلامي: التواصل والحداثة**، منشورات كلية الآداب، الرباط 2003، ص.ص 47-66

[24]- ينبغي التنبيه هنا إلى أن المسؤولين في أوروبا كانوا يضطرون إلى تقديم تبريرات لهذا السلوك، هكذا يورد عزمي أفندي الذي زار برلين سنة 1790 حرج المسؤولين البروسيين قائلا على لسان من استقبله على الحدود: " إن لزارته ليست ضرورية بالنسبة إليكم لكن عدم خضوعكم لها سيثير البلبلة في أوساط السكان".

Lewis, *Comment*...p.125

وكسائر السفراء المسلمين سواء عثمانيين أو مغاربة، وقف الغساني عند تفصيل دقيق، وهو حالة وقوف الملك لدى استقباله للبعثة المغربية، والوقوف عند هذا التفصيل الغرض منه نوع المقارنة المبطنة بين الحالة التي يوجد عليها الملك الأسباني وتلك التي يوجد عليها السلطان المغربي عند استقباله لوفود الدول الأجنبية ، والغاية منها أيضا هو إبراز المكانة التي يتمتع بها سلاطين المغرب في أوروبا.

وخلال كل أطوار الوصف لم يترك السفير المغربي أية فرصة لإظهار ذلك:

أ-إعداد طبلة من ذهب مرصعة "أعدها ووضعها أيام مقامنا بعد وصولنا ليجعل عليها البراءة السلطانية إجلالا وتعظيما لمرسلها أعزه الله تعالى"

ب-طريقة تناول الرسالة السلطانية حيث تناولها بيده وقبلها و جعلها على المائدة المعدة لها سلفا بعد أن رفع ما على رأسه.

يحاول الغساني على طول الرحلة أن يبرهن على حفاوة الاستقبال وعلى المكانة التي كانت للسلطان المغربي المولى إسماعيل عند الملك الأسباني، ويبلغ وصف هذه الحظوة درجة المقارنة مع بلدان أوربية حليفة يقول:

"وزعموا أن إذنه لنا في ذلك خصوصية لم يسمح بها من قبل لأحد، وذكروا أن انبشادور الفرنسيس طلب منه ذلك وهو و انبشادور لامانية فلم يأذن لهما فيه".

ونشعر من خلال الرحلة وكأن الهدف منها هو جمع كل ما ينهض دليلا على هذه المكانة،وهنا لا بد من التأكيد على أن الغساني إنما يعكس بذلك طبيعة النظرة التي كانت لمسلم عن أوروبا. وتنسجم هذه الصورة التي قدمها الغساني مع تلك التي قدمها سفير عثماني إلى النمسا في النصف الثاني من القرن السابع عشر، فلا يتوقف قره محمد باشا[25] على التأكيد على ذلك، فهو لم يكتب أي شيء آخر عن النمسا سوى وصف الجانب البرتوكولي للاستقبال، و لا يترك أية فرصة تضيع دون

[25]- قام السفير العثماني قره محمد باشا بزيارته للعاصمة النمساوية فيينا في سنة 1665 ضمن بعثة كبيرة ، ويعتبر تقريره السفاري أول أثر لما يعرف بالسفارتنامه. ويوجد نص التقرير محفوظا عند المؤرخين راشد أفندي وسلحدار محمد أغا.

ينظر: عبدالرحيم بنحادة، بين الرحلة السفارية والتقرير الديبلوماسي، السفارتنامه العثمانية، في **التاريخ والديبلوماسية: قضايا المصطلح والمنهج**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط 2003، ص.ص 125-103

الإشادة بعظمة وجلالة قدر السلطان العثماني. ووصف الغساني والسفير العثماني للاستقبال بهذه الصورة يعكس لحظة مهمة من لحظات تشكل الصورة عن أوروبا بشكل عام في الكتابات الإسلامية.

وبالرغم من حضور صور الجلالة هذه إلا أن الغساني كان لبقا في تصرفاته وسلوكه اتجاه المسؤولين الأسبان ولا تحضر ، على الأقل في وصفه، تلك الحوادث الديبلوماسية[26] التي ميزت بعض الرحلات الإسلامية إلى مدريد بسبب نظرة التعالي والترفع والمبالغة في وصف واستحضار جلالة وعظمة سلاطين الإسلام.

وخلال الاستقبال لا يحضر عند الغساني تبادل للكلام مع الملك الإسباني على النحو الذي نلاحظه عند الغزال[27] أو حتى عند ابن عثمان[28]، وربما دخل ذلك في إطار تكتم السفير أو في إطار كياسته الديبلوماسية التي كانت وراء غضه الطرف على وصف بعض الأمور كما لاحظنا ذلك سابقا.

السفير المجادل الديني

كلما حل السفير الغساني بمدينة من المدن إلا وكان يلتقي برجال الدين بها، وكانت مناسبة له للتحادث معهم في أمور عقدية. ويلح كل الدارسين على التسامح الكبير الذي أبداه الغساني عند مناقشته لرجال الدين باستثناء البستاني الذي لم ترقه طريقة الغساني في الجدل وتقييم التجارب المسيحية.

---

[26]- لا بد من أن نستشهد هنا بتلك الحوادث التي أثارتها سفارة واصف أفندي، الذي أوفده السلطان عبدالحميد الأول إلى إسبانيا، والمرتبطة بطريقة مخاطبة السلطان، فأثناء وقوفه أمام الملك الإسباني وليقدم الرسالة الهمايونية التي حملها يقول:
"هذه رسالة أكبر السلاطين وأعظمهم وأكرمهم صاحب الشوكة والعظمة والقدرة والكرامة سلطاني ولي نعمتي سيدنا السلطان عبدالحميد ابن السلطان أحمد ابن السلطان محمد خان إلى صاحب الحشمة والمنزلة جناب ملك إسبانيا ، وقد اختارني لأوصل هذه الرسالة الهمايونية مع ما يصاحبها من الهدايا بهدف إقامة السلام الذي يرغب فيه الإسبان وتقوية روابط الصداقة والتحالف بين الدولتين"
جودت ، **تاريخ جودت**، ج2، ص.351-352

[27] سجل السفير الغزال أنه أطال في الكلام مع الملك الإسباني ودام ذلك حسب قوله "ما يزيد عن ربع ساعة" إلى درجة أنه "أشفق عليه "لأن نفوس الولاة ليست كنفوس مطلق الناس".
الغزال،**نتيجة**... ص 128

[28]ابن عثمان، **الإكسير**... ص86

ويظهر هذا التسامح في العديد من المناسبات حتى أنه ينوه كثيرا بالأخلاق الحميدة للفرايلية إلى درجة أنه يتمنى لهم أن لو كانوا على الطريق المستقيم فقد أعجب السفير المغربي بالعمل الخيري الذي اضطلع بها الفرايلية في المارستانات:

"ويود لهم الإنسان باعتقادهم ذلك وحسن أخلاقهم ومسكنتهم أن لو كانوا على الطريق المستقيمة، فإنهم أحسن أهل جنسهم أخلاقا وأكثرهم مسكنة والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم".

كما أعجب بسلوك رجل دين كان قيما على الأسكوريال:

"ومع ذلك وكثرتهم فإن فيهم رجالا حسنة أخلاقهم يود لهم الإنسان أن لو كانوا على طريق مستقيمة نسأل الله العافية ، كما شاهدته في الكنيسة الكبيرة المسماة الأسكوريال رجلا كبير السن حسن السمت والأخلاق، يظهر من البشاشة والبشر وحسن الملاقاة ما لا يعبر عنه، وهو رجل كان كبير الكنيسة وإليه مرجع كلامها وأمرها...".

وقد شملت هذه المجادلات تلك القضايا المعروفة في الجدل المسيحي- الإسلامي وتكاد تكون مشابهة لتلك التي طرحها أبو القاسم الحجري الملقب بأفوقاي[29] عندما زار أوروبا في بداية القرن السابع عشر:

المسألة الأولى: هي عن علاقة المسيح بالله، فقد التقى السفير الوزير بأحد الرهبان من البلاد العربية وله خبرة -كما يقول - ببعض أديان المشارقة المسلمين. فعندما قال الرهيب إن المسيح من الله، رد عليه السفير بالحجج والبراهين المنطقية التي تحكم منطق الوحدانية، فالله " جل جلاله لا يتجزأ... وإن قلت على سبيل الاستحالة أوجبت فسادا، والباري جل جلاله لا يستحيل ولا ينتقل من حال إلى حال". والظاهر أن الحجج والبراهين التي يقدمها الغساني استطاعت أن تجد صدى

---

[29]- ولكن بدرجة أقل لأن رحلة أفوقاي كانت مليئة بصور هذا الجدل ولعل الأمر مرتبط بمسألة اللغة، فأبو القاسم الحجري كان عارفا باللغة الإسبانية وهو ما سهل عليه التواصل مع مستقبليه ومحاوريه في حين لم تتح للغساني فرصة الجدل سوى مرة واحدة عندما التقى راهبا عربيا.
أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي(أفوقاي)، **ناصر الدين على القوم الكافرين**، تحقيق محمد رزوق، منشورات كلية الآداب بالدار البيضاء، 1987.

لها عند بعض الرهبان، فهو نفسه يحدثنا عن استحسان بعضهم لها باعتبارها مقبولة عقليا ولا تمجها الأسماع. وهو الأمر الذي دفع كبير الرهبان إلى منع مجيء الفرايلية ومجادلتهم للسفير.

و أما المسألة الثانية ، و لم يجادل فيها شخصا بعينه وإنما حضرت بشكل الجدل عندما كان يصف صيام النصارى أو عندما كان يصف أعيادهم. فخلال وصفه لأعياد الفصح كان يقدم الرواية الإسلامية لدواعي الاحتفال، وهو الأمر الذي انزعج منه البستاني.

نسخ المخطوط

اعتمدنا في إخراج هذا النص على النسخ التالية:

الأولى — نسخة الخزانة الوطنية بمدريد(ن.م) المسجلة تحت رقم 5304 ، وهي النسخة التي اعتمدها كأساس البستاني في نشرته. وتقع في ثمان ومائة صفحة، مبتورة البداية ولكن من غير إشارة لذلك، فهي تبتدئ بعنوان "الخبر عن مرسى جبل طارق". وتخلو من عنوان المؤلف وصاحبه. ونعتقد أن هذا يعتبر واحدا من الأسباب التي جعلت بعض المؤرخين ينسبونها خطأ للغزال. وجعلت القيمين على الخزانة الوطنية يعطون عنوانا مبهما وبه خطأ في تاريخ السفارة، فقد صنف الكتاب بعنوان "رحلة سفير إلى إسبانيا بعثه مولاي إسماعيل إلى كارلوس الثاني 1680–1682". ولا تتضمن نسخة مدريد أية إشارة لتاريخ النسخ ولا إلى الناسخ. وقد ذيلت فقط ببعض الطرائف والنوادر التي كتبت بخط مغاير، لعله من وضع بعض المتأخرين.

الثانية — نسخة الخزانة البلدية بـــ Rouen (ن.ف) تحت رقم 162 من 82 ورقة من القطع الكبير مبتورة البداية تبتدئ هي الأخرى أيضا بعنوان "الخبر عن مرسى جبل طارق". وهو الأمر الذي يدفعنا إلى تبني ما ذهب إليه بيريس من أن نسخة مدريد ونسخة روان تنهلان من مصدر مغربي واحد. ونسخة روان هي الأخرى لا تحتوي على أية بيانات تتعلق بتاريخ النسخ والناسخ.

الثالثة- وهي نسخة الخزانة الحسنية بالرباط (ن.ح) المسجلة تحت رقم 11329 وتتكون من ثمان وستين ورقة من القطع المتوسط. وقد احتوت هذه النسخة على المقدمة الساقطة في النسختين السابقتي الذكر، كما تتضمن مدخلا يحتوي على ظهائر إسماعيلية لها صلة بموضوع الرحلة وتعريفا بصاحب الرحلة محمد بن عبدالوهاب الغساني بالاعتماد على نشر المثاني لمحمد بن الطيب القادري ومحمد بن جعفر الكتاني في سلوة الأنفاس. وبالإضافة إلى هذا المدخل المهم تحتوي النسخة على حواشي وتعاليق مهمة تنم عن ثقافة واسعة للناسخ، وقد عملنا على إدراج هذه الحواشي كهوامش للنص.

ونسخة الخزانة الحسنية هذه تعتبر مهمة جدا ليس فقط من الزاوية التقنية المحضة، ولكن لأنها استنسخت من قبل أحد الأعلام البارزة في مدينة سلا، ويتعلق الأمر بالفقيه محمد بن علي الدكالي.وتؤرخ هذه النسخة والهوامش الغنية التي وضعها الناسخ لمرحلة من مراحل النظرة الإسلامية لأوروبا، وهي جديرة بالقراءة والفحص، ولذلك أثبتناها كلها في هوامش المتن.ومعظم هذه الهوامش عبارة عن مقارنة الذات بالآخر. وقد وقع الفراغ من النسخ كما هو مشار إليه في الورقة الأخيرة بقوله : "إلى هنا انتهت أوراق هذه الرحلة، وفقدت الأوراق الأخرى التي بعدها يسر الله العثور عليها بمنه، قاله ناسخها هنا محمد بن علي لطف الله به وعامله بخفي لطفه في 20 محرم 1340. وهذا التاريخ يوافق سنة 1922 أي سنة واحدة بعد معركة أنوال التي هزم فيها الأسبان عبدالكريم الخطابي، وأعتقد أن الحاجة إلى معرفة هذا الآخر الذي تفوق عسكريا على عبدالكريم هي التي دفعت هذا العلم السلاوي إلى الإقبال على استنساخ هذا الكتاب.

الرابعة- نسخة الخزانة العامة بتطوان (ن.ت) المسجلة تحت رقم 928 وتتكون من ثمان ومائة صفحة من القطع الكبير. وهي كنسختي مدريد وروان مبتورة البداية حيث تبتدئ هي الأخرى بعنوان الخبر عن جبل طارق. وقد بترت منها بعض الفقرات، كما أنها لا تحتوي في النهاية لا على اسم الناسخ ولا على تاريخ النسخ.

وللكتاب نسخ أخرى لم نتمكن من الإطلاع عليها منها ما أشار إليه هنري بيريس في كتابه السالف الذكر، كتلك التي اعتمدها Stanley والتي لم يشر إلى مكان وجودها حيث قال أنه توجد بأحدى المكتبات في البرتغال، أو تلك التي اعتمدها ألفريد البستاني وسماها "مخطوطة بني بوزين من قبائل الأخماس العليا في شمال المغرب". كما أنه لم يكن بإمكاننا الإطلاع على نسخة معروضة للبيع على صفحة من صفحات الأنترنيت.

وقبل أن أقدم هذا النص للقراء في حلة أردها أكثر علمية وتتجاوز بعض الأخطاء التي ارتكبت في النشرة السابقة، أود أن أتقدم بخالص الشكر والامتنان إلى السيد رئيس جامعة محمد الخامس أكدال السيد حفيظ بوطالب جوطي على عنايته ودعمه وإلى الأستاذين سعيد بن سعيد العلوي ومحمد منيار على تشجيعهما، إلى **معهد الأبحاث في لغات وثقافات آسيا وإفريقيا** في شخص الزميل والصديق أ.كوروكي هيدمتسو الذي مكنني من فرصة استكمال الاشتغال[30] حول هذا النص وإلى زملائي بشعبة التاريخ بكلية الآداب بالرباط، وأخص بالذكر عبدالرحمن المودن وعبدالحفيظ الطبايلي وعبدالمجيد القدوري وعلي المحمدي . كما لا يفوتني أن أتوجه بخالص الشكر إلى أ. أحمد شوقي بنبين(محافظ الخزانة الحسنية) والزملاء ليلى مزيان (كلية الآداب بفاس)و فريدريك هتزل(المدرسة العليا للعلوم الاجتماعية بباريس) وفاروق بليجي(مدرسة اللغات الشرقية بباريس) ومصطفى الغاشي (كلية الآداب بتطوان) و وفاء المصمودي وفاطمة الزهراء قديحي والصديق محمد المعتصم بالله .

طوكيو، نونبر 2004

[30]- كنت شرعت في الاشتغال عن هذا النص منذ سنة 1997 عندما تفضلت وكالة التعاون الدولي التابعة لوزارة الخارجية الإسبانية ومكنتني مشكورة من منحة لإقامة علمية في مدريد.

نسخة الخزانة الوطنية بمدريد

وجازيناه على فعله وعلى فعل خدامه الذين تلقونا بكرم ضيافتهم ومزيد برهم وأجبته وجعلت

في هذا الكلام فقال الحمد لله على سلامتكم وسنعين الكلام فيما أتيتم إليه وقضاء أغراضكم من

عندي وخرج معنا من كان معه للتشييع فأصبحنا بمكان نزولنا وموضع مقامنا والطاغية

منزله بجانب غربي البلد له نحو ثلاثين عاما وهو أبيض اللون قصير القامة وجمه إلى الطول

واسع الجبهة واسمه كرلوس ثالث ويعرفون به ثاني اسم كان لمن تقدم من سلفه وأصله

من أجناس بلاد الطليان وليس هو من نسل الكوائن الأصبانيين الذين كانوا حاربوا المسلمين

وتغلبوا على البلاد الأندلسية وفتحتها وغيرها من البلاد من الله علينا جميعهم وأ

واخلى منهم الأرض وعمر بها بر الفرنج وتوحيدهم وذلك أن الطاغية والكوائن

أشار وأن واسمه فرنان سادس وهو المتغلب على غرناطة ومن بقي بأحوازها من المسلمين

كان قد ثبتا بقلعة اشبيلية أعاده الله دار الإسلام ولما أن مات خلف ولدا يسمى

فرنان باسم والده ويلقب بالكوائن ملك بعد والده سنين قليلة ومات ولم يخلف ولدا

ذكرا فملكت بعده زوجته زابيل وهي ابنة ملك دار الغور وتركت من غور معها خادمه

وهو أعرف من ملوك العدوة ودار ملكها وأقامت بملكها سنين وكانت تبرج وتدخل

وتركب العربة وتكلم وتتصرف تصرف الرجال في عمرها وزمانها حتى بعض روساء

البحر من جنس الأصبانيين على بلادهم العدد الذين بيدهم البيع ودار الملك فبويع ومعه

بمثابة الدواب ولا عز لهم وإنما كانت عندهم العيدان يكبون فيها حجر أم حجر

الزناد ويقاتلون بها فجيرانهم على تلك الحالة وهم على ما هم عليه من الغز

والبلاد

بحث تاريخية في تراجم ملوك الاصبان

بأنهم انقرضوا الكائن ومن قبلهم

العدو أبيهم جدهم وعما فعلوا

بهذه الربوع الأندلسية والكر

والخيانة والاستبداد والظلم

للعباد والاعتداء على حرمتهم

وقومهم والحالة أنهم أغمارهم

حيوانية في صورة أعضاء إنسان

فتسلوا الظلم بيدهم فضاعوا

واتضح من فعلهم الظلم

الخبير بانقطاع نسلهم من

الوجود وأبقى خبر ظلمهم

المشهور لما يقع الناس منه

من الغيور والحسود ثم قال ذلك

فغيروا معنا محمد على الوصلة

السلام عاملة الله بخفي لطفه

بمنه

كامور خارجة أمريكا

الهندية

مدينة أخرى تسمى مانساردين وأظنها متصلة ببلادات الفلنبلية وهي مدينة
متوسطة إلا أنها أكبر من الفلنبلية وأكثر منها حضارة بحيرات مبنى عليها القنا
أنا من أعيان من أهل مدينة تسمى الماكن على تسعة أميال من مانساردين ومن أصحاب
النصراني الحلبي الترجمان الوارد من قبل طاغية إسبانيا سفيرا ورد وأمن
من بينهم المذكورة ونزلوا بدار رجل كليريك من أبناء عم لهم والكليريك عندهم
النصارى هم الذين قرأوا علومهم وتبحروا في أديانهم إلا أن الكليريك أيضا هو بمثابة
العرايلي في عرف الشرع ولباسهم مخالف للباس العرايلية ولباس غيرهم من
ملة النصارى وهؤلاء الكليريكوس هم الذين يعملون الميسات ومعناها
الصلوات ويخدمون في المساجد آلة الموسيقى ويقرأون كتب صلواتهم بألحان
وأصوات متفقات ومنهم من يختص بتحسين الصوت وتخفيفه وتحسين نغماته
فلقد رأيت بها دون عند الطاغية شابين خصيين من الطلبة ومما عندي بقصد
القراءة في الصلوات مع الموسيقى بالألحان التي يستحسنونها وهؤلاء القوم
الذين وردوا من الماكن هم من أعيان البلد ولهم منازل وجاهة وورودهم
كان بقصد الملاقاة فسلموا علينا ورحبوا وانقلبوا بنا إلى دار ابن عمهم
المذكور وقد اعتنوا إن الذين نزل والنصارى الذين في الرفقة معنا وانصرفوا
من ذلك جملة وأعطوا من المال وحين وصلنا المدينة وجدناها مدينة مليحة
وبخارجها قصبة صغيرة حصينة لها سور شامخ وأبراج ويدور بهذا السور

حاشية: سمى الغزال في رحلته مدينتين بينهما
بينها مانساردين ومورا أحرا أصلها
إشبيلية والألمانية كنهليكا وبعضها
كذا نقل العمراني أنها في غير عامرتين
وقد دل كلام الغزال على أن الأولى بها
مركز حمو للنتاج عظيمة الهيكل مما
يدل على أنها عمرت وعزيت أمدينة
عامرة للسكنى ووصف المرايشي
بالعمران وأنها فلالل م
قال الغزال في رحلته لأصبانيا
في وصف منساردين مدينة بروية
مشهورة الذكر والصغرى راجعها
في أصل الكلام على أهلها
وما قابلوهم به من البر
والسعة م

كليريك بالقاف المفتوحة أخر
الكلمة في نطقه

نسخة الخزانة الحسنية بالرباط

وعدم الغيرة والترويج والتمتع في الملابس وغير ذلك
من احوال الاذيال والابتهاج بهن ومنه الجنس المضو
عليهن بقوة بعيد وهن على مذاهب البرابلية في التفتيش
والابتداع من البرابلية من تجده جعل في يده تلك الخطة
سبيلا وحيلا على الاذيال وجمع الاموال فكانت له
عند المغرة يغيض من ورثها كبيرا في زا عمراتها
لمعاشه ومنهم من جعل في يده تلك الخطة سببا
للاستراحة من تعب الاشغال ومشقته وذلك بعد ارادة
ومنهم من جعلها في يده حرفة يتعيش بها لتزيد
نفسه من كلام الناس ولا يقدر احد ان يتكلم
في احد من البرابلية بعيب او يلمزه بغيب ولو فعل
وحقه وهم الطائفة المضلون المنكبون عن
طريق الحق بلغة ضلوا واضلوا اخلى الله منهم
الارض وعمر قلبهم والغرة لكن وقد جر بنا الكلام الى
ذكر هذا — ولنرجع الى ذكر مدينة لنبار التي زادت
بها البرابلية في الزهبات وهي كما ذكرنا مدينة
متوسطة اشهر اثرها حضارة اهلها اهل بشاشة
ومن بشاشتهم وعوايد الكل منهم ان اجتمعوا كلهم
فيلتون رجالا واقوا بالة الطرب وعادتهم ان يرقص منهم
رجل وامراة يجيء بقوس الرجل يربط الرقص يتخير من يختاره من
النساء صغيرة او كبيرة ويزيل لها شيئا الا على راسه

نسخة الخزانة البلدية بروان Rouen-فرنسا

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على مولانا

الخبر عن مرسى جبل طارق

وهو الجبل المسمى بجبل الفتح اذ كان منه مبدأ فتح العدوة الاندلـ
لما ان عبر طارق رحمه الله اليها وعبور طارق رحمه الله اليها كا
بعد ان وجه موسى بن نصير رحمه الله الى العدوة سرايا بامر امير المؤ
بن عبد الملك وذلك حيث كان موسى عاملا للوليد على افريقية وطارق عا
موسى على طنجة وذلك ان وقعت بين يليان والى ما يلي البحر من العدوة وبين
موسى مواطأة ومراسلة يرغبه فيها الى العبور والدخول الى الجزيرة الخضرا
فكتب موسى للوليد يخبره بذلك فقال له اختبرها بالسرايا فاختبرها بطريـ
طريف المذكور بعد ما عبر الى بر طارق وغزا واصاب مالا وسبيا ورجع الى
البلاد البربرية لما كان فيها من القتال مع كفار البربر فلما دخلوا في
الاسلام بعد غزو شديد وسبي وجمع خرج الى الغزو الى كفار الاندلس
وحين رجعت تلك السرية سالمة غانمة حمل موسى على اجازة سرية اخرى
في العام الذي بعده قال ولما دعا يليان موسى الى الاندلس ذكروا ان موسى
نهض الى امير المؤمنين الوليد بن عبد الملك فاعلمه بذلك فمنعه وقال له
لا تغرر بالمسلمين فقال له يا امير المؤمنين انما ارسل عبدي طارقا مع البربر
فان اخذوا قلنا وان اصيبوا فليس علينا منهم شيء فامره بالنهوض
الى ذلك فعزم ذلك فخرج يليان بابنته من قصر لذريق الى سبتة وموسى
بافريقية فخرج عليه ووصف له حال الاندلس وطيبها وقرب مرامها
وهون عليه رجالها وقرب حالها فقال له موسى اصرفها في نصيحة
الا انه ليس في نفسي شيء بسبب الرئيس فاخذ يليان معه الرجال
الداخلين مع طريف واغار بهم على البلد وانصرفوا غانمين سالمين

نسخة الخزانة العامة بتطوان

رحلة الوزير في افتكاك الأسير

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي جعل نزهة العقول والأفكار في التنزه في روضات التواريخ والأخبار، ووسع صدور الاختيار لجولان الأقاليم والأقطار ، وزين قلائد البلدان بجواهر الأمصار. ونحمده سبحانه على أن أطلعنا من حكم الأسفار على ما يملأ الدفاتر والأسفار، ونشكره تعالى على أن اختص الجولان بأسرار البدائع وبدائع الأسرار، ونصلي ونسلم على سيدنا ونبينا ومولانا محمد، أشرف من أظلت السماء وأقلت البسيطة والحائز مديد الشرف و كامله ووافره وبسيطه وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار. أما بعد، فإنه لما كان سيدنا الإمام السلطان المظفر الهمام ذو الشيم التي آنست مآثر الأوائل والأواخر ، والمزايا التي فاضت على الأنام ولا فيضان البحور الزواخر، والهمة التي لم تزل تراقب المعالي، وتصرف الكلية لحماية البلاد والعباد والدين والدنيا بالبيض والمحامي والشمر العوالي، وتحمي بيضة الإسلام وتحمي سنة جده عليه الصلاة والسلام، الماجد الأصيل الغطريف، ظل العدل الوريف، أبو النصر مولانا اسماعيل ابن مولانا الشريف أدام الله نصره وأعلى قصره وأغلى مصره، معروفا بإحياء السنن وجاريا في إقامتها على أوضح السنن. وكانت همته مصروفة

لفكاك الأسارى واستخراجهم بيد من كانوا من في يده من النصارى[31] ليغتنم ثواب فكاك الأسير ويفوز بما ورد في ذلك عن الرسول البشير، وكنت ممن امتن الله عليه بخدمة بابه وتفضل عليه بالانحياز لجنابه، وجهني أدام الله علاه لبلاد الروم لأتيه بمن هناك من أسرى الإسلام ، وأبحث في الخزائن الأندلسية عما أبقاه المسلمون هنالك من كتب الأحكام ليكون معه دام مجده كفل من الثواب، وما هي بأول بركة نالتنا من ذلك الجناب. فتوجهت مستعينا بالله تعالى إلى هاتيك الأقطار بإذنه الشريف وأمره مستظلا بظل جلالته وفخره، ورأيت هنالك من العجيب العجاب ما يسحر العقول ويبهر الألباب، فجمعت بعض ذلك في هذه الرقاع لئلا تعدو عليه يد الضياع، ورسمته مخافة النسيان، ورجاء أن يستفيد به من يطلع عليه من الأخوان، مستمدا من الله العون والمنة، إنه ذو التفضل والكرم والإحسان والجود والمنة[32].

الخبر عن موسى جبل طارق

وهو الجبل المسمى بجبل الفتح إذ كان منه مبدأ فتح العدوة الأندلسية، فما إن عبر طارق رحمه الله إليها، وعبور طارق رحمه الله إليها كان بعد أن وجه موسى بن نصير رحمه الله إلى العدوة سرايا بأمر أمير الوليد بن عبد الملك، وذلك حيث كان موسى عاملا للوليد على إفريقية وطارق عامل موسى على طنجة. وكانت وقعت بين يليان والي ما يلي البحر من العدوة وبين موسى مداخلة ومراسلة يدعوه فيها إلى العبور والدخول إلى الجزيرة الخضراء، فكتب موسى للوليد يخبره بذلك، فقال له :

[31] ورد في حاشية في ن.ح ما يلي: "الحمد لله قال مقيده هنا سامحه الله قد وقفت على السبب في شد الرحلة من مؤلف هذا الكتاب لبلاد الأندلس الاصبانية عن إذن السلطان مولاي اسماعيل رحمهما الله مذكورا في تاريخ أبي عبد الله الضعيف الذي استملاه من كتاب التقاط الدرر للشريف القادري صاحب "نشر المثاني" ونصه : " وفي ذي الحجة عام واحد ومائة وألف جاء نصارى إلى السلطان وطلبوا منه فداء مائة من الأسرى التي أخذت من العرائش ، فشرط عليهم خمسمائة أسير وخمسة آلاف كتاب ومال كثير، وبعث بعض كتابه معهم ليختاروا الكتب والأسارى".

[32] هذه الفقرة من بداية النص ساقطة من ن.م ون.ف

اختبرها بالسرايا فاختبرها ببعث طريف[33] المذكور بعد هذا على يد طارق. وغزا وأصاب مالا وسبيا، ورجع إلى البلاد البربرية [لما كان فيها من القتال مع كفار البربر[34]]. فلما دخلوا في الإسلام بعد غزو شنيع وسبي فيهم ذريع، تدرج الغزو إلى كفار الأندلس. وحين رجعت هذه السرية سالمة غانمة عمل موسى على إجازة سرية أخرى في العام الذي بعده.

قال: ولما دعا يليان موسى إلى الأندلس ذكروا أن موسى نهض إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك فأعلمه بذلك، فمنعه وقال له لا تغرر بالمسلمين، فقال له: يا أمير المؤمنين إنما أرسل عبدي طارق مع البربر، فإن أصابوا فلنا وإن أصيبوا فليس علينا منهم شيء، فأمره بالنهوض إلى ذلك. فبعد ذلك قدم يليان بابنته من قصر لدريق إلى سبتة وموسى بإفريقية، فقدم عليه ووصف له حال الأندلس وطيبها وقرب مرماها وهون عليه رجالها وقرب حالها، فقال له موسى: أصدقك في نصيحتك إلا أنه ليس في نفسي شيء بسبب الدين. فأخذ يليان معه الرجال[الداخلين[35]] مع طريف وأغار بهم على البلد وانصرفوا غانمين سالمين، فاطمأن موسى ونظر في إرسال طارق ومعه البربر. وعبر طارق إليها من ناحية سبتة ونزل بالقرب من هذا الجبل في جزيرة صغيرة تقابل المدينة التي في سفحه، وهي جزيرة صغيرة بقدر ميل واحد طولا وعرضا، يحدها واد كبير ينحدر من جبال الرندة وأحوازها، وهي جبال كثيرة شاهقة تقابل البلاد البربرية جبال الفحص والهبط وغيرها. وباسم هذه الجزيرة الصغيرة تسمى هذه العدوة جزيرة وإلا فبلاد العدوة ليست بجزيرة لاتصال برها وامتداده إلى البلاد التركية وغيرها من بلاد الكفرة مثل فلانض وبلاد الإيطالية ولامانية. وليس بهذه الجزيرة المذكورة اليوم عمارة ولا بناء.

ومرسى جبل طارق هي مرسى كبيرة واسعة[الجوف[36]]، وعلى بابها حصن منيع مبني أحسن بناء وبه من العدة والمدافع ما شحنه، إذ هو موضع مبيت

33- في ن. ح : طارف
34- سقطت من ن. ح
35- سقطت من ن. ح
36- في ن. م: الجون

العسس وأهل الحرس، وهو مطل على المرسى جميعها، وقد امتد سور مع سفح الجبل مار من الحصن إلى المدينة بقدر ميل على شفير البحر إلى أن ينتهي إلى المدينة. والمدينة تصل إليها المراكب، وهي مدينة متوسطة إلى الصغر أقرب وأكثر عمارها الشلطاظ[37] ومن في معناهم، وليس بها كبير تجار ولا عمار مثل الخواص التي تقصد للسكنى، حيث كانت طرفا وفي مقابلة بر الإسلام. ومنها تمتد سبتة بأقوات سكانها وعمارها لقرب المسافة ، إذ لا أقرب منها في جميع بلاد العدوة، وقدر ما بينها في البحر خمسة عشر ميلا. و أكثر حرس هذه العدوة وانتباههم هو إلى ما قابل[38] جبل الفتح هذا من البلاد البربرية، إذ ليس لها تشوف واحتراز إلا منها لما هم يتدارسونه في تواريخهم، وتقرر لديهم أنه قط لم يعبر أحد هذه العدوة في البحر إلا من الناحية البربرية، و لم تفتح العدوة أولا ولا عبر إليها بعد ذلك في أزمنة من عبر إليها من ملوك مغربنا رحمهم الله إلا من مقابلة جبل الفتح ومقابلة طريف.

وسبب تسمية هذه المدينة بطريف هو أنه لما كان موسى بن نصير رحمه الله عاملا على إفريقية للوليد بن عبد الملك وطارق كان عاملا لموسى على طنجة، وحين دخل يليان العلج من الجزيرة الخضراء كتب موسى بذلك إلى الوليد، فكتب إليه الوليد أن اختبرها بالسرايا ولا تغرر بالمسلمين في بلد شديد الأهوال، فكتب إليه موسى يقول له إنه ليس بهذه البلاد خليج، فكتب إليه الوليد أن "اختبرها بالسرايا إن كان الأمر كما ذكرت". فجهز موسى رجلا من البربر من مواليه يسمى طريفا[39] ويكنى أبا زرعة، في مائة فارس وأربع مائة راجل، فجاز في أربعة مراكب حتى نزل في ساحل البحر بالأندلس في الموضع المعروف اليوم بجزيرة طريف، سميت بذلك لنزوله هنالك، فأغار منها على ما يليها إلى جهة الخضراء، وأصاب سبيا و مالا كثيرا ورجع سالما.

---

[37]- الشلطاظ، كلمة إسبانيةsaldados معناها الجنود

[38]- في ن.ح: إلى الساحل

[39]- في ن.ح : طارقا

والذي يقابل جبل الفتح من بلادنا هو جبل بليونش ويعرف بجبل موسى، وسمي هذا الجبل بجبل بليونش باسم مدينة كانت به قديما، وقد بقي بها أثر الجدران والحيطان، وأشجارها باقية إلى الآن تدل على مكانتها، وهي في غرب سبتة ومقدار ما بينهما نحو ميلين، وفي غرب بليونش عيون مياه عذبة تعرف قديما بعين الحياة، زعموا أنها عين الحياة التي شرب منها الخضر عليه السلام. وبإزاء تلك العيون صخرة يزعم بعض أهل التواريخ أن عند تلك الصخرة نسي فتى موسى الحوت.

والذي يقابل طريف هو القصر الصغير الذي في حدود بلاد أنجرة، وهو أقرب من غيره في جميع البوغاز لكون مقدار ما بينهما ثمانية أميال. ومع هذا فالعمران من هذه النواحي (كذا) [العدوة[40]] ليس هو على قدر توقع الكفرة وتخوفهم، إذ ما بين مدينة جبل الفتح ومدينة طريف هو خلاء لا عمارة به و فيما بينهما بلاد فسيحة متسعة الأرجاء.

وكان وصولنا إلى هذه المرسى عشية يوم الأربعاء [أواسط محرم فاتح اثنين بعد مائة وألف[41]] وهو يوم ركوبنا البحر من قصبة أفراك المطلة على سبتة. فوجدنا[بالمرسى][42] مركبا مهيئا مشحونا بالإقامة والشلطاظ وما يستحقه من الآلات، كان وجه به الدوك[43] القاطن[44] بمدينة سان لوكار[45] بأمر عظيمه، وهو الذي ينتهي إليه أمر تلك الكوشطة[46] كلها، وهو من أعيان أكابرهم، إذ لا يتولى الكوشطة الموالية لبرنا إلا من له أصالة في الكبيرة ومن له لقب الدوك أو القند[47] لا غير.

40- ساقطة في ن. ح

41- ساقطة في ن .م ومن ن.ف

42ساقطة من ن.ح و ن.م

43- في ن ح : بذلك

44- في ن.ح : القاضي

45- الإسم الإسباني San lucar de Barrameda وكانت أيام العرب المسلمين تسمى شلوقة فحرفه الإسبان أولا إلى Solucar ثم جعلوا منها اسم القديس San Lucar، وهو مرسى ذو أهمية اقتصادية ومنه أبحر كريستوف كولومب إلى أمريكا.

46- كلمة إسبانية Costa أي الساحل

47- تكتب في النص تارة بالقاف (القند) و تارة بالكاف (الكند) ومعناها Le Conte

وكان هذا المركب الكبير لما أن وجه به الدوك المذكور على يد حاكم قالص أرسى به على سبتة -أعادها الله لدار الإسلام-[48]. فلما أن تحرك الريح الشرقي الذي لا يمكنهم معه بقاؤهم في قرب سبتة ولا في حوزها، رجعوا به إلى مرسى جبل الفتح و أقاموا هناك ينتظرون [الريح[49]] الذي يمكنهم فيه الرجوع إلى مرسى سبتة. والمقام هنالك إلى أن يحملونا، وحين حللنا نحن بفحص سبتة وخرج أهل سبتة لملاقاتنا وخرج معهم ولد القبطان، وأعلمونا بانتظارهم لورود المركب الذي في جبل الفتح، قلنا لهم إما أن توجهوا إليها[50] وإما أن نعبر نحن البوغاز في مراكب صغار لسرعتها في العبور وخفتها وشدة جريها، فأعدوا لنا ثلاثة مراكب هيأوها وشحنوها بالشلظاظ والمدافع التي تحميها. وركبنا [فيها] وسرنا في حفظ الله وكلاءته نصف يوم إلى أن حللنا بالمرسى المذكورة. وانتقلنا من المراكب الصغار إلى المركب المعد لنا هنالك، وتقدمنا إلى قرب مدينة جبل الفتح وبتنا بالمركب. ولما انتصف الليل هاج البحر علينا واشتد هيجانه وتلاطمت أمواجه، والمركب يتقلب يمينا [وشمالا [51]] ويتمرغ كما تتمرغ الدابة حتى دخلنا الفزع و[الرجف[52]] إلى أن طلع الفجر. [وأهوال البحر لا تحصى ولا تحصر ولا توصف، والشيء يسمع فيحضر حتى يبصر، فرحم الله القائل:

هو البحر حدث عنه غير مكذب فما تنقضي آياته وعجائبه[53]]

---

[48]أورد ناسخ ن،ح حاشية معتبرة عن مدينة سبتة يقول فيها: " من أخبار مدينة سبتة أعادها الله دار الإسلام ما ذكره المقري في كتابه "أزهار الرياض" في ترجمة روضة الورد، وقد أطال الكلام في وصف هذه المدينة إلى أن قال أخبرني الفقيه الطيب العدل الفرضي سيدي أبو القاسم بن محمد الوزير الغساني رحمه الله تعالى ، أنه لما دخل مدينة سبتة حين وجهه أمير المؤمنين مولانا المنصور رحمه الله إليها في شأن فداء الكفار المأخوذين بالغزوة الشهيرة ذهب إلى المدرسة التي كان بناها أحد ملوك بني مرين رحمه الله وهي من أجل المدارس وأعظمها فرأى في محرابها ناقوسا وصليبا ، قال : فساءني ذلك ورفعت بصري، فإذا بكتابة بخط رائق في تلك النقوش فوق ذلك الناقوس فيها قوله تعالى:" شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، إن الدين عند الله الإسلام"، وكان ذلك الكتب قديما فيها من جملة ما كتب المسلمون بها حين بنائها على ما جرت به عادة الملوك من كتب الآيات القرآنية في النقوش بالزليج والمرمر . قال لي رحمه الله : فعجبت من ذلك الاتفاق وسلاني ذلك بعض التسلي وإلى الله ترجع الأمور. وكان أخذ سبتة أعادها الله سنة تسع عشر وثمانمائة. انتهى.

[49]- في ن. م و ن.ف: الهواء

[50]- في ن. م: إليه

[51]- سقطت في ن.م ومن ن.ف

[52]- في ن.ح : الرعب

[53]- سقطت من ن.م ومن ن.ف

فاستأذننا رئيس السفينة أن يرجع بنا إلى باب المرسى من حيث دخلنا، إذ هو موضع منتكب على الرياح والبحر فيه كأنه بركة ماء، [وحيث سكن هائجه وركد مائجه[54]] أرسينا تحت الحصن وفي ظل جبل الفتح، وأقمنا هنالك ثمانية أيام ننتظر هبوب الهواء الشرقي الذي يمكننا فيه السفر إلى قالص حيث كان قصدنا، وفيه استعد النصارى للملاقاة وجمعوا جموعهم.

وفي مدة إقامتنا[55] بالمرسى المذكورة كان قائد البلد يختلف إلينا ويتعاهدنا كل يوم بالفواكه الرطبة واليابسة ويعتذر عن تقصيره، إلى أن استنشق بعض أصحابنا هبوب رياح الشرقي في نصف ليلة الأربعاء الثامنة من حلولنا المرسى المذكور، وكان صاحبنا المذكور[56] عارفا بأحوال البحر لتعدد سفره به، ورئيس[سفر[57]] المركب إذ ذاك مستغرق في نومه، فنبهناه وأعلمناه بهبوب الهواء فارتحلنا من ساعتنا وخرجنا من موضعنا ذلك.

مدينة قالص

فحين طلع الفجر قابلنا مدينة طريف وهي مدينة متوسطة على شفير البحر في بسيط من الأرض، وقد سميت باسم نازلها طريف كما تقدم، ويقابلها من بلادنا القصر الصغير المتقدم الذكر. و لم نزل نصف ذلك اليوم سائرين إلى وقت حلول صلاة الظهر فرأينا إذ ذاك مدينة قالص[58]. وهي مدينة كبيرة في جزيرة على البحر ولها طرف ممتد إلى البر، والبحر يدور بها من نحو سبعة أثمانها، ولها مرسى كبيرة لا تقدر لسعتها، وبها من المراكب الكبار والصغار ما لا يحصى كثرة. وحيث كانت مدينة كبيرة يقصدها المسافرون والتجار من كل أوب وينثالون عليها من كل فج[59]،

---

[54]- سقطت من ن.م ومن ن.ف
[55]- في ن.ح مقامنا
[56]- في ن.ح : والصاحب المشار إليه
[57]- سقطت من ن.ح
[58]- هي التسمية المغربية لمدينة قادس الواقعة قبالة طنجة تم استردادها سنة 1262
[59]- في ن.م : ريح

وترد عليها النصارى من كل دشرة أو مدينة تجاورها أو تقرب إليها بقصد البيع والشراء والنفقة والخدمة، فيجتمع بها من المراكب الصغار التي تجلب إليها المدد والأقوات من الطعام والفواكه وغير ذلك العدد الذي لا يحصى كثرة[60] . [فما تطلع الشمس إلا والزوارق تهفو بقوادم غربان وتعدوا بسوالف غزلان تخالها في سمائه أهلة مكسوفة وتحسب فوق مائه جريدة دهم مصفوفة، فسبحان الملك الخلاق والمقدر الأرزاق[61]].

ولما رأى حاكم البلد ذلك اليوم هبوب الريح الذي يقدمنا عليهم استعدوا لملاقاتنا استعدادا كثيرا وتأهبوا تأهبا كبيرا، وجمعوا الشلطاظ والخويلة التي عندهم، وعمروا مدافعهم البحرية والبرية وخرجوا إلى البحر ينتظرون ورودنا، فحيث قربنا من المدينة بمقدار ميلين ورد علينا قبطان في مركب للحاكم، وقد زينه بأنواع الفرش والحرير والديباج وقد علق على المركب صنجقا من صناجق الطاغية، وصعد إلى السفينة وأدى السلام كبيره، واعتذر على لسانه بتأهبه للملاقاة. فانحدرنا من المركب الكبير إلى الزورق وقصدنا المدينة، فوجدنا حاكم المدينة واقفا على طرف الموج وقد برز معه جميع من بالمدينة رجالا ونساءا وصبيانا، و لم يدع بالمدينة صاحب لهو[62] أو طرب إلا وقد أحضره، و لم يترك بأسوار المدينة ولا بالمراكب الكبار مدفعا إلا وقد أخرجه. ولقينا الحاكم المذكور أحسن ملاقاة وفرح بنا أتم فرح. ولقينا من بمدينة قالص من الأسارى رجالا ونساءا وصبيانا وهم يفرحون ويعلنون بالشهادة ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ويدعون بالنصر لسيدنا المنصور بالله تعالى. فذكرناهم ووعدناهم بالخير من أن سيدنا أيده الله غير تاركهم ما دام فضل الله عليه، فكان ذلك اليوم عيد لاستبشارهم بالفرح من الله تعالى على يد المولى المنصور بالله، سيما وقد تقرر لديهم أن سيدنا أيده الله لم يكن له قصد ولا نية في جمعه لسائر النصارى

---

[60] - وهي نفس الملاحظة التي أبداها الرحالة المغاربة في القرن 18، فابن عثمان المكناسي يورد قائلا:"فقصدنا المدينة وإذا بهذه المرسى في غاية الكبر وفيها من المراكب في الوقت ما ينيف على الخمس مائة مركب وقد ذكر لي أن المراكب قليلة بها اليوم من أجل الحرب التي بين الإنجليز والصبنيول"، **الإكسير...** ص21.

[61] - سقطت من ن. م ومن ن.ف

[62] - في ن. م : لحو

الذين في ربقة الأسر إلا بقصد فكاك المسلمين من يد العدو الكافر دمره الله، فاستبشروا بالبال المصروف إليهم من الملك أبقاه الله تعالى وأدام وجوده.

فدخل بنا الحاكم المذكور المدينة وقصد بنا دارا كبيرة أعدها لترولنا، وقد أحضر أنواع الإقامة على اختلافها و لم يزل يتعاهدنا، هو ومن معه من أعيان البلد ذلك اليوم والليل كله إلى الغد، ثم بدأ يستفهمنا عن غرضنا في السفر وهل لنا إرب في المقام عنده للاستراحة بعض الأيام، فقلنا له لا يمكننا المقام بموضع من المواضع ما لم نصل البلاد التي نحن قاصدون إليها والطاغية الذي توجهنا إليه، فقال ذلك هو مراد سيده وعظيمه، وهو مستبشر بقدومكم ومنتظر وصولكم إليه عاجلا.

فاتفقنا على الرحيل من الغد، وأتانا بكدشين[63] وخرج بنا إلى المدينة فأرانا إياها حومة حومة، فإذا هي مدينة كبيرة عامرة وأسواقها مشحونة بالتجار وأهل الحرف والبيع والشراء، وإذا بالمدينة لا سور لها إلا من جهة المرسى، ومن الجهات الأخرى سورها البحر لقصره ولعدم دخول المراكب إليه لما فيه من الحجر وقصر البحر. ومن الغد أصبح الحاكم المذكور ومن معه في تهيئة رحيلنا، وقد برز أيضا على العادة جميع من بالمدينة من الشلطاظ والخويلة وسائر الناس لتشييعنا بعد أن قدم الحاكم إلى مدينة شنتمرية بعض أصحابه مخبرا بورودنا عليها ليعد محل[64] الترول.

وفي صبيحة اليوم الذي خرجنا من قالص بينما نحن في تهيئة الرحيل إذ دخل علينا قسيس من قسوس نصارى [الترك[65]] ربي في بلاد قسطنطينية العظمى وأخبرنا بالفتح الذي من الله به على جيش المسلمين[66]، وأن السلطان سليمان[67] ، أمده الله بمعونته، استخلص مدينة ابن الأغراض[68] وعمالتها وما حولها، وهو معتن بما هد من حيطانها ومشتغل بإصلاح ما خرب من أسوارها، وقد جعل بها من العملة لإصلاحها

---

[63]- الكدش : وهي الكلمة الإسبانيةcoche ومعناها العربة.

[64]- في ن. ح : موضع

[65]- سقطت كلمة (الترك) من ن.ح

[66]- لعل الأمر يتعلق بالانتصارات التي حققتها جيوش سليمان في جهة بلغراد، حيث استطاع ميزرمورتا حسين باشا استعادة قلعة pirot (في يوليوز 1690) كما وجه حملة أخرى على Nis في شتنبر 1690

[67]- يتعلق الأمر بسليمان الثاني الذي حكم ما بين (1687-1691)

[68]- ابن الأغراض : ولعله يقصد مدينة بلغراد

وخدمة البنيان اثنى عشر ألفا. واستبشرنا إذ ذاك بما خول الله تعالى من نصر للمسلمين، وكان النصارى يرون له بفتحه تلك المدينة واسترجاعها قوة وبدأوا يذكرونه أحسن الذكر.

وخرجنا إلى البحر فوجدنا المركب الذي انحدرنا من السفينة إليه على حالته الأولى فركبناه في حفظ الله تعالى، وقصدنا مدينة شنتمرية[69] في البحر، ومقدار ما بينهما ستة أميال فما كان إلا أسرع من مرور ساعة زمانية. وقد أشرفنا على بر المدينة المذكورة فوجدنا بها سرية من الخيل تنيف عن المائة، وقد برزت لملاقاتنا وأظهروا من الفرح والسرور ما أظهروا.

وحين أرسينا على مدينة شنتمرية وجدنا بساحل بحرها خلقا كثيرا من الرجال و النساء والصبيان، وقد برز حاكمها وقاضيها للملاقاة ومعهما كدشان لركوبنا، فحين التقينا بهما عملا من الصواب وحسن الملاقاة ما لا ينكر لهما. فدخلنا المدينة وطافوا بنا جميع أزقتها وديارها وأسواقها، وإذا هي مدينة كبيرة واسعة رحبة الفناء فسيحة الأرجاء، وأزقتها كلها مفروشة بالحجارة، وهي من حواضر مدن العدوة ومن المقصودين[70] في السبب والتجارة، ومع هذا فلا سور حاجز بين المدينة وبين البحر، وكذلك ما يلي البر منها، وبطرفها من جهة البحر دار كبيرة وقد سدوا بابها الذي يدخل إليها ، وهي الدار التي كان نزلها السلطان الشيخ ابن السلطان أحمد الذهبي[71] الداخل إلى اصبانية، فلا يعمرها أحد ولا يسكنها، إذ عوائد النصارى أن يحترموا الدار التي نزل بها ملك من الملوك ويبنوا بابها فلا يسكنها أحد، وبناء بابها علامة ذلك عليها، كما فعلوا بمادريد في دار هي اليوم غير معمورة من عهد كرلوس كينطوا، إذ كان حارب ملك الفرنسيين[72] وغلب عليه وأسره وأتى به إلى تحت ملكه

---

[69]- وهي مدينة تبعد عن قادس بأربعين كيلومترا. Puerto de Santa Maria

[70] كذا في جميع النسخ

[71]- لجأ الشيخ المامون إلى إسبانيا لطلب العون غداة استئثار أخويه أبي فارس بالسلطة في مدينة مراكش وزيدان بمدينة فاس، وكان ذلك سنة 1609. ينظر : المؤرخ المجهول،تاريخ. ص 85. الإفراني. **النزهة**. ص 239

[72]- أسر الملك الفرنسي فرانسوا الأول من قبل شارلكان على إثر حروب اندلعت بين افرنسا واسبانيا، ولم يطلق سراحه إلا بعد توقيع معاهدة مدريد التي بموجبها وضع حد للوجود الفرنسي في ميلان ونابل وفلانضر وأطلق سراحه في 21 يناير 1526.

و دار سلطنته مادريد، و أنزله بالدار المذكورة وبقي تحت يده زمانا إلى أن سرحه ومن عليه، فتركوا الدار التي كان بها على حالها وغلقوا بابها بالبناء، فهي معروفة مشهورة.

مدينة شنتمرية

ولما حللنا دار النزول بمدينة شنتمرية ورد أهلها وأعيانها للسلام والترحيب، وفيهم من البشاشات وحسن الملاقاة والبشر ما ليس في غيرهم، ولم يزل الحاكم والقاضي يختلفان إلينا ويترددان إلى أن مد الليل رواقه وأرخى في عنق الجوزاء أطواقه. ومن الغد حين أصبحنا ورد علينا بعض أعيان الدوك المتولي أمر هذه الكشطة[73] القاطن بمدينة سان لوكار معتذرا عن حال مشيعه بمرض منعه من القدوم، فقبلنا اعتذاره. وخرجنا من المدينة بعد أن برز أيضا أهلها للتشييع وخرج الحاكم والقاضي المذكوران وقبطان الخيل مع سريته وساروا معنا مسافة ثلاثة أميال إلى أن وصلنا حدا معلوما عندهم فاصلا بين عمالتهم وعمالة مدينة شريش، فترجل الأعيان وجميع من برز معنا و شيعونا بعد أن اعتذروا عن التقصير، وقالوا هذا هو الحد الفاصل بيننا وبين حاكم البلد الأخرى التي تقابلنا ولو أمكنتنا الزيادة لسرنا معكم اليوم كله إجلالا وإعظاما لمرسلكم، ولفرد عين ألف عين تكرم، فشيعناهم ورجعوا عنا.

[73]- في ن. ح : الكوشطة، ومعناها costa أي الساحل.

مدينة شريش

وسرنا مسافة فوصلنا مدينة شريش[74]، وفيما بين المدينة [والمدينة][75] بلاد متسعة ذات أشجار وأنهار وبها من الزياتين والبساتين والكروم وأنواع الغراسة ما لا يحصى. ومدينة شريش مدينة كبيرة واسعة، وأثرها أثر الحضارة القديمة وقد بقي من أسوارها أثر وأكثره درس وخرب[76] لأن النصارى لم يكن لهم اعتناء ببناء الأسوار ولا بتحصين المدن إلا في البعض مما قارب البحر كقالص من جهة المرسى ومدينة جبل الفتح فإنها حصينة ولها سور غير شاهق لبنائه على الموج. ومدينة شريش هذه تلقب بشريش الفرنطيرة[77]، ومعناها المقابلة، ويعنون بها المقابلة لبر الإسلام أعزه الله. وجل أهلها من أهل الأندلس وأعيانهم الذين تنصروا، وهم أهل حراثة وفلاحة. فعبرناها ضحوة.و لم نزل سائرين ذلك اليوم إلى أن بلغنا عشية مدينة يقال لها البريجة، وهي مدينة صغيرة إلى البداوة أميل، وأثر سورها خرب ودثر، فلقينا حاكمها وقاضيها، وأنزلونا دارا لبعض أكابرهم وجعلوا يتتالون علينا للسلام. وفيها انتسب لنا البعض إلى الأندلس بإشارة خفية لم يقدر على التصريح بغير كلام خفي، والغالب على جل سكانها أنهم من بقايا الأندلس إلا أن العهد طال عليهم وربوا في بحبوحة الكفر فغلبت عليهم الشقاوة والعياذ بالله.

---

[74]- ويسميها ابن عثمان مدينة خيرز Jerez أي النطق الإسباني لمدينة شريش Jerez de la Frantera وبناحيتها وقعت المعركة الحاسمة بين طارق بن زياد وآخر أمراء القوط سنة 711م. وكانت مدينة شريش زمن المسلمين بالأندلس مركزا ثقافيا ذائع الصيت، استردها الأسبان سنة 1264.

[75] ساقطة من ن.ف

[76]- يختلف ابن عثمان عما أورده الغساني بصدد أسوار المدينة، ويقول: " سورها الذي كان على عهد المسلمين باق إلى الآن إلا أن النصارى أحدثوا ديارا كثيرة وأسواقا كبيرة خارجة عن السور مثل ما بداخله أو أكثر وليس للزيادة المذكورة سور..." ابن عثمان ، **الإكسير**، ص 31

[77]- الفرنطيرة : Frontera

مدينة طريرة

ومن الغد رحلنا إلى مدينة يقال لها أطريرة[78]، وفيما بينهما بلاد متسعة وأرض فسيحة معمورة بعزايب الحرث والمواشي وأكثر غنم الأندلس سرد. وعن يسار المار من البريجة إلى أطريرة بمقدار ميلين أو ثلاث الواد الكبير المنحدر من إشبيلية الذي تجتمع فيه سائر أودية الأندلسية، وتسافر فيه المراكب من البحر الكبير[79] إلى أن تصل إشبيلية على مسافة أربعين ميلا من البحر المذكور.

ومدينة اطريرة ، هذه هي مدينة متوسطة بين الصغر والكبر وجل أهلها من بقايا الأندلس، فوصلنا عشية اليوم فوجدنا جميع أهلها وقد برزوا للاستسقاء، وهم على عدد نسماهم قد رفع كل واحد منهم صليبا على كتفه، فلقونا على تلك الحالة حيث لم يمكنهم التخلف. فترلنا بالمدينة دارا كبيرة مشرفة على جل[80] المدينة، وبعد أن طرحوا صلباهم وردوا أيضا للسلام علينا وهم في البشاشة والفرح بمكان، وأهلها ذوات عظام والغالب عليهم الحسن رجالا ونساء. ولقد شاهدت[81] ابنتين إحداهما بنت حاكم البلد والأخرى بنت القاضي في غاية الحسن والجمال والكمال لم تر عيني في جميع ما رأت عيني من بلاد اصبانيا على سعتها أجمل منهما، وهما من بنات الأندلس ومن دم ملك غرناطة الأخير الذي غلب عليها وهو الملك المعروف عندهم بالري الشيك[82]، ومعناه السلطان الصغير. ولقد أخبرني بمدينة مادريد رجل يسمى دون[83] الونص حفيد موسى أخ السلطان حسن[84] المتغلب عليه بغرناطة أن البنتين

---

[78] - Utrera ، وهي مدينة تقع على بعد 14 كيلومترا من مدينة إشبيلية.

[79]- يقصد المحيط الأطلسي.

[80]- في ن. ح : جبل

[81]- في ن. ح : شاهدنا

[82]- ؟ في ن. م : الري الشيد، ويبدو أن الناسخ أخطأ نسخ الحرف الأخير من الكلمة (ك) الري شيك Rei chico بالإسبانية التي تعني الملك الصغير كما يرد في النص.

[83]- في ن. ح : ضون

[84]- المقصود مولاي الحسن أحد الملوك النصريين ممن حكم غرناطة في الفترة ما بين 1483و 1486

اللتين بأطريرة من دمه. ودون الونص هذا هو رجل حسن الأخلاق حسن الشباب له قوة وشجاعة معروفة عند النصارى وهو معدود من فرسانهم الشجعان[85]، يتقدم إلى المحال[86] والشرور قبطانا على جماعة من الخيل، والنصارى يعتدون بشجاعته ومع هذا فهو مائل إلى من يلقاه من أهل الإسلام، ويذكر نسبته ويعجبه ما يسمعه من الحديث عن الإسلام وأهله. ولقد حدثني عن أمه أنها حين حملت به اشتهت الكسكس[87]، فقال لها أبوه لعل هذا الحمل الذي في بطنك من ضنو المسلمين يداعبها بذلك، إذ كانوا لا ينفرون من نسبتهم لعلمهم بها وأنهم من بيت الملك، نعوذ بالله من الخذلان والغواية ونسأله [التوفيق[88]] و الهداية.

ومن عظيم بشاشة أهل أطريرة أنهم وردوا علينا ليلة مبيتنا عندهم بالفرايلية[89] الذين يحسنون الغناء في كنائسهم، وبيدهم آلات اللهو والطرب، ومنها آلة يسمونها الأربة ذات أوتار عدة، وهي خشنة الشكل، يزعمون أنها آلة النبي داوود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وعلى شكلها رأيت بيدي صورة من الصور التي يجعلونها في بيوتهم وديارهم ويزعمون أنها صورة النبي داوود عليه السلام، إذ جميع تواريخهم ودياناتهم هي مأخوذة من ديانات بني إسرائيل وعن التوراة في زعمهم، إلا ما زادوه من الفرق الحاصل بينهم وبين اليهود حين تألبوا على المسيح وصارت العداوة بينهم بسبب ذلك، و لم يزالوا من ذلك العهد يحدثون في أديانهم واعتقاداتهم الفاسدة وضلالهم ما يحدثه لهم البابا الذي برومة ألحقه الله بأكابر قومه.

---

[85] في ن.ف: وشجعانهم

[86]- في ن. ح : الحفل

[87] في ن.ح و ن.م: الكسكسون

[88]- سقطت من ن. م

[89]- وردت هذه الكلمة في النص مرات متعددة، إما بصيغة المفرد (الفرايلي) أو بصيغة الجمع فرايلية، والكلمة ذات أصل إسباني Fraile ومعناها الراهب المنتسب إلى طريقة خاصة من جماعات الرهبان الذين يسكنون الأديرة.

مرشينة وإيسكا

ومن مدينة أطريرة هذه إلى مدينة مرشينة عشرون ميلا، وفيما بينهما أرض واسعة فسيحة متسعة الأرجاء سهلة. وليس بهذه البلاد الأندلسية جبال إلا ما هو على يمين المار، تظهر على مرأى العين كجبال الرندة وما والاها. وفيما بين أطريرة ومرشينة واد كبير عليه قنطرة كبيرة مبنية أحسن بناء من عهد المسلمين، وبهذا الوادي كانت وقعة الزلاقة الشهيرة الذكر. وعلى هذا الوادي كنيسة صغيرة بها صور حرب الزلاقة منقوشة بحيطانها. ومدينة مرشينة هي متوسطة أيضا، أثرها أثر الحضارة القديمة وهي اليوم إلى البداوة أميل، وأهلها أهل بشاشة ومنهم من ينتسب إلى الأندلس انتسابا.

ومنها إلى مدينة ايسكا واحد وعشرون ميلا، وفيما بينهما بلاد متسعة الأرجاء فسيحة ذات أجنة[90] وبساتين وأكثر أشجارها شجر الزيتون، فعلى مدينة مرشينة من ناحية ايسكا ثمانية أميال كلها معمورة بالزياتين، وفي كل غابة من زياتينها دار لخزن الزيتون ولعمران من يقوم بأمرها[91]، وكذلك فيما يلي ايسكا من طريق مرشينة أيضا من الزياتين مسيرة ثمانية أميال أخرى يمينا وشمالا وخلف وأمام، إذ الأندلسية هي أكثر عمارة العدوة شجرا وزيتونا .[92] وعلى قرب من مدينة ايسكا في أعلى ربوة من الأرض مطلة على المدينة أثر بناء قديم مصلح زعموا أنها روضة صالح من صلحاء المسلمين، رأوا له بركة عظيمة فتركوا روضته على ما هي عليه . ولما أشرفنا على مدينة ايسكا رأينا بها من حسن المنظر وبهائه ما ليس في غيرها من سائر مدن العدوة وهي في غور من الأرض على شفير الوادي المسمى بوادي شينيل.

---

[90]- في ن. ح : جنات

[91]- في ن. ح : بها

[92]- محمد بن يوسف بن علي بن حيان الجياني الإمام أبو حيان أثير الدين الأندلسي الشافعي، تنظر ترجمته في نفح الطيب للمقري ولد سنة 654 وتوفي سنة 745. ينظر المقري، **النفح**...ج 2، ص535.

[وشينيل هذا من حيث ابتدائه، عليه من المنتزهات والبساتين وحسن المنظر ما خامل عقول كثير من أدباء الأندلس، وقد أكثروا فيه من قول الشعر على كل وزن و كل قافية، ونظموا فيه من الأزجال والموشحات ما لا يحصى ولا يعد وما يفوت الحصر والحد. فمن ذلك ما علق بالحفظ منقول أثير الدين أبي حيان رحمه الله وهو في مصر، يتشوق إلى وطنه بغرناطة ويصف منازله بها ويبث شوقه وأشجانه ويندب معاهده بها ومشاهده، وهو قوله:

وهل تذكرين منازلا بالأحبل	ومنازل صفت بشطـــــي شــنل
ومشـــاهدا ومعاهدا ومناظرا	ومقاصر للقاصـــرات الرفــــــل
حيث الرياض تفتحت أزهارها	فشممت أذكى من أريج المـــندل
والطير تشدو مفصحات بالغنا	وفوق الغصون الناعمات الميــــل
فتشير للمشتاق داء كلما	وتديل صائـــر دمعه المتدلـــــل][93]

وما زال يسمى عند النصارى باسمه الأول المعهود، وهو واد كبير ينحدر من وادي آش[94] ومن وادي شينيل من أحواز غرناطة وجبالها. وعلى هذا الوادي من المنتزهات والأجنات والبساتين والأرحية وأنواع الغراسة ما لا يحصى، وليس في سائر ما رأيناه بالعدوة الأندلسية منتزها أبهى منه منظرا. والمدينة على شفير هذا الوادي المذكور مع ما دار بها من البساتين والمنارة والديار التي بالبساتين كأنها فلك دارت كواكبه. ولقد ذكرني ما شاهدته من حسن هذا الوادي وبديع منظره وبهائه قول حمدة[95] الأندلسية الشاعرة التي من وادي آش:

أباح الدمع أسراري بوادي	له للحسن آثـــــــار بوادي
فمن نهر يطوف بكل روض	من روض يطوف بكـــل وادي
ومن الظباء مهات رمـــل	سبت لبى وقد سلبت فـــؤادي

---

[93]- سقطت هذه الفقرة من ن. م ومن ن.ف

[94]- هو الذي يعرف في إسبانيا ب Guadix أي واديس.

[95]- حمدة بنت زياد الوادآشية ترجم لها المقري في "نفح الطيب" وابن الخطيب في " الإحاطة". ينظر ابن الخطيب، **الإحاطة** ج 1. ص 315، المقري، **النفح**...ج4. ص 287.

لها لحـــظ ترقده لأمـــــر وذاك الأمـــر يمنعني رقـــــادي

إذا ســـدلت ذوائبها عليها رأيت البدر في جنح الســـوادي

كأن الصبح مات له شقيق فمن حزن تسربل بالحــــــداد[96]

وحمدة هذه من شاعرات الأندلس وأخبارها مشهورة في محلها من أخبار شعراء العدوة وشاعراتها وهي القائلة:

ولما أبى[الواشون[97]] إلا فراقنا وما لهم عندي وعندك من ثـــأر

وشنوا على أسماعنا كل غارة وقل حـــماني عند ذاك وأنصاري

غزوتهم من مقلتي وأدمعــــي[98] ومن نفسي بالسيف والقتل والنار

ولقد أنشدت حين أبصرت حسن هذه المدينة وجميل منظرها متمثلا ببيتي الجزيري[99] وضمنتها بيتين آخرين:

أليت إذ نظرت عيني محاسنها أن لا نظير لها في مطلق الصور

كأنها فلك دارت كواكبــــــه وأشرفت بين بدور الأرض الخضر

فالله ينقذها حتى يدار بهـــا دين المقيمين محروسا من الكدر[100]

بكف محتسب لأجر منتدب لله منتسب لأفضل البشــــــر

وحين قربنا من المدينة برز حاكمها في كدشة ومعه أولاده ومن معه من أصحابه راكبين خويلة له، زعم أنها من أحسن خيل الأندلسية وأجودها، فلقينا خارج المدينة ورحب بنا ولم يدع من البشر وحسن الملاقاة شيئا، وسار بنا إلى المدينة وطاف بنا أسواقها ورحابها وأزقتها، فإذا هي مدينة متحضرة بين الصغر والكبر، وهي في غاية النظافة ولأهلها حسن أخلاق وجمال. وبوسطها المسجد الجامع الذي بها، وهو متوسط عجيب الشكل متقن البناء، وبصحنه أشجار النارنج، وهو من عهد المسلمين وقد بقي على حاله. فوصل بنا حاكم المدينة إلى داره وهي دار

---

[96]- سقط من ن. م ومن ن.ف

[97]- في ن. م : لما أبى فراقنا إلا قتالنا

[98]- في ن. م : بأدمع

[99]- الجزيري هو عبد الملك بن ادريس توفي بين 395 و 398، تنظر ترجمته عند: المقري، **النفح...**ج3.ص 260.

[100]- في ن. م : من الغير

كبيرة واسعة، فأنزلنا بها أحسن نزول و لم يقصر في الإكرام ولا فيما وجب عليه من الصواب وحسن الخطاب. فبتنا بداره تلك الليلة، ومن الغد خرجنا من المدينة وإذا على طرفها قنطرة عجيبة[101] وعليها باب هذه المدينة، وتحت هذه القنطرة من الأرحية والبناءات شيء كثير.

مدينة قرطبة

ومن هذه المدينة وصلنا إلى مدينة قرطبة، ومدينة قرطبة هي مدينة كبيرة وحاضرة من حواضر العدوة، وهي دار ملك قديم، فيها كان سكنى ولاة الأندلس قبل دخول عبد الرحمن بن معاوية،[102] و في سنة ثمان وستين ومائة انتقل عبد الرحمن من الرصافة، إذ كان سكناه بها، إلى قرطبة وجعلها مقر ملكه وسرير سلطنته وخلافته، إذ بها كان سكنى ملوك بني أمية من عهد عبد الرحمن الداخل وغيره ممن كان قبله ومن ولي من بعده من خلفه.

والمدينة في سفح جبل يسمى سير مرينة،[103] وهي على ضفة الوادي المسمى بالوادي الكبير الذي ينحدر من جبال بياسة وجبال جيان وغيرها، والنصارى يسمونه باسمه المعهود في عهد المسلمين[104]، وهذا الوادي هو أكبر أودية الأندلس كلها وبه يجتمع سائرها، وهو الذي يمر بإشبيلية وينحدر إلى البحر عند مدينة سان لوكار. وبخارج مدينة قرطبة من البساتين والجنات[105] وأنواع الكروم ما لا يحصى.

---

[101]- عند هذه القنطرة العجيبة توقف ابن عثمان مطولا ليذكر أنها " من عمل النصارى، في غاية الإتقان لها ستة عشر قوسا، وقد كانت قبل قنطرة المسلمين رحمهم الله فهدمها السيل وبنى النصارى على أساسها القنطرة الموجودة" ابن عثمان، **الإكسير**...ص 55.

[102]- عبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بعبد الرحمان الداخل الفار من بطش العباسيين إلى الأندلس ومؤسس الدولة الأموية بالأندلس وكانت مدة حكمه 33 سنة كان آخرها788.

[103]- Sierra Kovena هي السلسلة الجبلية الممتدة جنوب إسبانيا من الحدود البرتغالية غربا إلى ناحية المانشا شرقا.

[104]- أي Guadalquivir

[105]- في ن. ح : الجنانات

وحين قربنا من المدينة برز أهلها للملاقاة وبرز من بها من الأسارى وهم يعلنون بلفظ الشهادة ويدعون بالنصر لسيدنا المنصور بالله تعالى، وصبيان النصارى يقولون مثل قول الأسارى. ولما أن دخلنا المدينة رأيناها مدينة كبيرة عامرة مشحونة بأنواع الحرف والصنائع وأكثر باعتها نساء، فترلنا دار حاكمها.

ومن الغد خرجنا منها بعد أن عبرنا مسجدها الأعظم الشهير الذكر البعيد الصيت، وهو مسجد كبير جدا وفي غاية الإتقان وحسن البناء، وبداخله ألف وثلاثمائة [وستون[106]] سارية كلها من الرخام الأبيض، بين كل ساريتين قوس من فوقه قوس آخر، وله من الأبواب الآن أربعة عشر بابا، وقد سد كثير من الأبواب وغيرها، ومحرابه الإسلامي باق على حاله لم يغير و لم يحدث فيه شيء، إلا أنهم جعلوا عليه شباكا من نحاس وطرحوا أمامه صليبا، فلم يدخل إليه أحدهم[107] إلا قيم ذلك الصليب، و لم يزد بداخله ولا بحائطه شيء قليلا ولا كثيرا. ولهذا المسجد صحن كبير مشتمل على خصة ماء في وسطه ويدور بها في سائر الصحن من أشجار النارنج مائة وسبعة عشر شجرة. و يقابل موضع المحراب من الصحن منار كبير مبني كله من الحجارة إلا أنه ليس بغاية في الارتفاع كمنار طليطلة وإشبيلية ، وهو مبني على باب من أبواب المسجد المقابلة لموضع العترة، ومازالت سقف هذا المسجد وأبوابه باقية على حالها لم يحدث بها شيء إلا ما تدعو الضرورة إليه من إصلاح السقف الذي يتداعى إلى السقوط وشبه ذلك.[108]

وقد أحدث النصارى بوسط هذا المسجد مقابلا لمحرابه قبة كبيرة مربعة مشبكة بشبابيك من نحاس أصفر، جعلوا داخل هذه القبة[109] صليبا من صلبانهم

---

[106]- سقطت من ن. ح ومن ن.ف

[107]- في ن. ح : أحد

[108]- وكان قد بناه الخليفة الأموي الحكم الثاني بن عبد الرحمن الثالث الذي حكم ما بين 350-365 ه – 965-976 م.

[109]- استرعت هذه القضية باهتمام ابن عثمان أيضا حيث قال:" وقد أحدث النصارى بوسط المسجد بين المحراب و العنزة قبة كبيرة اتخذوها لصلاتهم وضلالتهم وفيها آلات الموسيقى وهي أكبر الكنائس الذي أحدثوا في هذا المسجد وهي في غاية العلو ولها شبابيك مموهة، وقد دخلنها ورأينا ما بها من كفرياتهم أهلكهم الله" ابن عثمان، **الإكسير**...ص 61.

وكتب صلواتهم التي يحضرونها مع الموسيقى وشبهها. وأبواب هذا المسجد باقية على حالها من البناء الأول والنقش[110] بالكتابة العربية.

[وهذا المسجد هو من أكبر مساجد الدنيا وأعظمها صيتا، ففي سنة تسع وتسعين[111] ومائة ابتاع الإمام عبدالرحمن الداخل موضع الجامع بقرطبة من نصارى الذمة، وكان بالموضع المذكور كنيسة قديمة فاشتراه بمائة ألف دينار وزاده في ساحة المسجد. وفي سنة (فراغ مقدار كلمة)[112] ومائة أسس الإمام الجامع بقرطبة وأخذ في بنائه وإتقانه وبناه من مال الأحباس وأنفق في بنائه مائتي ألف دينار، وفي ذلك يقول بعضهم:

وأبرز في ذات الإلاه ووجهه ثمانين ألفا من لجين وعسجد
وأنفقها في مسجد الله التقي ومنها جد دين النبي محمـــد
ترى الذهب الوهاج بين سموكه يلوح كلمع البارق المتوقـــد

وجعل الجامع سبعة أبواب إذ ذاك ومازال ملوك بني أمية يزيدون في بناء هذا المسجد والاحتفال فيه إلى زمن المنصور بن أبي عامر، فزاد فيه من قبلة الإمام عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل على ما كان زاد فيه جده الداخل زيادة كثيرة ورفع سمكه ، وفي ذلك يقول الشاعر ابن المثنى[113]:

بنيت لله خير بيت تخـــرس عن وصفه الأنام
حج إليه من كل أوب كأنه المسجـــد الحـــرام
كأن محـــرابه إذا مـــا صف به الركن والمقـــام

110- تضاربت الأرقام المقدمة لعدد أعمدة الجامع، فابن عثمان مثلا يذكر أن عدد سواري المسجد سبعمائة وإحدى وثلاثون سارية، وهو الرقم الذي علق عليه محمد الفاسي قائلا:" إن هذا العدد أقل بكثير مستدلا على ذلك بدليل سياحي صدر في سنة 1920". ابن عثمان، **الأكسير** ص59.

111 لم يتمكن الفريدالبستاني من قراءة التاريخ في النسخ المتوفرة لديه فكتب :" في سنة كذا ومائة".

112- بعد الفتح الإسلامي للأندلس تحول عدد من الكنائس إلى مساجد، ومن بين هذه الكنائس كنيسة San Vicente بقرطبة. ويختلف المؤرخون في ذكر سنة تحويلها وبعضهم يقول أن ذلك تم مباشرة بعد الفتح فيما يرى البعض الآخر أن ذلك تم سنة 130 هجرية. وهذا الجامع هو الذي جرى تجديده وإعادة بنائه زمن عبدالرحمن الداخل وهو المعروف بجامع قرطبة، وكانت إعادة بنائه سنة 170 هجرية وهو ما يوافق سنة 786 ميلادية. ونعتقد أن خلو النسخ من التاريخ راجع بالأساس إلى غياب تاريخ مضبوط.

113- هو عثمان بن المثنى القيسي القرطبي ولد سنة 795 وتوفي سنة 886م ، تنظر ترجمته في **الإعلام**... ج4، ص376

وقال آخر:

بنى مسجدا لم يبن لله مثله ... ولا مثله لله في الأرض مسجد

سوى ما ابتنى الرحمن والمسجد ... الذي بناه نبي المسلمين محمد

له عمد حمر وخضر كأنما ... تلوح يواقيت بها وزبرجـــد

ألا يا أمين الله لازلت سالما ... ولازلت في كل الأمور تسدد

فيا ليتنا نفديك في كل حادث ... وأنـــك في الإسلام فينا تخلد

وعبدالرحمن هذا أول من كسا الأندلس أبهة الخلافة وأمر ببناء الجامع بإشبيلية وببناء سورها من أجل طروق (كذا) المجوس فيها من البحر الرومي سنة230. وفي سنة أربع وثلاثين ومائتين أمر الإمام عبدالرحمن هذا ببناء الجوامع الكبيرة بسائر الأندلس، فبنيت وصنع بها المنابر للخطباء، وتنافس جواريه في بناء المساجد وعمارتها واتخاذ الأوقاف لها اقتداء بفعله، فبنى مسجد طروب ومسجد مجد ومسجد الشفا ومسجد متعة. وكانت له همة في كتب العلوم والآداب، فلقد بعث ثقته عباس بن ناصح الثقفي[114] إلى بغداد بالأموال فاشترى له منها كل غريب وكل ضابط للغريب، راويا لأشعار العرب، ذاكرا لأيام الناس. ولقد وردت عليه حسانة التميمية[115] مشتكية بجابر بن لبيد والى البيرة، وكان والده الحكم قد وقع لها بخط يده بتحرير أملاكها وحملها في ذلك على البر والإكرام، فتوسلت إلى جابر بخط الحكم فلم يفدها فدخلت إلى الإمام عبدالرحمن وأقامت بفنائه وتلطفت مع إحدى نسائه حتى أوصلتها إليه، وهو في حال طرب فانتسبت له فعرفها وعرف أباها ثم أنشدته مرتجلة هذه الأبيات:

إلى ذي العلى والمجد سارت ركابنا ... على مشط تصلى بنار الهواجر

ليجبر صـــدعي أنه خير جابـــر ... ويمنعني من ذي الظلامة جابـــر

---

[114]ـ يكنى بأبي العلاء ، وهو شاعر أندلسي نشأ في مصر ورحل إلى العراق فاجتمع بالأصمعي وغيره من علماء المشرق وأخذ عنهم ورجع إلى الأندلس، تنظر ترجمته عند :
ابن القوطية، **تاريخ افتتاح الأندلس**، ص 57، ابن الفرضي، **تاريخ علماء الأندلس**، ص 296

[115]ـ أديبة من البيرة كان لها في عبدالرحمن بن الحكم عدد كبير من قصائد المدح، تنظر ترجمتها عند:
المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، ج4، ص 167.

فإنا رأينـــا من بغيضـــة جابـــر كذي الريش أضحى من مخالب كاسر

جدير بمثلي أن تكـــون مـــروعة بموت أبي العاصي الذي كان ناصـــــر

سقاه الحيا لو كان حيا لما اعتدى على زمـــان بـــاطش بطـــش القـــادر

أيمحو الذي خطته يمناه جابـــــر لقـــد هـــام هذا الملك إحـــدى الكبائر

فلما تمت إنشادها دفعت إليه خط والده الحكم بتحرير أملاكها، وحملها على المراعاة والمحاباة، وقصت عليها جميع أمرها مع جابر وامتناعه عليها ، فرق لها وأخذ خطه إليه فقبله ووضعه على عينيه، وقال : لقد تعدى ابن لبيد طوره، وسفه رأيه كيف ينقض أمر الإمام الحكم وحسبنا أن نسلك سبيله بعده ونحفظ بعد موته عهده، انصرفي يا حسانة، فقد عزلته لك. ووقع بمثل توقيع أبيه الحكم ، فقبلت يده ، وأمر لها بجائزة، فانصرفت وبعثت له بقصيدة من البيرة منها:

ابن الهشـــــامين خير الناس مأثره وخـــير منتجـــع يـــوم لـــوارد

إن خز أيام الوغـــى أثناء صعدتـــه روى أنابيبها من صـــوب فرصاد

قل للإمـــام ياخير الـــورى نسبا مقـــابـــلا بين آبـــاء وأجـــداد

جذبت صبحي و لم ترض الظلامة لي فهاك فصل ثناء رائح وغادي

فإن أقـــمت ففي نعماك عـــــاكفة وإن رحـــلت فقد زودتني زادي

ثم إن عبدالرحمن الناصر، وهو عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان، وهو نجم بني أمية بالأندلس، شرع في الزيادة في جامع قرطبة فبناه وكمله وارتفعت في الزيادة عند كمالها ست وستون ثريا ، في كل ثريا عشرون كأسا كانت كلها مذهبة. وفي سنة خمس وخمسين وثلاثمائة تم منبر جامع قرطبة بالعمل، ونصب بالمقصورة مؤلفا من الأبنوس والصندل الأحمر والأصفر والعناب والبقم، وانتهى الإنفاق فيه إلى خمس وثلاثين وخمسمائة دينار، وعدد درجاته تسع

درجات، وقام هذا المنبر من ستة وثلاثين ألف رطل، وكان مبلغ الإنفاق في الزيادة في الجامع مائة ألف دينار وإحدى وستون الف دينار ونيف.

وفي سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة ابتدأ المنصور بن أبي عامر بالزيادة في المسجد الجامع بقرطبة، زاد فيه نحو النصف على ما كان بناه الخلفاء قبله، وصلى الناس فيه سنة أربع وثمانين، فكان العمل فيه ثلاث سنين، وخدم في بنائه الأعلاج ووجوه فرسان الخلافة والفرنج يعملون مع الصناع مصفدين في الحديد إلى أن كمل، وبنى فيه الجباب لاستقرار الماء من الأمصار في صحن الجامع . وعدد سواريه ألف وأربعمائة سارية، وسبع سواري منها في المنار والمقصورة وغير ذلك].[116]

ويقابل هذا المسجد القصبة الكبيرة التي كانت دار ملك قرطبة وسائر سلطنة العدوة حين اجتماع كلمتها وقبل حلول ملوك الطوائف بها، نسأل الله تعالى أن يعيدها دار إسلام بجاه نبيه عليه السلام. وما زالت أسوار القصبة باقية على حالها من حسن البناء وارتفاع سمكه وعلوه في الجو على قدر علو المسجد. ومن عظيم أثر بنيان هذا المسجد وعلو سمك جدرانه في الجو أن جعلوا له سواري من خارج الجدران مبنية من الحجارة خارجة من الحائط نفسه، وبين كل ساريتين مقدار عشرة أذرع لتشد حيطانه وترصص جدرانه. ويدور بالمسجد كله بنيان على قدر قامة الإنسان بارزا مثل الشدروان[117] احتفاظا للحائط المذكور. وهذا المسجد من أحسن مساجد الإسلام وصيته يغني عن الإطناب في وصفه وهو بمقدار المسجد الأقصى على ما قيل، وقد نقلت من كتاب نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والمدائن والآفاق حيث ذكر المسجد الأقصى ووصفه إلى أن قال " وليس في الأرض كلها مسجد على قدره إلا مسجد الجامع الذي بقرطبة من بلاد الأندلس". وفيما يذكر أن مسقف جامع قرطبة أكبر من مسقف الجامع الأقصى، وصحن المسجد الأقصى في تربيع طوله مائتا باع عرض مائة وثمانين باعا.

116- سقطت من ن. م

117- في ن. ح : الشاذروان

وبأحواز مدينة قرطبة على شفير الوادي من أراضي الحراثة والعزايب لنتاج الخيل ما لا يحصى لأن خيل بلاد قرطبة وأحوازها من البلاد الأندلسية أحسن عند النصارى من خيل جميع بلاد اصبانيا على سعتها، وبذلك منع طاغية اصبانيا أهل الأندلسية من أن لا يترو[118] أحد حمارا على فرس، ومن قبض عليه ذلك يعاقب عقوبة كبيرة بأخذ ماله أو حبسه أو غير ذلك من أنواع العقوبات. ونتاج البغال عندهم هو بالبلاد المعروفة بمانشا ومعناها العلامة. ومانشا[119] هذه هي بلاد واسعة جدا مسيرة ستة أيام، وهي أرض خشنة ذات أحجار ومنابتها الشيح وغيره من المنابت اليابسة، وهي البلاد الفاصلة بين الأندلسية وبين قشتالة الجديدة، وبغال هذه البلاد تشاكل بغال الشام[120] أو تقرب منها. وأهل قرطبة أهل حراثة وفلاحة. و[بلاد][121] الأندلسية كلها هي قليلة المياه إلا ما بها من الأودية المذكورة و لم يكن لأهلها اعتناء بالسواقي ولا بإخراجها، إذ حراثتهم كلها في البلاد البعلية إلا ما نسمع عن غرناطة و أحوازها من تدفق المياه وجريانها من كل موضع. وعلى هذا الوادي من القناطير المبنية أحسن بناء عدد كثير. وعلى باب مدينة قرطبة قنطرة كبيرة وتحتها أثر قنطرة أخرى، زعموا أن السفلى هي التي أسسها المسلمون فخربها السيل فيما قرب الآن من عشرة أعوام[122]، فجدد النصارى فوقها بقليل قنطرة أخرى لها من الأقواس سبعة عشر.

[وقيل في مدح قرطبة ووصف مفاخرها:

بأربع فاقت الأمصار قرطبـــة ومن قنطرة الوادي وجامعهـــــا

118- بعد قرن من الزمن يعود ابن عثمان لمسألة الخيول الإسبانية ولكن بنوع من التفصيل، ويظهر أنه نقل عن الغساني حيث يقول:" وقد منع طواغيهم المتقدمة أن ينزو أحد حمارا... ولا زالوا على ذلك إلى الآن..." ابن عثمان، **الإكسير**...ص.62.

119- وتنطق باللغة الإسبانية Mancha مانتشا واشتهرت كثيرا في الأدب الإسباني حيث جعلها سرفانتيس مجالا لأحداث بطله الروائي دون كيشوط دو لامانتشا.

120- هذه المقارنة تعطينا فكرة عن طبيعة المصادر التي استقى منها الغساني معلوماته، ولا يستبعد أن يكون الراهب الحلبي الذي تحدث عنه كترجمان والذي زوده بأخبار الفتوحات العثمانية، هو مصدر معلوماته.

121- ساقطة من ن.ف

122- يعود خراب القنطرة إلى السيل الناتج عن الزلزال الذي ضرب الأندلس في 9 أكتوبر 1680 والذي كانت له أوخم العواقب في مدن غرناطة وجيان واشبيلية وقرطبة، ينظر عن هذا الزلزال:

Bennasser, *Les catastrophes naturelles dans l Europe médiévale et moderne*, PUF Toulouse, 1996 .

هاتان ثنتان والزهراء ثالثه   والعلم أكبر شيء وهو رابعها[123]]

الكاربي واندوخر

ومن قرطبة إلى مدينة تسمى الكاربي[124] خمسة عشر ميلا، وهي مدينة صغيرة على نشز من الأرض قرب الوادي الكبير أيضا، وهذا الوادي [الكبير[125]] دوالب ونواعير تصعد الماء من الوادي إلى البساتين تحت المدينة، وأهلها أهل فلاحة وحراثة وهم إلى البداوة أميل، وعلى هذا الوادي من جانبيه من المداشر والقرى ما لا عد له .

ومن مدينة الكاربي هذه إلى مدينة تسمى أندوخر واحد وعشرون ميلا، وهي مدينة قديمة أثرها أثر الحضارة، وهي على ضفة الوادي الكبير أيضا، وعلى هذا الوادي بقرب المدينة قنطرة كبيرة من عهد الإسلام، وبفحص هذه المدينة من الزياتين والغروس والبساتين وأراضي الحراثة ما لا يحصى، وأهلها أهل حراثة وفلاحة. والغالب على عمارها[126] أنهم من بقايا الأندلس[127] وجلهم من أولاد السراج[128] الذين كانوا تنصروا على عهد السلطان حسن[129] آخر ملوك غرناطة، وذلك فيما

---

[123]- ساقطة من ن. م ومن ن.ف

[124]- مدينة El carpio وهي مدينة صغيرة من أعمال قرطبة، وقد نقل الغزال عن الغساني المعلومات المتعلقة بهذه المدينة وأضاف أنها محاطة بسور من عمل المسلمين رحمهم الله، غير أن أبراجه ما زالت قائمة". الغزال، **نتيجة**..ص 104.

[125]- ساقطة من ن. م

[126]- في ن. ح : عمالها

[127]- مسألة يثيرها ابن عثمان أيضا حيث يذكر أن بهذه المدينة سكنى المسلمين وأن بها أثر كثير للمسلمين. وأنه تقدم إليه رجل وقدم له دينارا مكتوبا بخط المسلمين وأنه الضامة التي رقصت في الحفل الذي أقيم على شرفه من بنات قردناش وأمها بنت برفاش... ابن عثمان، **الإكسير**...ص70.

[128]- كان أولاد السراج أو أسرة أو أسرة السراج من القوى الاجتماعية البارزة أثناء حكم النصريين وكانت تتنافس مع أسرة أخرى هي أسرة بن زكري، وكان الصراع ما بين هاتين الأسرتين من أهم الأسباب التي عجلت بنهاية الحكم الأسلامي في غرناطة. ينظر عن دور هذه الأسرة، أبن عثمان المكناسي، **الأكسير**... ص 177.

[129]- في ن. ح : أبي الحسن. وتعود مسألة التنصر ألى إجراء أقدم عليه الأمير النصري مولاي الحسن والمتمثل في تطليق زوجته عائشة وزواجه من نصرانية إسمها Isabel de Solisالمعروفة ب Cautiva وهو ما كان له أوخم العواقب على مستقبل الإمارة النصرية

يزعمونه النصارى وينقلونه في تواريخهم أن بعض أولاد ابن زكري[130] الغرناطيين بغرناطة كان وشى إلى الملك بأحد أولاد السراج، وذكر عنه أن له كلاما مع زوجة ابن الملك ومخالطة، فحنق الملك على أولاد السراج الذين معه بغرناطة فقتل منهم جماعة أعيان، وكان أولاد السراج لذلك العهد هم أقوى جيش المسلمين، وبلادهم اندوخر باقية بعد تغلب الكفرة على قرطبة و أحوازها، يحاربون عليها ويذبون عنها ، فحين بلغهم خبر من قتل من إخوانهم بغرناطة حملتهم الحمية والأنفة والحنق والغيظ على أن ركبوا من ساعتهم وقصدوا طاغية الوقت فتنصروا [على يده، وخرجوا من عنده قاصدين غرناطة فأغاروا عليها وحضروا][131] بعد ذلك مع الطاغية في حروب غرناطة وأحوازها، نعوذ بالله من الضلال بعد الرشاد ومن الغواية بعد الهداية.

وجل بقية هؤلاء المتنصرة الذين باندوخر يعد من أكابر أهل البلد، غير أنه لا يعد عند النصارى مثل ما لهم من الكبيرة التي يتوارثها النصارى خلفا عن سلف مثل الدوك[132] أو القند وشبههما، وأكثر ما يحصل لهم اليوم من الكبيرة أن يكون من نسل هؤلاء القوم الذين تنصروا أن يرث عمل الصليب على كتفه يرقمه في ثوبه المتدثر به فتلك علامة الأكابر منهم. والخطط التي يتولونها (كذا) بقايا هذا الجنس المذكور هي الكتابة وحكومة البلدان والشرطة وغيرها مما ليست له وجاهة كبيرة [وولاية شنيعة مثل التصرف في المحال والولاية للأقاليم الكبيرة][133] أو المدن القواعد مثل إشبيلية وما شاكلها. وعلى كل حال فهم في هذه النواحي كثيرون لا يحصون، فمنهم من ينتسب ومنهم من لا ينتسب ومنهم من ينفر من سماعه لانتساب ذلك، والذي ينفر من هذه النسبة ويتأبى عنها ينتسب إلى جبال نبارى، وهي جبال بعيدة من قشتالة كان انحاز إليها من بقي من النصارى ساعة تغلب المسلمين على العدوة،

130- يورد ابن عثمان المكناسي هذه الرواية و لعله نقل فيها عن الغساني غير أنه يضيف بعض التوضيحات التاريخية المهمة و المتعلقة أساسا بما بعد هذه الواقعة وقصده من ذلك تصحيح بعض ما ورد خطأ عن الغساني فالأمر يتعلق بغرناطة أولا وليس بقرطبة. ابن عثمان، **الإكسير**...ص 177-178.

131 ساقطة من ن.ف

132- الدوك: Le Duc وغالبا ما نجد ترجمتها إلى اللغة العربية "دوق" أو "دوج" غير أننا نلاحظ أن المؤلف حافظ على صيغتها الإسبانية.

133 ساقطة من ن.ف

ويتفاخرون بالانتساب إلى تلك الجبال وما والاها، والذين بيدهم ولاية أو خطة من الخطط المخزنية من أهل هذا الجنس لا ينفرون من الانتساب.

فلقد لقيت يوما بمدينة مادريد رجلا أنسيت اسمه، وكان راكبا في كدش له ومعه جماعة من النساء صغارا وكبارا لهم (كذا) حسب و جمال، فوقف وسلم سلاما كثيرا وأظهر هو ومن معه من النساء بشرا وترحيبا فقابلناه بما يجب، وحين أراد الانصراف عرف بنفسه بأن قال: نحن من جنس المسلمين من نسل أولاد السراج. فسألت عنه بعد ذلك فقيل لي أنه من كتاب الديوان، وهو الذي يقرأ ما يحصل بالديوان من رقاع وعرض حال وشبهه. وكذلك أيضا كانت جماعة من أهل غرناطة لهم بغرناطة ولايات وأحكام و سكناهم بمدينة مادريد ترد علينا صحبة دون[134] الونصو الذي هو من عقب ملك غرناطة، وينتسبون إلى الجنس الذي كان بغرناطة وغلب عليهم الشقاء والعياذ بالله. ولقد كانوا يسألون عن دين الإسلام وعن أشياء منه، فحين يستمعون ما نجيبهم به عنه من الديانات وأحكام الطهارة التي بني الإسلام عليها وغير ذلك، يعجبهم ما يسمعون و ينصتون إليه ويشكرونه بمحضر النصارى و لا يعبأون بمن حضر. ولا يزالوا[135] مدة إقامتنا [بمدينة[136]] مادريد يكثرون التردد لدينا ويردون علينا المرة بعد المرة ويظهرون من المحبة والتحنن شيئا كثيرا، نسأل الله أن يهديهم إلى الصراط المستقيم ويرشدهم إلى الدين القويم.

مدينة ليناريس

ومن مدينة اندورخر إلى مدينة لينارس أربعة وعشرون ميلا، وعلى مسيرة ثلاثة أميال أو أربعة من مدينة اندوخر يفارق المار الوادي الكبير ويتركه يمنة عندما ينحدر من الجبال. ومدينة لينارس هي مدينة متوسطة أثرها أثر الحضارة قديما، وبها

[134]- في ن. ح : ضون
[135]- في ن. ح : لم يزالوا
[136]- ساقطة من ن. م

من بقايا الأندلس النزر القليل من سكانها، وبخارجها معادن كثيرة من الرصاص الذي ينقل إلى كثير من بلاد اصبانيا.

ولما أن وصلنا هذه المدينة [137] ورد علينا أهلها للسلام على العادة، وورد علينا جماعة من الفرايلية مسلمين علينا وطلبوا منا على لسان الراهبات أن نصلهم وننظرهم فوعدناهم من الغد. ولما أردنا الخروج من المدينة ضحوة طرقنا الكنبنط[138] الذي هن به، فدخلنا عليهن فوجدناهن في دار مجاورة لكنيسة بينها وبين الكنيسة شباك من نحاس، فينظرن منه الكنيسة ويسمعن الميسة[139]. وهن في غاية ما يكون من التحفظ والصون، منهن الصغيرة من سبعة أعوام إلى العجائز المتجالات وهن أبكار. وعادتهن في ذلك أن جميع من أحبت الترهب والتزهد تدخل الكنبنط المعد لذلك سواء كانت صغيرة أو كبيرة، بعد أن تحلف وتشهد على نفسها أنها لم توثر الدخول لذلك الموضع إلا بعد أن لم يبق لها في الدنيا إرب ولا غرض، ولا تتعلق لها شهوة في رجل ولا في نظر ولا في دخول ولا في خروج، فتدخل الكنبنط وتلبس من اللباس ما خشن، فإن كان لها مال يجرى عليها منه القسط، ومن ليس لها مال منهن تخدم غيرها وتعيش معها وتأكل من الحبس الموقوف عليهن.

وهذا الكنبنط المعد للراهبات ويسمونهن بالعجمية المنكاص[140] لا يدخله أحد من الرجال أصلا. وعليهن عجائز موكلات بهن، فإذا حصل بإحداهن مرض تتوقف فيه على الطبيب، يدعى لها الطبيب ويدخل عليها بعد أن يحطن[141] به أربع عجائز واحدة عن يمينه والأخرى عن يساره والثالثة من خلفه والرابعة أمامه، فيدرن به حين دخوله باب الكنبنط ولا يفارقنه حتى يخرج.

ودخول المرأة للكنبنط هو بمثابة موتها إذا لم يبق لها إرب في شيء من الأشياء[142] إلا من دخلت منهن صغيرة السن قبل البلوغ تبقى به إلى أن يستأنس منها

---

[137]- نفس الرواية بحذافيرها يوردها ابن عثمان، ابن عثمان، **الإكسير**،157-158.

[138]- الكنبنط: من الكلمة الإسبانية Convento وتعني الدير.

[139]- الميسةMisa: كلمة إسبانية تعني القداس في المسيحية وهي من الكلمة لاتينية أصلها من العبرية .

[140]- في ن. ح : المونكاص أي Monjas ومعناه الراهبات.

[141]- في ن. م : يحضر

[142]- في ن. ح : من الدنيا

البلوغ فتستشار حينئذ وتخير في أمرها ويلقى إليها أمر نفسها، فإذا آثرت ذلك الموضع وأحبته قالت لا إرب لي في الخروج ولا في التزويج بعد أن تخلى بينها وبين نفسها، يشهد عليها بقبول ذلك ويوخذ عليها العهود والمواثيق على مقامها هنالك لغرضها، وأنه لم يبق لها تعلق ولا تشوق ولا شيء من أمور الدنيا، وإن هي أحبت الخروج والتزويج لا تمنع منه وتجاب إليه. فمنهن من توثر المقام هنالك من أجل الألفة، ومنهن من توثر المقام بما يغلب على ظنهن أنهن على طرق قويمة ، ومنهن من تخاف السبة والعار بعد أن حسبت من الراهبات. والغالب على دخولهن إلى الكنبنط هو عدم وجود[143] الصداق الذي تعطيه المرأة على زواجها للرجل، ففي عوائدهم أن المرأة تدفع المهر من عندها، وصاروا يتغالون[144] في ذلك حتى آل إلى عدد كثير لا يقدر عليه إلا من له وفر ومال أو ميراث كثير، فصرن يدخلن هذا الموضع المعد لذلك حين لا يجدن اتساعا في المال. ومنهن من تكون من الأعيان والأكابر ذوي المال الكثير فتزعم أنها زهدت ورفضت الدنيا والرياسة وحب الكبيرة، وتدع كبيرتها ورياستها لغيرها من أخواتها وأهاليها وتدخل الكنبنط. والغالب عليهن أنهن أبكار [من آذانهن إذ البكارة لا تعرف ولا تشترط في الأورباويات[145]]. ومنهن من يحب أبوها وأمها صونها من الآفات الدنيوية وعار الأحدوثة النفسانية فيودعها هنالك بقصد التحفظ والصون، إلى أن يبلغ وقت تزويجها ويخرجها. كما رأيت في كنبنط للمونكاص الراهبات من مدينة إشبيلية صبية في غاية الحسن والجمال واعتدال القامة وصباحة الوجه لها أربعة عشر عاما أو ما يقرب منها ولباسها غير لباس الراهبات، فسألت عنها وعن سبب مخالفة لباسها لجميع الراهبات، فقلن أنها مودعة هنالك بقصد الصون والتحفظ إلى أن تتزوج، أودعها أبوها قبل أن تستكمل لبنها وهي ابنة عشرين شهرا.

---

[143]- في ن.ح ون.م ون.ف: وجدان

[144]- في ن. ح : يتغالين

[145]- ساقطة في ن. م ومن ن.ف ونعتقد أنها من إضافة ناسخ ن.ح خاصة وأنه استعمل لفظ "الأورباويات" وهي كلمة نحتت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

ولهؤلاء الراهبات مذاهب وطرق بعدة مذاهب الفرايلية وطرقهم، منهم جنس يسمى الامكالصوص[146] مذهبهم في الترهب أن لا يكسبوا ولا يخزنوا فلسا ولا دينارا، ومعيشتهم من الصدقات التي يزعم النصارى أنها صدقة. وكذلك في النساء الفرايليات جنس لهن في التزهد طريق ضيقة متعبة، وهي ساعة تريد المرأة الدخول للكنبنط المعروف لهذا الجنس يوخذ عليها العهود والمواثيق والإيمان أنها لم يبق لها غرض من الدنيا ولا في شيء من أمورها وألا تفتح عينها في أحد ممن هو ليس من أهل الكنبنط، حتى إذا أحب أبوها أو أمها رؤيتها تجعل على وجهها برقعا يمنعها من النظر فيهما[147]. وهن في غاية المهنة والتقشف بخلاف غيرهن من أهل المذاهب الأخرى. وحتى الشبابيك الموضوعة لهن بينهن وبين الكنيسة لسماع الكفر جعلت شبابك ضيقة جدا في موضع مظلم، وخارج الشبابك فيما يلي الكنيسة كلاليب وخطاطف[148] ومسامير كثيرة تمنع من القرب إلى الشباك مع ضيق عيونه لئلا يقرب أحد إلى الشباك، وقد جعل هذا الشباك صغيرا في موضع مظلم بحيث لا يرين منه ولا يرين[149].

ولقد طلب أهل هذا الجنس في مدينة كرمونة[150] رؤيتنا ورغب الحاكم منا قدومنا إليهن فوجدناهن على هذه الحالة، وهن في غاية التقشف [والتضيق،[151]] فحين جرى الكلام بيننا وبينهن وأردنا الانصراف، قالت واحدة منهن ما معناه سلكنا الله وإياكم مسلك النجاة والله ما عرفنا أين يسار بنا، فقلت لها إلى الجهنم وبئس المصير.

وهذا الجنس هو في غاية التقشف والترهب، وأما الغير فعليهن ضيق السجن وعدم الخروج والتزويج والتمتع في الملابس وغير ذلك من أحوال الدنيا، وإلا

---

[146]- ربما يريد أن يكتب دصكلصوص وهي طريقة رهبانية الحفاة Descalsos

[147]- في ن.ح: إليهما

[148]- في ن. ح : مخاطيف

[149]- في ن.ت: لا يرى من داخل ولا من خارج

[150]- في ن.ح : كرحونة. والصحيح كرمونة (قرمونة) ، ولعلها نقل للإسم كما في الإسبانية Caramona وإسمها اللاتيني القديم Carmo. تقع إلى الشمال الشرقي من إشبيلية. وكانت قرمونة من بين المراكز الإسلامية في العهد الإسلامي واستردها الإسبان سنة 1247.

[151]- ساقطة من ن. ح

فبينهن وبين الجنس المضيق عليهن بون بعيد ، وهن على مذهب الفرايلية في التقشف والاتساع. فمن الفرايلية من تجده جعل في يده تلك الخطة سببا وتحيلا على الدنيا وجمعها، فإن كانت له يد عند المخزن يقبض من وفر الحبس الآلاف زاعما أنها لمعاشه، ومنهم من جعل يده في تلك الخطة سببا للاستراحة من تعب الدنيا ومشقتها وتكفيه الراحة، ومنهم من جعلها في يده درقة يتستر بها لتقيه وتمنعه من كلام الناس، فلا يقدر أحد أن يتكلم في أحد من الفرايلية بعيب أو يلمزه بقبيح ولو شاهده وحققه، وهم الضالون المضلون المنكبون عن طريق الحق، فلقد ضلوا وأضلوا أخلى الله منهم الأرض وعمرها بدوام ذكره، وقد جر بنا الحال إلى ذكر هذا.

ولنرجع إلى ذكر مدينة لينارس التي رأينا بها الفرايليات و الراهبات، وهي كما قدمنا مدينة متوسطة أثرها أثر حضارة و أهلها أهل بشاشة، ومن بشاشتهم وعوائد إكرامهم إن اجتمعوا كلهم نساء ورجالا أتوا بآلة الطرب، و عادتهم أن يرقص منهم رجل وامرأة فحين يقوم الرجل يريد الرقص يتخير من يختاره من النساء صغيرة أو كبيرة ويزيل لها شمريره الذي على رأسه ويبايع لها، فلا يمكنها التخلف أصلا. و جل أهل هذه البلاد أناس ذوو فلاحة وحراثة و لم تكن دار تجارة و لا سبب لأنها غير معدودة من الحواضر.

و من مدينة ليناريس هذه إلى دشرة تسمى طيري كوان ابان،[152] وهي دشرة كبيرة أهلها إلى البداوة أميل، وبداوتهم شبيهة ببداوة بربرنا أهل الجبال الفحصية وما جاورها. ولقد خرجوا لملاقاتنا يوم ورودنا عليهم، وبيد نسائهم المزاهير والدفوف على عادة بربر بلادنا وغناؤهم مخالف لغناء أهل الحواضر من النصارى. ودخلنا هذه الدشرة المذكورة يوم رحيلنا[153] من ليناريس، وهو يوم انفصالنا عن البلاد المسماة بالأندلسية. ودخلنا مانشا، التي قدمنا ذكرها، وهي بلاد خشنة ذات جبال وأحجار ومسالك وعرة وغيض ملتفة وأشجار وأنهار يابسة لأن هذه البلاد

---

[152]- كتبت هكذا في جميع النسخ ويكتبها هنري بيريس Torre Juan Abad

[153]- في ن. ح : رحلنا

المسماة بمانشا هي بلاد يابسة جدا، ومنابتها الشيح وهي يابسة باعتبار الأندلسية، وإن كانت كلها قليلة المياه وترابها أحمر ومدائنها متبدية بخلاف الأندلسية.

مدينة شكلانة

ومن دشرة طيري كوان ابان، ومعنى الطري البرج، وصلنا إلى دار معدة لنزولنا قرب مدينة شكلانة، إذ كانت في سفح جبل منكب عن الطريق، وهذه هي عوائدهم في جميع هذه البلاد الأندلسية وغيرها من سائر بلاد العدوة. فعند كل مسافتين أو ثلاثة مسايف يجعلون فندقا أو دارا معدة لنزول الضيوف والمسافرين[154]، فإذا وصل المسافر إلى موضع منها ينزله ويجد هنالك من الطعام ما يشتهيه وما تبلغ إليه مقدرته كل على قدر سعته[155]، ويجد العلف لدوابه والفراش لنفسه، فيأكل ويستريح ويطعم دوابه إن كان نهارا، وإن كان ليلا فلا يحتاج إلا إلى الكلام والاستحكام فيما يحبه ويشتهيه، فإذا أراد الخروج من الفندق أو الدار المعدة لذلك تأتيه زوجة الموكل بالموضع أو ابنته بزمام في يدها وقد حسبت ما صيرته عليه من ثمن الطعام و العلف وكراء المسكن والفراش، فلا يمكنه إلا إعطاء جميع ما تحسبه عليه من غير مناقشة. وصاحب الفندق أو الدار قد تحمل ذلك بجعل معلوم للطاغية، فلا تجد أحدا من المسافرين في هذه البلاد يسافر سفرا قريبا كان أو بعيدا يبيت في فلاة الأرض أو يقيل حيث ما أدركه المقيل، وإنما سفرهم في وقت معلوم بحد معروف من كونه إذا ارتحل من الموضع الفلاني يعرف مقيله في الموضع الفلاني ومبيته كذلك في موضع معلوم، ولا يحمل المسافر مدة سفره زادا ولا شيئا من المأكولات ولا يحتاج إلا

[154]- يضع صاحب ن. ح هامشا يشرح هذه الظاهرة قائلا : : وصف ابن الخطيب السلماني الأندلسي هذه الخانات المعدة للنزول بالأندلس لعهده في مقامة البلدان له وصفا كاشفا صدر المجلس الأول منها، راجعه تستفد منه موافقة تامة لما ذكره صاحب الرحلة هنا، وتعلم أن خانات النزول قديمة العهد بالأندلس وأنها من آثار الإسلام ومن المدنية العربية ولا يد فيها للإفرنج بحال، وأنها كانت مستجمعة لكل ما يحتاجه المسافر في مبيته ومقامه من لوازم الحياة وضروريات الإنسان. ولك أن تقول أنها أصل للنوتيل – يريد أن يقول hotel- الأوروباوي الذي يفاخر به سواهم ولا فخر لهم في ذلك لا سابقا ولا لاحقا، فهم عالة على العرب والإسلام. ن،ح : هامش على الورقة 21.

[155]- في ن. ح و ن.ت : وسعه

إصحابه المال للنفقة. وملازمهم في النفقة كثيرة لغلاء الأسعار دائما، فتجد الرجل في بلاد اصبانية الذي يريد المعيشة من غير تدفق داخل أكل و شرب ويقتصد في معاشه من غير ترفق[156] ولا سرف[157]، فلا يكفيه مع اقتصاده ريال واحد، وأما من أحب التأنق في المأكل والمشرب فنفقته كثيرة وملازمه كثيرة.

ومع هذه العمارة وكثرة المداشر والقرى والمدن التي في اصبانية لا يقدر أحد أن يسافر وحده في مدة مسافات جبل [سير[158]] مرينة وجميع بلاد مانشا لما فيها من الخوف وكثرة اللصوص. فلقد كان النصارى الموكلون بنا في طريقنا حيث وصلنا هذه البلاد يستعدون ويتأهبون ولا يحبون أحدا من أصحابنا ورفقائنا يتقدم ولا يتأخر مخافة من الآفات، وإذا لقينا ثلاثة أناس أو أربعة نسألهم عن مرورهم بالعدة القليلة، فيقولون من مثل هؤلاء يخاف لأنهم إذا وجدوا غرة في هذه البلاد المخوفة يفعلون ما يفعله اللصوص ولا يعرف لهم عين ولا أثر، وأما المتلصصون فلم يكن منهم هنالك أحد يذكر إلا نادرا.

ولقد ورد علي[159] حين إيابي من مدينة مادريد بقرية طري كوان ابان رجل من قرية تسمى قوصرا، وبينها وبين الطري المذكور أميال، فرحب وسلم وذكر أن له مع دون ألونص حفيد ملك غرناطة محبة كثيرة وصحبة أكيدة، وزعم أنه كتب إليه من مادريد كتابا يلزمه فيه بمرافقتنا في هذا الموضع المخوف ويحضه على ملازمتنا مدة مسيرنا في هذه البلاد التي يتوقعون فيها شيئا من ذلك. وكان هذا الرجل المذكور ممن يعد من لصوص هذا الجبل، وله قوة وشجاعة، ذكر أنه لما كان يتلصص، بعث له يوما طاغية اصبانية سرية من ثلاثمائة رام يقبضون عليه، فاختفى لهم في ناحية من هذا الجبل[160] فلم يقدروا عليه إلى أن رجعوا فآب إلى داره بقوصرا، وهو الآن بداره غير خائف على نفسه ولا على مال، غير أنه يريد أمانا[161] من الطاغية يأمن به في نفسه

---

[156]- في ن. ح : ترف

[157]- في ن. ح : ولا إسراف. وفي ن. ت : من غير سرف ولا إسراف

[158]- ساقطة من ن. ح

[159]- في ن. ح : علينا

[160] في ن.ف : هذه الجبال

[161] في ن.ح و ن.م : أمنا

ويجعله في يده وقارا وأمانا، وأما هو في خاصة نفسه ليس عليه خوف من شيء. ولقد رأينا[162] عزائبه وخيله راتعة في فدادين من الأرض قرب المدينة ترتع وتسرح. ولقد حدث عن نفسه بما عمله في هذا الجبل من الأفاعيل في التلصص، ولقد أظهر اليوم رجوعا عن ذلك. وقال لي لو كنت متأهبا للسفر لقدمت معك إلى مولاي اسماعيل أطلب منه كتابا أحترم به إلى سلطان اصبانية ليكتب لي أمانا تطمئن به نفسي، وإن قدم من هذه البلاد بعد أحد فإني أصاحبه وأقدم معه. ولما أحب مرافقتنا التي بسببها قلنا له: لا نحتاج معك إلى مرافقة ورجوعك إلى دارك من هنا أوفق. وعزمنا على رده فأبى إلا المرافقة والمصاحبة، فتركناه إسعافا لغرضه وللصحبة التي [مت[163]] بها إلى دون الونص، فرافقنا يوما هو وصاحب له ورجع عنا بعد أن ألزمناه الرجوع والإياب إلى مقره.

نظام البنطات أو النزالات

وبهذه الفنادق المعدة لهذه الرفاق والمسافرين خيل معدة بقصد سفراء المخزن ورقاقيصه الذين يقطعون المسافات العديدة في الساعة الواحدة ، وذلك إذا قرب الرقاص من الموضع المذكور، ويسموهم بلسانهم البينطة[164]، يخرج له فرسا مسرجا ويلقاه به عند باب البينطة وبيده كأس من خمر وبيضتان من بيض الدجاج، يشرب ذلك ويبدل فرسه بالفرس الذي أحضر له، ويصحب معه وكيل الموضع رجلا آخر راكبا أيضا حتى إذا قرب من البنطة الأخرى نفخ في البوق الذي عنده المعد للإعلام، فلا يصل حتى يجد الفرس محضرا مع العادة التي يشرب من خمر وغيره، فيتناول

[162]- في ن. ح : رأيت
[163]- سقطت من ن. ح
[164]- وتكتب بالإسبانية Venta ومعناها نزل في أرض بعيدة عن العمارة، ويمكن أن نترجمها إلى اللغة العربية المغربية "نزالة".

الفرس الذي أتى به الرفيق الذي معه ليرده لربه[165] ويأخذ فرسا آخر ويصحب رجلا أيضا، وكذلك يفعل في كل مسافتين أو ثلاث، فيقطع المفاوز النائية والبلاد القاصية في اليوم الواحد.

ولقد كانت ترد علينا من مدينة مادريد، ونحن مقيمون بمدينة سان لوكار على البحر الكبير، رسائل الكردنال وأهل ديوان اصبانية لثلاثة أيام وتمر من ساعة تاريخها فنقضي العجب من ذلك مع أن مسافة ما بينهما أكثر من ثلاثمائة [ميل[166]] . وكذلك يفعلون في سائر بلاد العجم، إلا[167] أن الرقاص يحتاج في المسافة الأولى إلى خط يد المتوجه من عنده وأنه مرسل إلى البلاد الفلانية ليعطيه ما يحتاج إليه من مركوب ومرافق، فإذا أعطاه أول موكل من وكلاء البنطات صار ما يعطيه له بمثابة الكفيل والزعيم الضامن حذرا من أن يكون هاربا من فعلة فعلها أو شبه ذلك من الأمور التي يحذر منها وتلحق الوكلاء بسببها عقوبة أو تمكنهم في مثلها غرة، فلا يحتاج بعد المسافة الأولى إلى تعريف ولا إلى بحث، ومعلوم عندهم ما يعطى في كراء الفرس والرفيق على كل ساعة زمانية، وقد التزم الوكيل الذي على البنطة جميع ذلك وإحضاره بجعل معلوم يقبضه من الوكيل على شبه ذلك من المكوس ومحصولات الطاغية . فالرقاص يعطي ما يجب عليه في كل مسافة وصاحب الفندق يعطي ما يجب عليه في تخصيصه بذلك لالتزامه إياه على رأس كل سنة[168]. وأكثر محصولات العجم من المكوس وشبهها.

ومن هذه الدار القريبة لشكلانة إلى بينطة أخرى معدة الترول أيضا تسمى بينطة سان اندريس، يترلها المسافرون على العادة. وبالقرب منها قرى متصلة ومداشر عامرة، وقد ورد علينا أهل هذه المداشر رجالا ونساءا وورد حاكمهم، وله بنات

---

[165]- في ن.ت: ليرده لصاحبه

[166]- سقطت من ن. م

[167] في ن.م و ن.ح: ذلك

[168]- توسع ابن عثمان في وصف نظام البريد وإن لم تختلف المعلومات التي أوردها عن تلك الواردة هنا عند الغساني، والملاحظ أن معلومات ابن عثمان عن البريد تقع ضمن نفس الوصف الذي يقدمه الغساني لقرية منسنارس. ابن عثمان، **الإكسير...** ص75-76.
وإن كان يعود هو لوصفها بتفاصيل دقيقة عندما حل بمدريد. ابن عثمان، **الإكسير..**.ص 119-120.

كبار ذوات جمال وأولاد صغار أتى بهم على مسيرة ثلاثة أميال، وهم إلى البداوة أميل منهم إلى الحضارة لبعدهم عن القواعد من المدن والحواضر.

ومن هذه البينطة، على أربعة أميال، موضع فيه واد صغير وبينطة أخرى معدة للنزول وكنيسة يقصدها النصارى من كل موضع وقرية أو مدينة، ولهذه الكنيسة بستان عجيب فيه عين ماء عذبة، وهو في أرض فسيحة على قدر مرأى العين، وفي هذا الفسيح يعمر سوق مرة في السنة في اليوم الأول من شهر (بياض مقدار كلمة[169])، فيقصده المسافرون وأهل التجارة والسبب وينثالون عليه من كل حدب فيعمر في وسط هذه البلاد من غير عمارة بناء خمسة عشر يوما، ويتفرقون عنه فلا يعمر إلا بعد سنة في اليوم المعلوم من الشهر نفسه، ويسمونه بلسانهم الفرية[170] ومعناها السوق.

المنبريلية ومانسنارس

ومن موضع هذا السوق إلى مدينة تسمى المنبريلية[171]، وهي مدينة تدل على حضارة قديمة، وأكثر هذه المدن اليوم يسمى قرية[172] لتبديه وخلوه عن معنى المدينة وأثرها، حيث كان النصارى دمرهم الله لا اعتناء لهم ببناء الأسوار، وإذا خرب السور أو دثر لا يجددونه ولم يبق للمدن اسم إلا القرى. وأرضها فلاحة وحراثة وماؤها قليل جدا إلا ما كان ببساتينها وعراصها من السواني.

وبقرب هذه المدينة بقدر ميل مدينة أخرى تسمى مانسنارس[173]، وأجنتها متصلة بجنانات[174] المنبريلية وأكثر منها حضارة، فحين أشرفنا عليها لقينا أناس أعيان

---

[169]- وهو بياض في كل النسخ.

[170]- كلمة إسبانية معناها المعرض، وتطلق على الأسواق التي تقام بها المواسم والأعياد Feria

[171]- في ن.م : المنتبريلية Almenbrilla

[172]- في ن.ت: تسمى قرى

[173]- يضع صاحب ن. ح هامشا للتعريف بمدينة مانسنارس قائلا : :"سمى الغزال في رحلته مدينتين فيما بين مانساريس وموزا أحداهما أرينيا والثانية طنبليكا ولعلهما كانتا لعهد الغساني غير عامرتين ، وقد دل كلام الغزال على الأولى بها عدة حمر للنتاج عظيمة الهيكل مما يدل على أنها عدير وعزيب لا مدينة عامرة للسكنى ، ووصف

من أهل مدينة تسمى الماكر على تسعة أميال من مانسنارس، وهم أصهار النصراني الحلبي الترجمان الوارد من قبل طاغية اصبانية سفيرا، وردوا من مدينتهم المذكورة ونزلوا بدار رجل كليريك[175] هو ابن عم لهم.

والكليريك أيضا هو بمثابة الفرايلي في عدم التزويج، ولباسه [مخالف للباس الفرايلية وللباس غيره من النصارى. وهؤلاء][176] الكليركوس هم الذين يجعلون الميسات ومعناها الصلوات، ويخدمون في المساجد آلة الموسيقى و يقرأون كتب صلواهم بألحان وأصوات متنغمات، ومنهم من يختص لتحسين الصوت وترقيقه وتحسين نغماته. ولقد رأيت بمادريد عند الطاغية شابين خصيين من الطلبة وهما عنده بقصد القراءة في الصلوات مع الموسيقى بالألحان التي يستحسنوها. وهؤلاء القوم الذين وردوا من الماكر وهم من أعيان البلد ولهم هنالك وجاهة، وورودهم كان بقصد الملاقاة فسلموا علينا ورحبوا وانقلبوا بنا إلى دار ابن عمهم المذكور، وقد أعدوا دارا أخرى لنزول النصارى الذين في الرفقة معنا، وأنفقوا على ذلك جملة وافرة من المال.

وحين وصلنا المدينة وجدناها مدينة مليحة وبطرفها قصبة صغيرة حصينة لها سور شاهق وأبراج، ويدور بهذا السور سور آخر أقصر منه ويدور بالجميع حفير ممتنع في أحسن ما يكون، والمدينة بنفسها لا سور لها. فدخلنا دار الكليريك المذكور، وفرح بنا فرحا كثيرا وأرانا جميع ما عنده من الصور وما في معناها إذ كان معجبا بها، وكثيرا ما تضرع ورغب في أن نساعفه في شرب شيء من الخمر، وأطنب في شكرها[177] وزعم أنه قدم عنده وله سنون عدة، فقلنا له لا يحل ذلك في ديننا ولا يسوغ في ملتنا، فجعل يشفق من شربنا الماء البارد صرفا. وبتنا عنده بعد أن أحضر

المدينتين بالبداوة والإقلال . قال الغزال في رحلته إلى إسبانيا في وصف منسناريس مدينة بدوية هي بين الكبر والصغر. راجعها فقد أطال الكلام على أهلها وما قابلوهم به من البرور والمسرة. ن.ح، هامش على الورقة 24

[174]- في ن.ت: جنينات

[175]- كليريك بالقاف المثلثة آخر الكلمة في ن.ح

[176] ساقطة من ن.ف

[177]- في ن. م : شكره.

من يقرب إليه من النساء كبنات عمه وأخواته حيث كان أعزب، ومن الغد خرج معنا بنو عمه للتشييع إلى أن برزوا خارج المدينة ورجعوا إلى ديارهم [وبلادهم][178].

مدينة مورا

ومن هذه المدينة المسماة مانسنارس إلى مدينة [179]تسمى مورا، ومعناها المسلمة و سبب تسميتها بذلك –والله أعلم– أنها ربما تأخرت عن جيرانها[180] من المدن بشيء ما في التنصر. وفيما بين المدينتين من الكروم ما لا يحصى ولا يعد، إذ جل ذلك اليوم سرنا بين بساتين الكروم إذ لم يكن في جل هذه النواحي شيء من الأشجار عدا الكروم، وذلك لقرب المسافة بين أهالي هذه النواحي وبين مادريد، أكثروا من غرسه لما يستعملونه من الخمور[181] دائما في كل حين من أحيانهم وعند أكلهم، وأكثر شربهم الخمر فقلما تجد من يشرب الماء في جميع هذه البلاد، ومع هذا وكثرة استعمالهم الخمر فلا تجد أحدا منهم ثملا ولا مسكرا ولا مغيب العقل، والذي يشرب منه الكثير حتى يصل منه إلى السكر يزيف ولا يعد عندهم شيئا أصلا. وهذا الخمر الذي يشربونه منهم من يمزجه ومنهم من يشرب منه شيئا قليلا صرفا، ولكثرة استعمالهم إياه وكثرة [عمار[182]] مادريد بأهلها وقصادها للسكنى والعمارة والتجارة يباع بها الخمر بأغلى ثمن، ويعطى عليه مكسا بباب المدينة ثلثا قيمته ولا يعبأون بذلك لعدم استغنائهم في سائر أوقاتهم ولاستعمالهم إياه جميعا رجالا ونساء وصبيانا ذكرانا وإناثا خصوصا وعموما ورهبانا وقسوسا وشمامس وفرايلية وغيرهم، بحيث لا يدع أحد شربه ولا يستغني عنه.

---

178 ساقطة من ن.ح ومن ن.م

179- لا يسميها ابن عثمان بالمدينة بل بالقرية ويلح على طابعها البدوي. وهو نفس الطابع الذي يؤكد عليه قبله الغزال عندما قال: "... وسكانها أهل بادية."

- ابن عثمان، الإكسير...ص150-151.

- الغزال، نتيجة... ص109.

180- في ن. م : جرانها

181- في ن.ت : ليعصرونه خمرا ويشربونه

182- في ن. ح : عمارة

وبلاد مورا[183] هذه مدينة متوسطة إلى الصغر أقرب وهم (كذا) بمثابة أهل مانسنارس من الحضارة ومثلهم. وحين خرجنا من مدينة مورا بعد مبيتنا بها ليلة، وسرنا نحو خمسة عشر ميلا وصلنا إلى واد كبير، يسمونه وادي طاخوا[184]، وهو المار بمدينة طليطلة وهو على يسار المار من طريقنا هذه بنحو ستة أميال، وتظهر المدينة من هذا الموضع على بعد مرأى العين، إذ هي في ربوة من الأرض على هذا الوادي المذكور. وبهذا الموضع من الوادي الذي مررنا به دار كبيرة للطاغية ينزلها حين صيده بهذه الوادي وحوزه، إذ عن يمين المار من جانبي الوادي غياض وأشجار ملتفة وهي ممنوعة محمية بقصد اصطياد الطاغية وقنصه، فلا يقدر أحد على الدخول إليها[185] ولا على الاصطياد بها. وحيث كانت هذه الطريق هي الممرور عليها لمدينة مادريد ولقشتالة وغيرها، ولم تكن على هذا الوادي قنطرة للعبور جعلوا بها خشبا كبيرة ملصقة بعضها لبعض وربطوا بها حبالا من العدوتين، فإذا وردت القافلة أو الجماعة من الناس أو الكدش أو الغليرة ذات القراريط[186] يقرب المركب إلى شفير الوادي فتطأ عليه الدابة من غير تعب ولا مشقة ويجذب المركب إنسان واحد من العدوة الأخرى، فلا يشعر الإنسان وهو في كدشه أو على دابته إلا وقد عبر النهر وحصل في العدوة الأخرى بسهولة، وعلى ذلك جعل قليل لا بال له. وهذا الوادي هو بهي المنظر رحب الفناء فسيح الأرجاء عليه من البناءات والقرى والأرحية شيء كثير، وعليه من المزارع ما لا يحصى، ويصاد بهذا الوادي السمك إلا أنه قليل جدا.

ومن هذا الوادي على مسيرة ستة أميال قرية تسمى بنكص، وهي قرية بدوية لا حضارة بها، وأهلها الغالب عليهم البداوة، وبها كان مبيتنا يوم مرورنا بهذا الوادي.

---

[183]- في ن. ح : انطاخوا و هي تحريف لوادي Tajo الذي عرف عند العرب بوادي تاجة ويلاحظ أن ابن عثمان استعمل نفس الرسم عندما كان بصدد وصف طليطلة. ابن عثمان، **الإكسير..**ص146.

[184]- وضع ناسخ ن. ح هامشا ورد فيها ما يلي: "من جبال قرطبة جبل مرين قديم العهد بهذه التسمية وهو أصل في انتساب مدينة مرينة ومورينو إليه، فاعرفه. قاله مقيده محمد بن علي، وفي الأندلس مدينة تسمى مرينة من بلاد شرق الأندلس ذكرها صاحب الذخيرة في صفحة 65 وإليها ينسب أولاد مرينوا على عهدنا بالرباط" ن.ح، و.25

[185]- في ن.ح : عليها

[186]- في ن. ح : الكراريط وكلاهما صحيح، فهما جمع عربي للكلمة الإسبانية Carreta وهي عربة ذات عجلتين مخصصة في الغالب لنقل الأحجار ونحوها.

مدينة خطافي

ومنها رحلنا اليوم الذي دخلنا فيه مدينة مادريد إذ بينهما عشرون ميلا.
وفيما قبل مدينة مادريد على ستة أميال مدينة كبيرة تسمى خطافي[187]، وهي كبيرة جدا إلا أنها حيث كانت قريبة من حاضرة مادريد، وصارت مادريد بهذا الزمان هي الحاضرة وبها استقر طواغي اصبانيا لهذا العهد، انتقلت حضارة هذه مدينة خطافي وغيرها من جميع حواضر اصبانيا إلى مادريد. فوصلنا إلى مدينة خطافي هذه عندما انتصف النهار، فلقينا بها رجل من أعيان خدام الطاغية يسمى كرلوس دو القشطيلي، ويلقب بالقند راكبا في كدش للطاغية نفسه، وقد وجهه للملاقاة إذ هذا القند هو المعين عنده للقاء الوفود الواردة عليه من ممالك أخرى إسلامية و غيرها، وهذه هي خطة هذا القند لا غير، وله عليها من المراتب ثلاثة آلاف ريال عن كل سنة[188].
فحين لقينا ترجل وسلم نائبا عن عظيمه، وأركبنا في الكدش الذي أتى به بعد أن رحب وأظهر من البشر ما أظهر، وسار بنا قاصدا مادريد، فحين قربنا منها بقدر ميل رأينا خلقا كثيرا برزوا للملاقاة منهم صاحب الكدش و المترجل والفارس وغيره.
فوصلنا إلى المدينة وإذا هي على ربوة من الأرض في شفير واد كبير ينحدر من جبال كثيرة الثلوج هي الفاصلة بين هذه البلاد وبين قشتالة المعروفة بقشتالة قديمة، ومادريد هي في قشتالة التي يسمونها قشتالة الجديدة. وهذا الوادي هو كثير المياه زمان البرد لما يحصل بهذه الجبال المذكورة من الثلوج، ويسمى هذا الوادي ماسنارس وعليه قنطرتان كبيرتان إحداهما مبنية أحسن بناء والأخرى كان خربها السيل[189]، وهم الآن يجمعون

---

[187]- في ن. ح : خطاف

[188]- يضع صاحب ن.ح هامشا يورد فيه: " راتب كاتبه اليوم 3240 ريال وهو أعظم منه والحمد لله"

[189]- كانت مدريد تعاني بين الفينة والأخرى من فياضانات Rio Manzanares الذي يخترقها، وقد كانت سيوله متعددة خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر.

الإقامة لبنائها، وقد بنيت سواريها وجعلوا عليها خشبا وثيقة يعبر عليها الكدش والقراريط وغيرهما (كذا) وسائر الناس.

مدينة مدريد

فدخلنا المدينة، وإذا هي مدينة كبيرة جدا مليحة البناء واسعة الفناء فسيحة الأرجاء وبها من الخلق عدد كثير، فلقينا بها من الأسارى وهم فرحون مسرورون. معلنون بلفظ الشهادة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والدعاء بالنصر لسيدنا المنصور بالله تعالى، وصبيان النصارى يقولون مثل قولهم. ولقد مررنا حين دخولنا على دار الطاغية، فرأيناه وهو واقف في طاق ينظر من وراء الزجاج، فقيل لنا هو ذاك، والأسارى معنا على ما هم عليه. ومر بنا في أزقة واسعة كلها مفروشة بالحجارة إلى أن وصلنا دارا هي بقرب دار الطاغية، وهي دار كبيرة معدة عنده لنزول من يرد من بلدان بعيدة من غير جنس النصارى، إذ عوائدهم في ذلك أن ينزلوا عنده ثلاثة أيام وينظرون لأنفسهم ديارا يسكنونها، حيث كانوا يردون بقصد المقام والسكنى، فإن من عوائد ملوك العجم أن يبعثوا إلى ملوك أمثالهم مراسيل يسمونهم الانباشادوريس[190]، يكونون هنالك وسائط بينهم وبين الملوك فيما يعرض لبعضهم عند بعض المخاطبات وغيرها. ومن ورد من غير هذه الأجناس هو ينزل في تلك الدار إلى أن ينصرف مثل وفود الترك[191] التي وردت على اصبانيا فيما قبل منذ أربعين عاما، زعموا أنها من اسطنبول والصحيح أنها كانت من عند بعض السفهاء الذين يريدون التخليط على ملك القسطنطينية.

---

[190]- الأنباشدوريس: تعرض ابن عثمان لوصف هذا النظام واستعرض كافة البلدان التي كان لها ممثلين بمدريد، يقول ابن عثمان:" هؤلاء يردون بقصد المقام بديارهم وسائط بين ملوكهم والطاغية فيما يعرض لأحدهما عند الآخر، فيقيم أحدهم العشرة أعوام أو نحوها ويأتي من يخلفه" وقد ميز ابن عثمان بين"النبشدوريس دي فميلية" والسفراء الآخرين. ابن عثمان، **الإكسير**...ص96..

[191]- لا توجد أي سفارة تركية إلى إسبانيا قبل سفارة واصف أفندي التي تمت خلال سنة 1787، يراجع مقالنا: مسلمان في مدريد خلال القرن الثامن عشر، **في السفر في العالم العربي الإسلامي** ، **التواصل والحداثة**،تنسيق عبدالرحمن المودن وعبدالرحيم بنحادة، منشورات كلية الاداب والعلوم الإنسانية الرباط، 2003، ص.ص 47 - 66

وفيما قبل هذا بثلاثة أعوام ورد وفد من بلاد مسكوبيا، وهي بلاد بعيدة في ناحية القطب الشمالي، وردوا على عظيم اصبانيا يخطبون من أمه ابنة أخت لها في بلاد ألمانيا، أراد ملك مسكوبيا تزويجها، فحيث لم يرغب أهلها في تزويجه إياها أسندوا أمرها إلى خالتها ودفعوهم إلى اصبانيا، وذلك هو سبب قدوم وفد مسكوبيا إلى هذا الطاغية فيما ذكر.

وحين دخلنا هذه الدار وجدناها دارا كبيرة وقد شحنت بالفرش والتعاليق وجميع الإقامة، ووجدنا بها فيما كان يعمرها وهو من خدام الطاغية الموكلين بفراشه، فأدى إلينا سلام ملكه بعد ترحيب كثير، وأقمنا هنالك اثني عشر يوما.

وكان دخولنا مادريد عشية يوم السبت [السابع[192]] من شهر ربيع النبوي[193]، وفي مدة الإثني عشر يوما[194] كان يرد علينا من قبل الطاغية القند الموكل بنا وقيم الدار وأعيان آخرون صباحا ومساء نائبين عن عظيمهم في السلام، ويقولون أنه أراد استراحتكم من تعب الطريق، وهو يتهيأ لملاقاتكم ويستعد لدخولكم عليه استعدادا كثيرا ويتأهب تأهبا كبيرا. وحين كملت الإثني عشر يوما قدم علينا القند الموكل بنا يعلمنا بتهيأ (كذا) عظيمه للملاقاة وبدأ يستفهمنا عن حال سلامنا ليخبره به قبل دخولنا عليه لكونه لم يتقدم له قبل ملاقاة مع أحد من أهل ملتنا أعزها الله تعالى، فأخبرناه بسلامنا من بعضنا على بعض وبسلامنا على غير أهل ديننا وأنه قول السلام على من اتبع الهدى من غير زيادة عليها.

فانصرف عنا مخبرا له بذلك، فقضى العجب من السلام الذي أخبره به من كونه لم يعتد ذلك، و لم يمكنه إلا قبوله حيث عرف تصميمنا على ذلك وعزمنا عليه من غير زيادة . فانقلب القند المذكور وبيده ورقة مكتوب فيها صفة الدخول و من

---

[192]- سقطت من ن. م

[193]- وهو ما يوافق10 دجنبر 1690.، ولا توجد أية إشارة إلى السنة في النسخ الأربعة المعتمدة، وكان البستاني قد وضع السنة بالأرقام.

[194]- الظاهر أن المدة التي كان على السفراء قضاءها قبل أن يستقبلوا من طرف الملك الإسباني تختلف حسب الظروف. ابن عثمان يذكر أنه انتظر 10 أيام. **الإكسير**...ص85. أما الغزال فقد صادف ظرفا عصيبا في إسبانيا ويتعلق الأمر بوفاة "أم الطاغية" إذ لم يستقبل إلا بعد انصرام أكثر من "الشهر بأيام قليلة" الغزال، نتيجة...ص 114 و ص 123.

بالباب من المعينين للقائنا ومن أمامهم لنكون على بصيرة في أمرهم، وقال إنه يلقاكم الميردوم[195]، ومعناه الوكيل، عند الباب الفلاني ومعه من الأعيان كذا وكذا ومعه من الشلطاظ أهل الوردية[196] كذا وكذا، وسيلقاكم عند الباب الفلاني الأعيان من الدوكيس وأمثالهم.

ومن الغد ورد علينا في وقت معلوم بعد أن هيأ عظيمه للملاقاة، وقصد بنا إليه، فوجدنا أهل المدينة وقد اجتمعوا كلهم نساء ورجالا، فلم نصل دار الطاغية إلا بعد جهد وعناء لكثرة ما اجتمع من الخلق. فحين قربنا من الباب لقينا الوكيل الميردوم ومعه من معه من الأعيان والشلطاظ، فسلم ورحب ودخل بنا الدار ويسموها بلاصيو [بلسانهم[197]] ومعناه المشور، فجعلنا نمر بالجماعات من الأعيان والأكابر فيسلمون ويقف كل منهم عند حده المعلوم له إلى أن دخلنا قبة كبيرة لقينا ببابها كاتب الديوان الكبير، وهو رجل كبير السن جدا بلغ منه الكبر أن انحنى، فلقينا أحسن الملاقاة ومعه جماعة من الدوكيس والقنديس. ودخل بنا قبة أخرى لها باب من هذه القبة، فوجدنا الطاغية واقفا على قدميه، وقد جعل في عنقه سلسلة من ذهب، وتلك هي عوائد ملوك العجم إذ هي عندهم بمثابة التاج، وعن يمينه طبلة من ذهب مرصعة أعدها ووضعها أيام مقامنا بعد وصولنا ليجعل عليها البراءة السلطانية إجلالا وتعظيما لمرسلها أعزه الله تعالى، وعن يمين الطبلة وزير له يسمى القند اسطابلي[198]، وهو وزيره الذي بيده الدخل والخرج والنظر في الدار في جميع أمور الطاغية الخاصة به وبعياله وداره، وهو من أعيان أهل الديوان. وعن يمين الوزير المذكور زوجة الطاغية ومعها من الضامات[199] وبنات الأكابر عدد كثير، وعن يسار الطاغية وزراء آخرون. فحين دخلنا عليه رحب وهش وبش ولم يقصر في الترحيب والإكرام، وسأل عن سيدنا المنصور بالله تعالى سؤالا كثيرا، وحين ذكره أزال شمرير[200] من

195- الميردوم Mayordomo
196 هو تحريف للكلمة الإسبانية Guardia أي الحرس
197- سقطت من ن.ح
198- Condestable وهو بمثابة الحاجب في النظام المخزني المغربي.
199- يقصد السيدات ، وهو جمع على الصيغة العربية للكلمة الإسبانية Dama
200- في ن. ح : شمريره

على رأسه إجلالا وتكريما فقلنا له بخير يحمد الله تعالى. وناولناه الكتاب السلطاني بعد تقبيله ووضعه على الرأس، وتناوله بيده فقبله وجعله على الطبلة المعدة له بعد أن رفع أيضا ما على رأسه. ثم بدأ يستفهمنا عن أحوالنا في الطريق وما لقيناه من تعبها ومشقتها، فقلنا له خيرا وجازيناه على فعله وعلى فعل خدامه الذين تلقونا في طريقنا، ففرح بذلك وأعجبه[201]. وبعد أن مر بنا الكلام قال الحمد لله على سلامتكم وسنعيد الكلام فيما أتيتم إليه وقتا آخر، وخرجنا من عنده وخرج معنا من كان معه للتشييع قاصدين محل نزولنا وموضع مقامنا.

والطاغية هذا رجل صغير السن له نحو ثلاثين عاما[202]، وهو أيضا أبيض اللون قصير القامة وجهه إلى الطول واسع الجبهة، واسمه كرلوس شكوند، ومعنى شكوند الثاني ويعنون به ثاني اسم كرلوس من سلفه. وأصله من افلانضس بلاد الفلامنك، وليس هو من نسل طواغي اصبانية الذين كانوا حاربوا المسلمين و تغلبوا على البلاد الأندلسية وقشتالة وغيرها من هذه البلاد دمر الله جميعهم وأخلى منهم الأرض وعمرها بدوام ذكره وتوحيده. وذلك أن طاغية من الطواغي الأول واسمه فرناند سانطي، وهو المتغلب على غرناطة ومن بقي بأحوازها من المسلمين كان قاطنا بقاعدة إشبيلية أعادها الله دار إسلام، ولما مات خلف ولدا يسمى فرناند باسم والده، ويلقب كاطولك، ملك بعد والده سنين قليلة، ومات[203] و لم يخلف ولدا ذكرا فملكت بعده زوجته زابيل، وهي ابنة ملك راغون، وراغون هي قاعدة من قواعد

---

[201]- تتشابه أوصاف السفراء المغاربة لطريقة الاستقبال، بيد أننا نسجل هنا ميل الغساني إلى الاختصار بالمقارنة مع ما نجده عند غيره من السفراء اللاحقين،فالغزال مثلا ينقل نص الحديث الذي جرى بينه وبين العاهل الإسباني ونلاحظه يسجل الإلحاح عليه في ضرورة متابعة خدامه لما جاء من أجله. الغزال، **نتيجة**،... ص128-129.

[202] - لم يجانب السفير المغربي الصواب بل كان دقيقا، فقد ولد كارلوس الثاني سنة 1661

[203]- يضع صاحب ن. ح هامشا بعنوان "لمحة تاريخية في تراجم ملوك الاصبان" ورد فيه ما يلي: فإنهم انقرضوا أصلا وفرعا وقطع الله دابرهم جزاءا عما فعلوا بهذه الربوع الأندلسية من المكر والخيانة والاستبداد والظلم للعباد والاعتماد على حولهم وقوتهم، والحقيقة أنهم أغمار حمر حيوانية في صورة أخس إنسان، فمثلوا الظلم بسائر مظاهره وأفظع صوره، فعاقبهم العليم الخبير بأن قطع نسلهم من الوجود وأبقى خبر ظلمهم المشهود إلى أن يقوم الناس من القبور واللحود. قال ذلك مقيده هنا محمد بن علي الدكالي السلاوي عامله الله بخفي لطفه بمنه" ن.ح ، ورقة 29

مدن هذه العدوة ودار ملك، وأقامت في ملكها سنين، وكانت تخرج وتدخل وتركب الفرس وتركض وتتصرف [تصرف[204]] الرجال.

اكتشاف أمريكا

وفي عهدها وزمانها عثر بعض رؤساء البحر من جنس اصبانية على بلاد من الهند[205] التي بيدهم اليوم، ورأى أهله فوضى وهم بمثابة الدواب ولا عدة لهم وإنما كانت عدتهم العيدان يركبون فيها حجرا من حجر الزناد ويقاتلون بها، فحين رآهم على تلك الحالة وعرف ما عليهم من الغرة والبلادة رجع إلى اصبانية فخبر الملكة زابيل بذلك، فجهزت له ثلاث مراكب وأصحبت معه خويلة ومدافع، فقصد ذلك الموضع الذي عينه ونزله، فحاربه أهل تلك البلاد فغلب عليهم وملكهم وقبض على ملكهم. و لم يزالوا يملكون في الهند بلدانا كثيرة وأقاليم متسعة يجلبون منها كل سنة ما يغنيهم. وبحصول هذه البلاد الهندية ومنفعتها وكثرة الأموال التي تجلب منها صار هذا الجنس الاصبنيولي اليوم أكثر النصارى مالا وأقوى دخلا، إلا أن الترف والحضارة غلبت عليهم، فقلما تجد أحدا من هذا الجنس يتاجر أو يسافر للبلدان بقصد التجارة كعادة غيرهم من أجناس النصارى مثل الفلامنك والإنجليز والفرنسيس والجنويز وأمثالهم، وكذلك هذه الحرف المهينة التي يتداولها السقطة والرعاع وأراذل القوم يتأبى عنها هذا الجنس، ويرى لنفسه فضيلة على غيره من الأجناس المسيحية[206]. وأكثر من يستعمل هذه الحرف المهينة في بلاد اصبانيا جنس الفرنسيس، وذلك حيث كانت بلادهم ضيقة المعاش والأرزاق و صاروا يتقلبون في بلاد اصبانيا بقصد الخدمة واقتناء[207] المال وجمعه، ففي أيام قليلة[208] يجمع أموالا

---

[204]- سقطت من ن. م و ن.ت
[205]- والقصد منها أمريكا.
[206]- في ن.ح : المسيحيين
[207]- في ن. ح : إنشاء
[208]- في ن. ح : قلائل

جمة، ومنهم من يرغب عن بلاده ويستوطن بهذه البلاد وإن كانت غالية الأسعار فإن مردها كثير. وجل هذا الجنس يعد نفسه من أتباع المخزن[209] أو من الجيش ويرفع نفسه عن خدمة الصناعة أو عن السبب والتجارة رجاء أن يعد من الكبار أو يورثها لخلفه إن لم يدركها. فإن من عوائدهم دمرهم الله أن جميع أهل الصناعات والحرف والتجارات لا يركب في الحاضرة التي بها الطاغية كدشا، وإذا أحب أحد منهم الكبيرة أو القرب من المخزن ليعد من أتباعه، يترك هذه الأسباب التي يعير بها من الحرف رجاء أن يلحقها عقبه من بعده، وأما هو في خاصة نفسه فلا يدركها ولو سعى فيها ما سعى إلا إذا كان تاجرا ذا مال كثير من التجار الذين لا يرفعون ميزانا ولا يجلسون في دكان مثل التجار الكبار الذين لهم المتاجر العظيمة والأموال الجسيمة التي أغنتهم عن البيع والشراء في الحوانيت والأسواق، فإن هذا يلحق الكبيرة مع تركه للتجارة وعدم التفاته إليها أصلا. والكبيرة عندهم هو أن يعمل على كتفه صليبا في ثوبه المدثر به برقم معلوم عندهم، وهي درجة كبيرة لا يدركها إلا من له قدم في النصرانية ويعد لنفسه فيها سبعة أجداد بإشهاد من نصارى كل زمان، وأنهم يعرفون أباه وجده وسمعوا من غيرهم من كبار سنهم أن فلانا من ذرية فلان هو نصراني بن نصراني إلى السابع من أجداده، ليس في أحد منهم لمز ولا شائبة لمعة ولا تهمة يهودية أو غيرها ممن ليس هو بمسيحي، فحينئذ يومر بعمل الصليب على كتفه بعد أن يعطي عليه أموالا لأهل الديوان وبعدهم للفرايلية الذين يعطونه الإذن فيه أيضا، ويكون على مذهبهم وطريقتهم الضالة. وهذه العلامة الصليبية لا يلحقها كما قدمنا إلا من الذين لهم عراقة أصل في النصرانية أو الذين هم من جنس الأندلس وكانوا أكابر قومهم وتنصروا لأغراضهم فأعطوا حينئذ تلك العلامة، هي دالة على عراقتهم في الأصالة لعهد إسلامهم وعلامة على كبيرتهم في هذا الدين الفاسد والعياذ بالله.

---

[209]- بالرغم من أن الغساني استطاع في كثير من الأحيان تدبير الاختلاف إلا أنه سقط من دون شعور في إسقاطات من قبيل استعمال لفظة "المخزن".

ملوك اسبانيا

ولنرجع إلى ذكر التعريف بهذا الطاغية ونذكر سلفه ومن أين حصل له ملك اصبانيا وغيرها كبلاد افلانضس [ونبلطان[210]] وسائر عمالته التي تحت ولايته. فهو -أخزاه الله- كرلوس شكوند بن فلب كوارط بن فليب طريسير بن فليب شكوند بن كرلوس كينط بن فلب الموص. وفلب الموص هذا هو قند عظيم من أهل فلانضس وله بها ذكر وصيت وولاية، وحين توفي فرناند كاطولك القاطن بإشبيلية كما قدمنا ذكره ولم يخلف ولدا ذكرا يلي ملك أبناء جنسه من بعده، وملكت بعده زوجته زابيل، وكان لزابيل هذه ابنة تسمى كوانا زوجتها من قند فلانص المسمى فلب الموص، ومعنى الموص عندهم هو الشباب الحسن، إذ كان يضرب به المثل عندهم في عصره بحسنه وجماله، فصار بسبب ذلك علما عليه الموص. ولما ماتت الملكة زابيل وكانت ابنتها من الملك فرناند متزوجة في فلانضس بعثوا إليها لترث ملك سلفها، فقدمت ببعلها فلب الموص ولها منه ولد صغير يسمى كرلوس كينط، ومعنى كينط الخامس، ويعنون به خامس اسم كرلوس باعتبار من تقدم من سلفه مسمى بهذا الاسم، وإلا فهو أول ملوك اصبانيا من هذا النسل الخبيث أخلى الله الأرض منه، وباعتبار أوليته يلقب حفيد حفيده باشكوند الذي معناه الثاني. فملكت ابنة فرناند ملك اصبانيا مع بعلها، ونشأ ولدها كرلوس كينط هذا داهية طاغية من طواغي الكفرة دمرهم الله، ذا بأس ومكر ودهاء وخبث، لم يوطن نفسه منذ نشأ وترعرع وكبر وفطن على دعة ولا على راحة، إلى أن ملك وحكم. فتقدم إلى تمهيد البلدان وتدويخها في جميع أقطار بلاد الكفرة المسيحية دمرهم الله، وسافر وحرك وساق الجيوش والمحال برا وبحرا، فلقد حسبوا سفراته البحرية فكانت تنيف على عشرين مرة[211].

---

[210]- سقطت من ن. ح

[211]- عن تحركات شارلكان ينظر:

وهو الذي تقدم إلى الجزائر بعمارة[212] كثيرة من السفاين والأغربة تنيف عن ثلاثمائة مركب، وقد حمل معه في مراكبه آلات البناء وإقامته من جيار وأحجار وفعلة وعملة، وأرسى عليها ليلا فلم يرعهم حين أصبح الحال إلا وبرج مطل عليهم في غاية التوثيق والتحصين، وقد نصب عليه المدافع والأنفاض وصار يهد بذلك جدرانهم ويخرب حيطانهم وديارهم وأسوارهم، وهم في غاية الضيق والمحنة وقد أشرف على أخذهم فأبى الله سبحانه إلا نصر دينه القويم ليظهره على الدين كله هيجان البحر وتلاطم أمواجه فغرق (كذا) جميع مراكبه التي قدم بها فلم ينج الطاغية إلا في سبعة مراكب بما حملت من القوم . وقاسى في البحر[شدة[213]، فهنالك ذكروا أنه قلع تاجه عن رأسه فرمى به إلى البحر][214]، وقال من أحب أن يلبس التاج فليتقدم إلى الجزائر يأخذها، وأفلت هو ومن حملته المراكب السبعة التي أفلتت.

وكرلوس كينط هذا هوالذي حاصر تونس أيضا[215] في عهده، بل في سفرته هذه التي حاصر فيها الجزائر[216][وفيها ملك الحلق المعروف عندهم بالمرسى وبقيت على حالها بيد النصارى دمرهم الله ما ينيف على الخمسين سنة فيما يقال إلى أن ورد إليها جيش من ملك القسطنطينية العظمى، وقدم معهم السلطان المرحوم بفضل الله الذي أكرمه الله تعالى بتلك الغزوة العظيمة بوادي المخازن مولاي عبد

Charles Quint, 1500-1558 : L'empereur et son temps, Sous la direction de Hugo Soly ; Wim Blockmans , Arles-Actes Sud , 2000. 529 ps.

[212]- الهجوم الإسباني على الجزائر و المقصود به ذلك الذي شنه شارلكان على الجزائر سنة 1541 ، ففي 13 أكتوبر 1541 تجمع الأسطول الأسباني في البليار للاستعداد لتوجيه حملة على الجزائر، وبعد عشرة أيام فقط كانت السفن الأسبانية تحاصر المدينة، وقد تكبدت القوات الإسبانية خسائر كبيرة قدرها المؤرخ الأسباني هاييدو ب 150 سفينة و 12000 رجل، ينظر عن وصف الهجوم واختلاف المصادر في الوصف:

Haedo, *Histoire des rois d Alger*, p. 115

Hammer, *Histoire de l empire ottoman*, T.V p. 346

مولاي بلحميسي، غارة شارل الخامس على الجزائر بين المصادر الإسلامية والغربية، في **الأصالة**،عدد 8(1972)، ص.ص 91- 111

[213]- في ن.ت : الشدائد

[214]- ساقطة من ن.ف

[215]- حصار تونس لعله المقصود به ذلك الذي وقع سنة1534

[216]- الظاهر أن الغساني لم يكن يعرف سنة الحملة على تونس فاعتبر تاريخ الحملتين على الجزائر وتونس واحد، والحال أن الحملة على تونس كانت قبل الحملة على الجزائر بسبع سنوات، كما يغيب عنه تاريخ استرجاع العثمانيين لحلق الوادي.

الملك[217] بن الملك مولاي محمد الشيخ رحمه الله كما عرف من خبره في مضانه، وبذلك الجيش الذي ورد معه من اصطنبول تقدم إلى المغرب لحرب ولد أخيه، السلطان بعد والده مولاي محمد بن عبد الله رحمهم الله[218]]. والبرج الذي بناه على الجزائر هو البرج المعروف اليوم عندهم ببرج مولاي حسن، وهو باق إلى الآن في غاية الإتقان والبناء، ومشرف على المدينة قريبا منها على قدر رمية مدفع، وهو على يمين الخارج من باب عزون.

ولقد دوخ في عهده أقطارا من بلاد الأندلسية وغيرها من بلاد افرانسية والامانية وبلنسية وغيرها، وهو الذي قدمنا ذكره إذ حارب ملك الفرنسيس وأسره وأتى به إلى مادريد وأطلقه بعد ذلك بفداء.

وكان من خبر هذا الطاغية أنه لما ملك جميع هذه النواحي من بلاد العدوة إلى أن ملك ألامانية. وكبر وكان له ولد يسمى فلب شكوند، ومعناه الثاني من هذا الإسم، باعتبار جده القند القادم من فلانضس [ولاه ملك اصبانيا وفلانضس وميلان، ولكرلوس أخ يسمى فرناند ولاه ألامانية][219] ولقبه بالانبرادور ومن نسله هذا الخبيث الموجود اليوم أهلكه الله وأخلى منه الأرض. وحين ولى ولده وأخاه ترهب ودخل كنبنط الفرايلية وصار من جملتهم وواحدا منهم، زعم أنه تزهد وترهب في مدينة تسمى بلاصينصيا من عمالة قشتالة على أربعة وخمسين ميلا من مدينة مادريد، وزوجته كانت قبل ترهبه زابيل ابنة ملك البرتقال أخت ساباستيان الخارج إلى برنا صحبة مستصرخه ولد مولاي عبد الله.

---

[217]- تلح معظم المصادر المغربية وتغالي في وصف مشاركة عبد الملك في استرجاع حلق الوادي (1574) باستثناء المؤرخ المجهول الذي يقلل من الدور الذي لعبه عبدالملك حيث يقول: "فانظر يا أخي إلى أهل هذه المملكة وأصحاب هذه السطوة هل يفتقرون إلى رأي عبدالملك أو يلجأون إلى رأيه وتدبيره أو قوته في أخذ حلق الوادي، إنما كان مهاجرا عندهم متمنعا عند الباشا علوج خوفا من أخيه مولاي عبدالله..." ينظر:

المؤرخ المجهول، **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية** تحقيق و تقديم عبد الرحيم بنحادة،ص.51-52 .

[218]- فقرة ساقطة من ن. م ومن ن.ف.

[219]- نقل ناسخ ن.ف هذه الفقرة خطأ وهو ما أثر على مضمون النص حيث ينقل ما يلي: "وكان له ولد يسمى فليب شكوند ومعناه الثاني من هذا الاسم باعتبار جده القند القادم من فلانضس ولاه الامانية ولقبه بالانبرادور".

ولما أن ملك فلب شكوند هذا، و كان طاغية من أخبث أهل زمانه، وحرك أيضا إلى البلدان وحاصر قاعدة من قواعد مدن الفرنسيس ونصب عليها المدافع والأنفاض رجاء أن يهدها، فزعموا أن كنيسة بالمدينة التي كان حاصرها تنسب إلى راهب يسمى لرينص الريال حالت بين المدينة وبين رماية المدافع، و لم يحدث في المدينة شيئا، فحين طال حصاره عليها و لم يكن بد من هد الكنيسة المانعة له من أن يصيب المدينة نزر أن يبني كنيسة أخرى أعظم منها وينسبها إلى اسم لرينص[220] هذا، فنصب المدافع قبالة الكنيسة وهدها وأصاب منها المدينة، وحين رجع بنى الكنيسة[221] التي نزر على نفسه بناءها وهي المسماة عندهم بالأسكريال. والأسكريال هذا هو في سفح الجبل القريب من مادريد وهو من البناءات الهائلة وسنذكر وصفه في محله إن شاء الله.

معركة وادي المخازن

وفلب شكوند هذا فيما زعموا أنه كان اجتمع بخاله ساباستيان طاغية البرتقال الذي خرج إلى بلاد المغرب في عهد السلطان مولاي عبد الملك ابن السلطان مولاي محمد الشيخ صحبة مستصرخه ولد مولاي عبد الله، وكان فلب هذا لما أن سمع [بخبر[222]] خروج خاله إلى بر المسلمين، تقدم إليه وتكلم معه في ذلك فأشار عليه بالجلوس وألا يورط نفسه في بلاد الغرب ويدافعه بما أمكن، ولا يحمل نفسه على صرخته لعدم معرفته بالبلاد ولخروجه عن وطنه إلى وطن آخر ليس هو له، وأن لا قدرة له على مقاومة المسلمين إذ ذاك لوجود الملك بالمغرب. وزعموا أن المستصرخ كان يستظهر له برسائل من بعض قبائل الغرب وأنهم من حيزه وحزبه، فأبى مع ذلك طاغية البرتقال إلا تماديا على رأيه و لم ينصت لنصيحة ابن أخته ولا إلى

---

[220]- في ن.ت : لينص الريال.
[221]- ويقصد ما يعرف الآن ب Real monasterio de San Lorenzo del Escorial.
[222]- سقطت من ن.ح

قوله، فقدر الله تعالى للمسلمين في خروجه غزوة عظيمة، لم يعهد مثلها منذ زمن كثير. وفي يوم هذه الغزوة المباركة توفي السلطان عبد الملك بمرض كان لزمه في طريقه حين قفوله حاركا إلى النصارى حين سمع بخروجهم، والنصارى يذكرون شجاعته وقوته ويقولون إنه كان يقاتل بسيفه مع مرضه إلى أن غلبه المرض ومنع من القوة الحاملة له على القتال فمات رحمه الله. وفي ذلك اليوم مات ولد أخيه محمد بن عبد الله قتيلا وقتل ساباستيان ومات جميع من كان معه من النصارى و لم يفلت منهم إلا النذر النادر الذي لا يعد لتزره وقلته.

وكان عدد النصارى على ما هو معروف عندنا ثمانين ألفا، والنصارى يزعمون أن مبلغ الجيش الذي كان مع ساباستيان في خروجه ذلك ثمانية عشر ألفا[223]، فمن جنسه البرتقال اثني عشر ألفا ومن الإنجليز ثلاثة آلاف [أتوه مددا لصلح ومهادنة كانت بينه وبينهم ومن الاصبنيول ثلاثة آلاف][224] أمده بها ابن أخته فلب شكوند، والصحيح ما هو مقرر عند المسلمين من العدد المذكور. وبسبب عدم قبول طاغية البرتقال نصيحة ابن أخته وتوريطه نفسه في بلاد الغرب ينسبونه إلى الحمق ويلمزونه بخفة العقل.

وتلك الغزوة المباركة هي سبب تضعيف الجنس البرتقالي إلى اليوم دمره الله، وحين قتل ساباستيان ووقع في جنس البرتقال ما وقع لم يكن لطاغيتهم ولد يلي الملك من بعده، وكان له فيما يزعمون أخوان أحدهما كردينال والآخر ولي بعده أياما قلائل ومات عن غير عقب، فحين انقطع نسل ملوكهم بموت هذين ورث فلب شكوند ملك البرتقال من جهة أمه زابيل على طريقة قوانينهم ومذاهبهم في وراثة الملك للمرأة إذ لم يكن ذكر.

[223]- كانت وقعة وادي المخازن وعلى غرار المعارك الأخرى حربا للأرقام أيضا. ينظر مقالنا: وثيقة عثمانية حول معركة وادي السبيل 4غشت 1578: المساهمة والتأويل، في **هسبيريس تمودا**، (1993)، ص.ص 23-33

[224]- ساقطة من ن.ف

ثورة الموريسكيين

وفي زمان فلب شكوند هذا ثار من بقي من جنس الأندلس بعد تغلب النصارى عليهم بغرناطة وأحوازها[225]، إذ كانوا سمعوا بورود مراكب من الجزائر[226] التي أتى بها حبيب رايس، ونزل بحوز المرية ظنا منهم أنه يمنعهم، فحمل من قدر عليه في مراكبه من أهل المرية وما والاها، وعبر إلى بلاده فعجز الثوار من الأندلس حينئذ عن مقاومة النصارى، فأوقعوا فيهم السيف، وتنصر من تنصر منهم رغما بعد ما هرب من هرب، وبقوا على ذلك نحو من أربعين سنة إلى زمن فلب طرسير ولد فلب شكوند وهم على حالهم من التنصر والتغلب عليهم. فزعموا أن ملك [الترك[227]] كتب حينئذ كتابا[228] إلى وزير فلب طرسير يطلب منه أن يتسبب في إخراج من هذه العدوة من بقايا الجنس الذي غلب عليه ويتخذ بذلك عنده يدا وصحبة[229]. فاحتال الوزير بأن أشار على مخدومه بإخراج البقايا من الأندلس بينهم وبين دينهم عهد قليل، وما زالوا إلى الآن جلهم في قيد الحياة، وعددهم أكثر من عدد النصارى ولا نأمن من ثورتهم مرة أخرى فالأولى أن يجلوا من هذه العدوة وتحسم مادتهم ويعبر بهم البحر ليتفرقوا في البلاد البربرية، وبقاؤهم في بلادهم التي ربوا فيها محذور. فقبل الطاغية من وزيره ما أشار به عليه وأمر بجمعهم وعبورهم البحر إلا من كان تنصر لغرضه، وهم أكثر عددا ممن تنصر رغما أو اختفى تحت أحد أو امتنع بأحد و لم يعلم

---

[225]- يقصد ثورة 1568

[226]- تعددت الإشارات في الوثائق الإسبانية إلى المساعدات العثمانية لثورات الموريسكيين بالأندلس. أما الوثائق العثمانية التي تم الكشف عنها لحد الآن فلا تتعدي الوعد بالمساعدة. ينظر:
Hess (Andrew), "The Moriscos : An Ottoman fifth column in the sixteenth century", in *American International Review* (1968), 1, pp. 1- 25.

[227]- سقطت من ن. ح

[228]- لا نعتقد أن السلطان العثماني كانت له يد في طرد الموريسكيين من الأندلس، وكل ما نتوفر عليه حول هذه القضية رسالة وجهها أحمد الأول (1603-1617) إلى دوج البندقية لتسهيل عملية مرورهم، يراجع: التميمي عبدالجليل، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، في **المجلة التاريخية المغربية**، عدد 23-24، ص.ص 187-204.

[229]- يتعلق الأمر بعملية الطرد الجماعي التي تعرض لها مسلمو الأندلس سنة 1609

به، وعلى كل حال فحيث كانوا كثيرون لم يكن الاستقصاء في تفتيشهم في جميع العدوة لاختلاطهم ونسياهم الإسلام. وجل الخارجين في ذلك العهد من العدوة من أهل غرناطة وأحوازها من الثائرين وكانوا عددا كثيرا.

والنصارى، بسبب إشارة الوزير على عظيمه بإخراج من أخرج بعد تنصرهم ودخولهم دين النصرانية بهذا العدد، يلمزون الوزير باليهودية لعدم نصحه لدينهم بإخراج هذا العدد بعد أن حسبوا نصارى.

الانكسيثيون أو التفتيش

ولمز بعض النصارى باليهودية كثير، وبسبب ذلك لهم بمادريد ديوان فيه من علماء ملتهم عدد كثير وكلهم من ذوي السن الكثيرة، يسمون ديوانهم الانكسثيون[230] يبحثون عمن فيه لمز من يهودية، ولو بأدنى سبب فيقبضون عليه ويجعلونه في السجن بعد أن يأخذوا ماله وجميع متاعه وذخائره فيقتسمونه بينهم من حينه ويتركونه في السجن سنة ويسألونه حينئذ عما هو ملموز به، فإذا أنكر يقولون له علامة صدقك هو أن تخبر من وشى بك واتهمك، فيعد لهم واحدا واحدا إلى الثالث فإن كان الواشي[الذي وشى[231]] به أحد الثلاثة الذين سماهم، ويقول أن فلانا كان بيني وبينه عداوة في زمن كذا من أجل كذا وصدق فيه ظنه وتوهمه يجد بيده حجة للخصام والذب عن نفسه، فيطول خصامه مع هذا الديوان إلى أن يتناسى ما نسب له، ويريد مع ذلك خلاص نفسه فقط فهنالك يخرج. وإن ثبت عليه ما اتهم به أو أمر على نفسه، يلزمونه الخروج عن دين اليهودية والدخول في دين النصرانية، فإن هو رجع عنها ودخل دين النصرانية يخرجونه ويطوفونه و يعبرون[232] به في الأسواق، ويجعلون له على كتفه صليبا أصفر، يكون ذلك اللون هو إشارة كونه من اليهود

230- في ن. ح : الانكسيون وهي رسم عربي لكلمة Inquisicion وهو النظام الذي كان معمولا به في إسبانيا و البرتغال لمطاردة غير الكاثوليكيين.

231- ساقطة من ن. م

232- في ن. ح : يعرفون

وعلامة على تنصره، فيبقى بذلك الصليب ستة أشهر، ويزيله فيصير حينئذ من جملة النصارى. وإن هو أقر على نفسه باليهودية أو ثبتت عليه بإشهاد و لم يرجع عن اعتقاده، يحرقونه بالنار من غير قبول شفاعة فيه، وذلك هو السبب في عدم دخول اليهود ساير بلاد اصبانيا والبرتقال.

وهذا الديوان المذكور هو المعين للبحث عن هذه المسألة وأشباهها ممن يطعن في دينهم أو يشمون عليه رائحة شيء مما يعيبه، ولا يقدر أحد على الطعن فيهم أو يلمزهم بباطل أو شهوة فيجدون عليه سببا وللوثوب عليه مسلما[233]. ولا يقدر[أحد على فكاك أحد من يدهم ولو كان الملك بنفسه. وإذا لمز أحد بشيء من ذلك ودخل تحت جناح الملك محترما به لا يقدر][234] الملك على احترامه ولا على منعه منهم، وحتى إذا كان وزيرا من وزرائه ومن خدامه أو قواده وشموا عليه رائحة من ذلك يقبضون عليه أين ما وجدوه سواء مع الملك أو في كنيسة أو غيرها. ولقد اتهموا أيام مقامنا بمادريد أحد خواص الطاغية ووزرائه باليهودية فقبضوا عليه وسجنوه بطليطلة، وهو باق إلى الآن. وكذلك أيضا اتهموا رجلا آخر ونحن بمادريد، كان قيما للطاغية على محصول من محصولاته، فوثبوا عليه وعلى زوجته وأولاده وجميع عياله وحشمه وسجنوا جميعهم، وأخذوا ماله وجميع ما احتوت عليه داره من أمتعة وهم إلى الآن في السجن، وكان له مال كثير[235].

ومن أهل هذا الديوان رجل من عند البابا الذي بروما-أخزاه الله- يأتي بقصد النيابة عنه في هذا وما يشبهه، ويسمونه بلسانهم النوسيوا[236]. والمتهمون باليهودية في هذه الأجناس كثيرون وأكثرهم من جنس البرتقال، وجلهم كان من اليهود سكان هذه البلاد على عهد الأندلس بعهدهم وذمتهم، فانحازوا عند التغلب

---

[233]- في ن.ح و ن.ت : سلما

[234]-ساقطة من ن.ف

[235]- نقل ابن عثمان كل ما أورده عن محاكم التفتيش بل نسج على منواله قصة أيام إقامته بمدريد، يقول ابن عثمان: " ولما كنا عند الطاغية في هذه السنة وجدناهم قبضوا أحدا من الأعيان كان عاملا في إشبيلية قد لمز باليهودية وسجنوه في مرسية منذ أربع سنين ونحوها وأهل ديوان الانكستيون منشغلون بالفحص عنه إلى أن يقفوا على حقيقة أمره". ابن عثمان، **الإكسير**...ص 65.

[236]- النوسيوا : وهي الرسم العربي للكلمة الإسبانية Nuncio التي تعني سفير البابا، وقد كتبها ابن عثمان" النونسي".

على المسلمين إلى ناحية بلاد البرتقال واختفوا بالنصرانية هنالك، وبالبلاد البرتقالية منهم فيما يقال عدد كثير أكثر منهم في هذا الجنس الاصبنيولي.

فليب الرابع ومسألة انفصال البرتغال

وحين مات فلب طرسير المتقدم الذكر. وكان في عهده خرج ما بقي بهذه البلاد من بقايا الجنس الأندلسي، ولي بعده ابنه فلب كوارط ومعناه الرابع من اسم فلب، وكان داهية طاغية من طواغي الكفرة دمرهم الله، ولعهده كان ثار جنس البرتقال ودعوا إلى التملك عليهم رجلا يدعى الدوك بركانصا[237]، وهو والد طاغية البرتقال اليوم. وكانت له زوجة أخت دوك عظماء اصبانيا له قدم في الكبيرة يسمى دوك مدينة صيدونة، ويزعمون أن جده دون الونص ذي قزمان كان كبير مدينة طريف حين دخول طارق رحمه الله إلى العدوة، ومازالوا إلى الآن يلقبون بلقب قزمان. فحين ألزموا أهل البرتقال دون[238] بركانصا بالتملك عليهم شاور زوجته فيما دعي إليه، فأشارت عليه بقبول ذلك، وقالت له ملك ليلة واحدة أحسن من بقائه دوكا مدة خمسين سنة، فقبل ذلك منهم، وكان له في ذلك اتفاق مع أخ زوجته وهو إذ ذاك ساكن بمدينة سان لوكار. وفيما بين سان لوكار وبلاد البرتقال مدينة تسمى أيا مونط[239] بها مركيز عظيم من أعيان أهل اصبانيا يلقب بمركيز أيا مونطي، دخل معهما في الاتفاق، ودخل حزبهم أيضا دوك آخر يعرف بدوك أيخر، وكل منهم أراد التملك والدعوة لنفسه. فأحس بهم فلب كوارط فاستدعى هؤلاء الثلاثة الذين هم من خدامه وأهل عمالته وجلبهم إلى مادريد من قبل أن يعلموا بما هي إليه من خبر، فجعل يعذبهم بأنواع العذاب، ويقررهم إذ كان اتصل ببعض

237- عن هذه الشخصية يراجع:
Braudel (F), *La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, A. Colin, Paris, 1982, t.I, p. 277

238- في ن. ت: دوكي

239- مدينة أيا مونطAya Mante تقع على الحدود بين إسبانيا و البرتغال.

رسائل من بعضهم لبعض تدل على ما أزمعوا عليه من الخلاف. فأما دوك مدينة صيدونية فأقر سريعا، وكان بينه وبين الطاغية محبة فعتقه ونفاه إلى مدينة تسمى بليلدوليد[240] وعزله عن ولايته وعمالته، إذ كان هو القبطان على كوشطة البحر كلها الموالية لبرنا حرسه الله. وأما الآخران فعذبا عذابا شديدا فلم يقرا فأخرجهما ومن كان مطلعا عليه من خدامهما وخدام دوك مدينة صيدونية إلى بلاصة مادريد وقتلوا جميعا صبرا. وثار الحرب حينئذ بين البرتقال وبين طاغية اصبانيا نحوا من ستة وعشرين سنة إلى أن خمدت الحرب بينهم بموت فلب كوارط. وكان موته في سنة ست وستين وستة عشر ماية بتاريخهم المسيحي وبتاريخنا عام سبعة وسبعين وألف وخلص حينئذ ملك البرتغال إليهم.

اسبانيا بعد فليب الرابع

وكان لفلب كوارط[241] طاغية اصبانيا أولاد عدة لكنهم لم يرثوا الملك في قوانينهم لأنهم أولاد زنى، وله زوجة هي ابنة عم الانبرادور من لامانية[242]، وكان جلبها بقصد ولد له أراد تزويجه، فعن قريب من وصولها مادريد مات ولده الذي أراد تزويجه، ثم ماتت زوجته هو، فحين بلغت خطبها لنفسه وتزوجها فولدت له ابنه كرلوس شكوند هذا الطاغية المتملك اليوم، وحين مات فلب كوارط[243] وترك ولده صغير (كذا) ملكت أمه.

وكان من [خبر[244]] أولاده الآخرين الذين ليس لهم ميراث في الملك أن ترهب جلهم، ومنهم الراهب مفتي مالقة[245] اليوم، يسمونه بلسانهم السوبيسب.

240- كتبها الغساني بصيغتها الإسبانية Valledolid كما كتبها من بعده ابن عثمان بنفس الصيغة ولكن برسم مختلف. والأمر يتعلق بمدينة "بلد الوليد".

241- في ن. ح : كواطر

242- يتعلق الأمر بابنة أخته ماري آن دوطريش Marie Anne D Autriche وهي ابنة الامبراطور فرديناند الثالث من زوجته Marie Anne d Espagne التي لم تكن سوى أخت فليب الرابع.

243- في ن. ح : كواطر

244- سقطت من ن. ح

245- في ن.م : مالغة

ومعناه المفتي. وكان من أولاده آخر يسمى كوان أوسطريا[246] برز ونجم وظهر عندهم في الشجاعة والرأي والدهاء، وكان يلي الحروب ويتقدم إلى الشرور والفتن ويعبأ المحال مدة تملك زوجة والده، وفي حال صغر أخيه لأبيه وحيث ظهر وبرز لم يدع لأحد قولا ولا رأيا، وصار يحدث لهم أحكاما ويفعل لهم أفاعيل لم يكونوا يعرفوها فيما تقدم، وكان يضرب على يد أهل الديوان وعلى يد الملكة زوجة والده، وكان يقول إنما أتصرف لأخي إلى أن يكبر، وإنما أنا أحد خدامه. فوهم منه أهل الديوان والملكة توهما كبيرا و لم يشكوا مع ذلك في أنه يريد التملك ويدعي لنفسه.

وكان للملكة رجل يسمى الدويندي[247] اختص بالتصرف لها فأنكر عليه ذلك وعليها، فقبض عليه وسجنه في برج ممتنع في أعلى ربوة من الأرض ومطل على قرية تسمى سويفرا[248]، بينها وبين طليطلة على الطريق الآتي منها إلى الأندلسية ثمانية عشر ميلا. وهذا البرج هو في غاية التمنع والتحصن من عهد المسلمين، ولعلو هذا البرج يشرف على بلاد كثيرة ومداشر وقرى من عمالة طليطلة، ولهذا البرج سوران شاهقان وفي داخله كنيسة يعمرها عدد قليل من الفرايلية. ولقد دخلت هذا البرج فرأيت له أثرا في توثيق البناء في التحصن يدل على اعتناء صانعيه بذلك العهد رحمهم الله.

وحين سجن الدويندي بهذا الموضع المذكور أمر أن لا يخرج منه أبدا، وصار ينظر في أمر أهل الديوان وما هم عليه، فجعل يتطلع أحكامهم وينظر شوراهم وآراءهم وما يزمعون عليه، فيستجيد ما يراه لائقا ويرد ما يراه مزيفا، وينقص للقوم من مراتبهم وأرزاقهم، ويقول لم يستحق هذا أن يأخذ هذا وعلى ما هذا يأكل جميع هذا إلى أن أنكر على الملكة نفسها ما كانت تصرفه في ضرورياتها، إلى أن بلغ أخوه أربعة عشر سنة، فأخذه يوما ومضى به إلى ملكة راغون وألبسه التاج وأتى به إلى

---

[246]- كوان اوسطريا هو خوان دي أوسطريا Juan de Austria وهو ابن فليب الرابع من مارية كلدرون Marie Calderon، ساهم بشكل فعال في الحياة السياسية في إسبانيا بعد وفاة أبيه، وساهم في نقل السلطة إلى أخيه، من أبيه، كارلوسII. توفي سنة 1679.

[247]- الدويندي Fernando de Valenzuela شاعر ورجل سياسة كان من المحظيين عند الملكة ماريانا دي اوسطريا والدة كارلوس الثاني، غير أنه أبعد من قبل خوان دي اسطريا وسجن ومات سنة 1692.

[248]- في ن. ح : سويقرا

مادريد، وجعل يتصرف له نائبا عنه بمثابة الخديم. ومازال يغلب على أم أخيه إلى أن نفاها من مادريد إلى مدينة طليطلة، فاستقرت هنالك عاما واحدا ونصف عام، ثم مات كوان أوسطريا فرجعت إلى مقرها وأخرج الدويندي المسجون وتوجه إلى بلاد من بلاد الهند وهو اليوم باق بها لهذا العهد، له هنالك ولاية كبيرة.

وكبر كرلوس شكوند هذا مع الديوان وتزوج ابنة عظيم الفرنسيس وماتت عنده عن غير عقب[249]، فتزوج بعدها ابنة خالته[250]، أخت أمه. وهي ابنة عم الانبرادور الذي بلامانيا، ولتزويجه معها الآن سنة وإلى الآن لم يولد مع واحدة منهما. ولم يتقدم إلى موضع من المواضع ولا صحب محلة ولا برز إلى حرب، وهو من الحضارة بمكان لا يركب فرسا ولا غيره وإنما يركب دائما في كدشه مع زوجته في غالب الأيام، وله خروج إلى متصيداته في كدشه، ويقصد الكنائس دائما ويتعبد بجميع متعبداتهم.

وحين انفصلنا عنه يوم ملاقاتنا معه وناولناه[251] الكتاب السلطاني دفعه إلى النصراني الحلبي المترجم ليترجمه ويعجمه. فلما أن عجم الكتاب وقرأه ورأى ما فيه وما أشار به عليه أمير المؤمنين أيده الله من إعطاء خمسة آلاف كتاب وخمسمائة أسير، وثقلت عليه الوطأة العلوية، ولم يدر أين يتلقى هذه الإشارة وعرف أنها عزمة من الملك نصره الله، لم يمكنه الاضطراب لما اشرب في قلبه وقلب أهل ديوانه من صيت هذه الإمامة العلوية وعلو همتها أبقاه الله بمنه. ووقعت المشورة في ذلك منه مع أهل ديوانه، فرأوا أن الإجابة إلى ما دعاهم إليه المولى الإمام والامتثال لأمره المطاع أعزه الله تعالى أولى لهم وأوفق وتشاوروا في ذلك أياما عديدة.

وكانت لنا معه ملاقاة بقصد الرؤية حين يدعونا إليها، وبعد تدوينهم في الأمر السلطاني وزعمهم حرق الكتب الإسلامية فيما يذكر ببلاد اصبانيا، قدموا للكلام معنا في ذلك كاتب الديوان الكبير والكردينال الذي هو رأس دينهم، هو

---

[249]- يتعلق الأمر ب ماري لويز دو أورليان Marie Louise D Orleans التي لم تعمر طويلا فقد ولدت سنة 1662 وتوفيت سنة 1689. وربما أنه لم تستحمل الزواج من كارلوس الثاني الذي يبدو أنه كان غير عادي.

[250]- هي ماريا آنا ابنة Elector Platine

[251]- في ن.م ون.ف : تناولنا إياه

خليفة البابا الذي بروما، وإليه ينتهي[252] أمر دينهم وديوانهم. وحيث[كان[253]] المولى الإمام أيده الله جعل لهم في كتابه الشريف فسحة إن عدموا وجود الكتب أو تعذر حالها، يجعل عوضها كمال ألف أسير من المسلمين وحاولوا ترك بعض الألف فلم يجدوا له مجالا و لم يمكنهم إلا المساعفة بالامتثال. فحين قبل منهم المولى الإمام نصره الله ذلك، اشتغلوا بالبحث عن الأسارى وجمعهم.

وكان الطاغية، في خلال تلك المدة التي كانوا يوجهون إلى الآفاق بقصد جمع المسلمين، يتعاهدنا ويبحث في أحوالنا ويأمر بخروجنا إلى منتزهاته ومتصيداته وبدخولنا إلى داره ورؤية ما فيها من المساكن والبيوت والبساتين، يريد تأنيسنا بذلك، و لم يدع بمادريد دارا كبيرة من أعيان خدامه وخاصته إلا رأيناها، ورأينا ما لهم من البساتين والمنتزهات، وحين نلقاه يظهر بشرا وسرورا برؤيتنا ولا يقصر في الإكرام وإظهار الترحيب مدة مقامنا عنده.

منتزهات مدريد

وبمدينة مادريد من المنتزهات عدد كبير، فإن للطاغية بها دارا كبيرة جدا يسموها الرطير[254]، هي دار سكناه في المصيف، مشتملة على بستان بديع الشكل غاية في حسن جداوله وأنهاره. وبوسط هذا البستان واد كبير مبني الجوانب أحسن بناء [وبجانبي الوادي قباب مبنية أحسن بناء[255]] للاستظلال زمن المصيف، وبه زوارق ومراكب يركبها الطاغية في منتزهه ذلك. وهذا الوادي يكثر به الجليد في زمن البرد حتى يمر عليه الإنسان، فتجد النصارى يمرون على الجليد بصنعة، غير أن

---

[252]- في ن. ح : منتهى

[253]- سقطت من ن.ح

[254]- يقصد El Retiro ، وهو اسم حديقة مترامية الأطراف تقع الآن بوسط العاصمة مدريد. يعود تاريخ إحداثه الإقامة الملكية به إلى زمن فليب الرابع كما أشار إلى ذلك ابن عثمان، ابن عثمان، **الإكسير..** ص 100.

[255]- سقطت من ن.م

أكثر من يمر على الجليد ولهم بذلك خبرة من يكون من جنس الفلامنك والإنجليز، وذلك حيث كانت بلادهم ناحية الشمال يكثر بها الثلج والجليد في جميع المواضع ولا سيما الأودية. فقد زعموا أن نساء الفلامنك يمررن على الجليد بأن يجعلن لنعالهن صفائح من حديد ويقصدن بلادا بعيدة صبيحة النهار بقصد السبب والبيع والشراء، ومن المساء يرجعن إلى مقرهن. فلقد رأيت بعضا من النصارى يمرون على الجليد بهذا الوادي بأن يقف على رجل واحدة ويرفع رجله الأخرى ويقيم نفسه مستقيما بحيث لا يميل شقه إلى أحد الجانبين فيمر كالبرق.

وهذا الوادي يدخله زمن الجليد كثير من الناس بقصد الرؤية والتنزه، فتجد به من النصارى والأكداش المشحونة بالنساء والرجال ما يضيق بهم البستان المذكور، فإذا كان زمن المصيف ووقت سكنى الطاغية به لا يدخله إلا من يكون معتادا للدخول.

وبهذا البستان سارية من رخام عريضة عليها فرس كبير من نحاس أحمر، والفرس واقف على قدميه الأخيرين وعليه سرج من نحاس، وقد ركبت عليه صورة والد هذا الطاغية فلب كوارط من نحاس أيضا، وهو راكب على الفرس وفي يده عصا هي من عوائدهم يحبسونها ويسمونها البسطون. وزعموا أنه في زمن هداد الخيل يأتون بالفرس الأنثى التي يريدون نتاجها ويوقفونها أمام صورة الفرس، ويركبون في ذلك الفرس حركات يسمع لها من ذلك الفرس صرير و تصويت مثل تنحنح الفرس، ويتروون حينئذ فحلا يرتضونه ويختارونه لكي تنتج الفرس على شكل تلك الصورة[256]، وكذلك رأينا مثل ذلك أيضا في دار أخرى للطاغية خارج المدينة.

والدار هي في بستان على الوادي الذي يمر تحت المدينة على هيأة الأول، وعليه أيضا صورة والده فلب كوارط. وله من البساتين والمنتزهات خارج مدينة مادريد مواضع كثيرة مشتملة على قنص وصيد لا يقدر أحد على الاصطياد بها ولو

[256] ـ عندما وصف ابن عثمان منتزه الرطيرو أورد ما ذكره الغساني بصدد هذه المسألة غير أنه أكد غياب هذا التقليد زمن زيارته قائلا:"فسألت عن ذلك فلم أقف على أثر شيء لعل تلك الحركة بطلت قديما ولم يدركها الموجودون اليوم" ينظر: ابن عثمان،**الإكسير**...ص. 101

كان من كان[257]، فلقد وجه لنا يوما مع القند الموكل بنا وقد أمره بإخراجنا إلى موضع الاصطياد [بها[258]] والإذن في الصيد[259]، وهو على ستة أميال من مدينة مادريد.

وبهذا الموضع دار كبيرة يسمونها البرد[260] (بالباء الفارسية) كان بناها والده، وهي دار كبيرة مشرفة على وادي مانسنارس المار بمادريد، وبهذا المصيد المذكور من الوحوش كالأيل والخترير والقنين عدد كثير، إذ لا سبيل لأحد أن يصطاد بجميع ما احترمه الطاغية، وهو محمي بقصده ولا يأذن هو فيه لأحد من خاصته.

وزعموا أن إذنه لنا في ذلك خصوصية لم يسمح بها من قبل لأحد، وذكروا أن أنباشدور الفرنسيس طلب منه ذلك هو و انبشادور لامانية فلم يأذن لهما فيه. وبهذا المصيد نوع من الذياب أكبر من ذيب بلادنا، وهو ذيب كبير أصفر اللون له فتك وقوة، ولقد حاولنا رؤيته حين مصيدنا هنالك فلم نره. ولما أن خرج الطاغية يوما إلى الصيد قتل ذيبا منها وأصحبه معه إلى داره وحين وصل داره، وجه به إلينا لنعاينه إذ عرف أن ذلك النوع ليس في بلادنا، ويسمون ذلك الجنس من الذياب اللوبوا[261] والجنس الصغير الذي هو في بلادنا يسمونه الشرة[262]، ويصفون الجنس الكبير منه بالقوة والفتك، ولعل هذا الجنس هو الذي يحدثون عنه بأرض مصر وهو بمقدار النمر، أو يقرب منه.

وهذه المدينة، أعني مادريد، وإن كانت دار سكنى بعض سلف هذا الطاغية، فإنها لم تكن على ما هي عليه اليوم من الحضارة والكبر واتساع الأزقة وانفساحها،

257- في ن. ح : ولو كان من خاصته

258- سقطت في ن. ح

259- وهي الدعوة التي تلقاها ابن عثمان المكناسي أيضا.

260- يكتبه ابن عثمان " البارد" ويراد به El pardo ابن عثمان، **الإكسير**...ص 80.

261- في ن.ت: اللوبر ويقصد Lobo

262- الشرة المقصود بها الثعلب وبالإسبانية Zorra ولذلك كتبها ناسخ ن.ت : السرة

وكانت دار طواغيهم قبل والده وجده مدينة بلياوليد[263] وهي على ثلاثة أيام من مدينة مادريد. وحيث استقر بها جده زادت في العمران والبناء وكثرة الدور بكثرة السكان والعمارة، فإن جل أعيان نصارى اصبانيا يسكنون بها مع الطاغية، ومن بيده بلاد أو مدينة يخلف فيها من يقوم مقامه.

أسواق مدريد

وأسواق هذه المدينة كبيرة منفسحة، عامرة بأهل البيع والشراء والتجارات وأهل الحرف والصنائع رجالا ونساء. وهذه السوق يقصدها جميع أهل القرى والمداشر التي تقرب مادريد، ففي حوزها من القرى عدد كثير. وأهل هذه القرى يجلبون للمدينة جميع ما يباع بها من أنواع الأطعمة والمأكولات والفواكه حتى أن الخبز بها لا يجعل بمادريد إلا القليل منه. وجل ما يؤكل منه بمادريد يأتي من القرى التي بخارجها، يجلبه النساء فيأتين به راكبات على الدواب ويقفن في الأسواق لبيعه على ظهور الدواب، والبعض منهن يقصدن الديار بتبليغهن إليها الخبز على قدر ما تستحقه الدار، لأن من عادة النصارى أن لا يخبز أحد منهم بداره وجميع مونته[264] إنما هي [عالة[265]] على السوق من كل شيء.

وبالسوق عدة حوانيت لطبخ الطعام وصنعه للغرباء والضيوف والمسافرين الذين ليس لهم موضع معهود، فيدخل الرجل للحوانيت[266] ويتحكم على المرأة التي بها ويطلب لها من الطعام ما يشتهيه لحما ودجاجا أو حوتا[267] أو غيره مما يحبه وتطلبه شهوته، فيأكل ويشرب ويدفع للمرأة ما يجب عليه في ذلك. وتجد بهذا

---

[263]- كانت بليادوليد Valladolid عاصمة لملوك قشتالة منذ القرن الخامس عشر إلى زمن فليب الثاني الذي قرر جعل مدريد عاصمة له سنة 1531. وقد عادت مدينة بليادوليد لتكون عاصمة لكنها لفترة محدودة زمن فليب الثالث فيما بين 1600 و 1606.

[264]- في ن.م : مونة

[265]- سقطت من ن. ح

[266]- في ن. ح : للحانوت

[267]- يقصد السمك

السوق من اللحوم البرية والوحشية والطيور ما لا عدة له، وهي ميتة بغير ذكاة، والبعض منها بالحياة لمن يريد أن يجمع الدم لأكلهم إياه. وكذلك أيضا تجد بهذا السوق من الفواكه الرطبة واليابسة ما لا حد له، فإن التفاح والعنب والكمنترى يباع بهذا السوق السنة كلها إلى أن تدخل عليه الفاكهة الأخرى من العام المقبل. وجلب هذه الفواكه الرطبة جله من جبال غرناطة والرندة، وإن كانت مادريد بعيدة عن هذه البلاد المذكورة فإن غلاء السعر بها يجلب لها جميع الأشياء من سائر الأقطار. وكذلك أيضا تجد بهذا السوق من الحوت الطري الشيء الكثير يأتون به من البحر على مسيرة سبعة أيام من بلاد اليقانطي[268] ومن ناحية بلاد البرتقال.

وبوسط هذه الأسواق سوق كبير مربع، وفيه حوانيت كبار وعلى الحوانيت من البيوت والغرف والمساكن ست طبقات، وهي معمورة بالسكان من أهل هذه الأسواق وغيرهم، فقد زعموا أن بهذه البلاصة من السكان أربعة عشر ألف متزوج. وبهذا السوق من أنواع الحرف والصنائع والتجار رجالا ونساء عدد كثير، ويسمون هذا الموضع البلاصا ميور[269] ومعناها السوق الكبير، وبوسط رحبته من النساء لبيع الخبز والخضر والفواكه والحوت واللحم على اختلاف أنواعه شيء كثير.

وبهذه البلاصة يجعلون أعيادهم ومواسمهم كعيد الثيران[270] وغيره، فإن من عوائدهم إذا كان شهر ماي في العاشر منه أو في النصف يختارون ثيرانا فحولا سمانا، ويأتون بهم إلى تلك البلاصة، ويزينونها بأنواع الفرش من الحرير والديباج، ويجلسون في المجالس[271] المطلة على البلاصة، ويطلقون الثيران في وسط البلاصة واحدا واحدا. ويدخل إليهم من يدعي الشجاعة ويحب إظهارها راكبا على فرسه ليقاتل الثور بالسيف، فمنهم من يموت ومنهم من يقتل. وموضع الطاغية في تلك البلاصة معلوم ليحضر ذلك هو وزوجته وجميع حشمه والناس على اختلاف أغراضهم في الطيقان،

---

[268]- في ن.ح : القنتا Alicante

[269]- Plaza mayor ومعناها الساحة الكبيرة

[270]- يخصص ابن عثمان وصفا أكثر دقة لعيد الثيران وهو يعتبر بذلك من بين الرحالة القلائل الذين عنوا بهذا الموضوع كما أكد ذلك برنارد لويس. ابن عثمان ، **الإكسير**...ص 107- 109.

[271]- في ن. ح : السطوح

فإن كراءهم في ذلك اليوم وحده أو في يوم عيد مثله يعطى في موضع واحد مثل ما يعطى في السنة كلها.

ولقد حضرت هنالك عيدا جعلوه في هذه البلاصة نسبوه إلى راهب من رهباهم، يسمونه سان كوان، زعموا أنه كان من جنس الفرايلية وحسنت حاله، فيما يعتقدونه من دينهم ورأوا له فيما يخيل إليهم الشيطان أمورا تخييلية يسموها الميلاكروس[272]، ومعناها البراهين، وله الآن نحو من مائة سنة. وفي هذه السنة زعموا أنه تبث عند البابا أمره فأذن لهم في تطويفه ليراه الناس ويعرفونه، فجعلوا هذا اليوم بعد أن احتفلوا وزينوا كنيسته بأنواع الحرير والديباج، وألبسوا صورته حللا فاخرة مرصعة بالدر والياقوت، وزينوا جميع الأزقة من كنيسته إلى البلاصة، وزينوا البلاصة أيضا بأنواع الزينة وعلقوا عليها من اليواقيت والجواهر النفيسة والصلبان الذهبية المرصعة ما لا قيمة له. واحتفل بذلك الطاغية احتفالا كبيرا، وأعد لنا مجلسا مقابلا لمجلسه الذي هو معد له وجعل به من أنواع الزينة مثل ما عمله لموضعه، وبعث إلينا يستدعينا لرؤية ذلك، وقصده بذلك تأنيسنا وجبرا لخواطرنا[273]. فقصدنا ذلك الموضع فوجدنا به من الخلق مختلطين رجالا ونساء ما ضاق بهم في ذلك الموضع على اتساعه بعد أن قاسينا من زحام الخلق، وكان في جميع الأسواق والأزقة أكثر مما اجتمع منه في البلاصة، فقصدنا الموضع الذي أعد لنا وصعدنا إليه، وحيث جلسنا وقابلنا الطاغية وسلم علينا سلاما كثيرا، وأزال شمريره من على رأسه وقعد هو وزوجته وأمه وحشمه حوله ووزراؤه. واجتازوا بصلبانهم وتصاويرهم وبصورة هذا الفرايلي الذي أذن لهم فيه البابا، وجعلوا له كنائس عديدة في كل مدينة وقرية، وكذلك جعلوا له في كل موضع عيدا على قدر المدينة أو القرية.

---

[272]- الميلاكروس غرائب وأمور خيالية Mlagros

[273]- في ن.ح : جبر خواطرنا

والفرايلية المتسبون إليه هم الذين يقومون في كل موضع بأمور المرضى من معالجة[274] وخدمة وغيرها، فإنه حيث كان في عهده من الفرايلية الذين يخدمون ذلك صاروا كلهم يجعلون مارستانات في كنائسه ويقومون بأمور المرضى أتم قيام، فإن ببلاد اصبانيا من المارستانات ما لا عد له. وفي مدينة مادريد أربعة عشر مرستانا في غاية الكبر والنظافة والإقامة من الفراش والطعام والأشربة والمعاجين ومن يقوم بأمر المرضى. فيجعلون للمريضات عجائز يخدمهن ويقمن بهن، وللرجال رجالا، وهن في غاية التحفظ والمعالجة من غير تفريط بشيء يحتاجه المريض قليلا كان أو كثيرا.

فلقد دخلت منها عدة فرأيت فيهم من الإقامة ما له بال ومال، وفي كل مارستان منها مخازن عدة مشحون كل واحد منها بما هو معد له من الزيت والخل والمعاجن والأشربة وموضع الطبخ. فلقد وجدت بها من اللحوم لحم الضان والدجاج والقنين والحجل ولحم الخنزير وغيره بقصد المرضى. فإذا دخل الطبيب على المريض وجس يده وعرف حالته يكتب بطاقة يدفعها للقائم على المرضى، وهو يدفعها للقيمة على الطبخ ويحضرون له ما أمر به الطبيب.

ولقد رأيت عندهم بيتا آخر فيه حوائج المرضى وذلك إذا دخل المريض المارستان يزيلون له جميع ما عليه من الثياب، ويرفعوهم في البيت المعد لذلك، ويكتبون عليهم بطاقة بتعريف الحوائج وربها ويلبسونه حوائج أخرى معدة للمرضى من متاع الحبس الموقف على المارستان، ويجعلون له سريرا عليه لحافان وإزاران ووسادة، وعن كل ثمانية أيام يغسلون الثياب التي عليه ويجعلون له ثيابا أخرى. فإذا

[274]- يشير ناسخ ن. ح أن بالنسخة الأصلية التي نقل عليها فراغ مقدار ورقتين. يقول : (و . 41 (أ)) : " هنا يوجد في النسخة الأصلية بتر بنحو الورقتين يوجد في أحدهما الكلام فيما وقع بين فرنسا وبابا رومه من تفاقم في نصف ملك غير قانوني على فرنسا ممن ليس بوارث ملك حسب قوانينهم".

قام من مرضه ألبسوه حوائجه التي أتى بها وينصرف إلى سبيله، وإن مات يكفن من وفر المارستان ويبحث عن أهله ويدفعون لهم ثيابه التي تركها هنالك.

ولكل مارستان من هذه طبيب معلوم تعين له دار سكناه قرب المارستان وكراؤها من الوفر وجميع مؤنة الطبيب وما يتعلق به وبحشمه من الضروريات ومعيشته كلها من الأوقاف، ليكون سائر الأوقات حاضرا غير غائب ولا مشتغل بشأن معاشه.

وهذا الجنس الذين هم منسوبون إلى هذا الفرايلي سان كوان هم أكثر الناس خدمة للمرضى ولهم في ذلك اعتقاد. ولقد مرض بعض أصحابنا ونحن مقيمون بمدينة سان لوكار، وكان هذا الجنس يختلفون إلينا للزيارة سائر الأيام، ولما رأوا المريض طلبوا منا أن ينقلوه إلى موضعهم ليعالجوه ويقوموا بأمره، فمنعتهم من ذلك فتغيروا، وقالوا أحببنا الحسنة فما ظننا أن تمنعنا منها، ورغبوا في ذلك كثيرا فلم أطلق لهم في شأنه بطرف، فلم يزالوا يعودونه حتى برئ. ويود لهم الإنسان باعتقادهم ذلك وحسن أخلاقهم ومسكنتهم أن لو كانوا على الطريق المستقيمة، فإنهم أحسن أهل جنسهم أخلاقا وأكثرهم مسكنة والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

نظام البريد

وبسوق مادريد أيضا موضع معد للرسائل والبراوات الواردة من جميع البلدان والأقاليم والأقطار، فإن في كل يوم من أيام الجمعة ترد رسائل بلد من البلدان، فمن كان يرتجي ورود براءة يمضي إلى الحوانيت المعدة لذلك وينظر هل أتاه شيء أم لا، فإذا وجد براءة يعطي عليها جعلا معلوما قدر ربع أوقية بلادنا. وكذلك من يحب بعث رسالته إلى بلاد يكتبها أيضا ويطرحها في الموضع المعلوم ولا يعطي عليها شيئا فإن الذي يتسلمها هو الذي يخلص كراءها، هذا فيما قرب من البلاد

مسيرة نصف شهر فما دون من جميع البلاد، وأما ما كان من بلاد بعيدة من البلدان مثل إيطاليا ورومة ونابل وفلانضس وفرانسة والانكلاطيرة وولانضس وغيرهم[275] من البلدان القاصية فإن كراء البراءة الواردة من إحدى هذه البلدان هو وزنها من الفضة، ويتحمل في هذه الرسائل من الأموال شيء كثير.

ولقد ورد في شهر فبراير رقاص إيطالية ورومة وأتى معه بزنة ثلاثة وخمسين ربعا من الرسائل فتحصل في ذلك ثلاثة عشر قنطارا وربع القنطار من الفضة. وهذه الخطة في يد قند يسمى قند ياطي زعموا أن الطاغية أعطاها إياه ليعيش بها، والرقاقيص جميعا تحت يده.

وعادتهم في ذلك أن يحمل الرقاص القاصد من البلاد الفلانية جميع ما يتحمل من البراوات إليها يسافر سفرا عفيفا من غير التفات ولا عطلة ومهما تراخى أو عطب يبدله في بنطة (الباء الفارسية) من البنطات المعدة في الطرق للضيوف والرقاقيص كما قدمنا بكراء معين. والقدر المعلوم عندهم لتبديل المركوب هو تسعة أميال لا يقدر على الزيادة عليها، فيمضي نصف طريق البلاد التي كان قاصدا إليها فيلقى رقاصها آتيا فيعطي كل واحد منهما ما أتى به من الرسائل للآتي من البلاد الأخرى، ويرجع كل واحد إلى بلاده التي أتى منها. ففي كل يوم من الأيام يكون عند الرجل علم جميع البلاد.

الصحافة

وبمادريد شيء آخر زائد في الإخبار عن البراوات وذلك أنه إذا كان خبر من البلدان بعيدة نائية فإن فيها دارا فيها قالب الكتابة، وهو على يد رجل واحد قد تحمل لذلك مكسا للطاغية معينا على رأس كل سنة. فمهما سمع بخبر أو طرقه خبرا أو بحث عنه يجمع من الأخبار ما يجمع ويفرغ عليها قالبا يطبع

---

[275]- كذا في جميع النسخ

عليه الألف من القراطيس ويبيعها بأقل ثمن، فتجد الرجل في يده منها شيء كثير ينادي عليها من يشتري أخبار البلاد الفلانية والبلاد الفلانية، فمن أحب الاطلاع على ذلك يشتري منها قرطاسا يسمونه الكاسيطة[276]، فيطلع الإنسان منها على أخبار كثيرة إلا أن فيها من الزيادة والكذب ما تحمل عليه الشهوة النفسانية.

ومع الرقاص الوارد من إيطالية ورومة، كما قدمنا ذكره، ورد خبر موت البابا[277] الذي برومة ألحقه الله بأكابر قومه، و لم يتول أحد آخر مكانه إلى هذه الأيام، ونحن مقيمون بمدينة سان لوكار ورد تولية رجل آخر مترلته، وهذه المترلة عند عبدة الصليب هي مترلة كبيرة بحيث المتولى لها يحدث لهم الديانات والأحكام ويشرع لهم الشرائع ويأمرهم بفعل ما أحب وينهاهم عما كره بوفق غرضه، فلا يقدرون على مخالفته ولا يسعهم إلا الامتثال، ففي المخالفة له عندهم خروج عن دينهم.

المؤسسة البابوية

وكيفية تولية هذا البابا هو أنه تحته اثنان وسبعون راهبا من أكابر علمائهم كلهم يلقب بالكردنال، ودرجة الكردنال عندهم هي أحط مترلة من البابا، فإذا مات البابا وانتقل إلى الجحيم ولحق بالسعير، دخل كل واحد من الاثنين والسبعين بيته وأغلق عليه بابه وقعد يتعبد في دعمه بحيث لا يخالط أحدا ولا يتكلم مع أحد، وإنما يناول الطعام الذي يقوت به نفسه، ويقيم على ذلك أربعة أشهر، فإذا انفضت الشهور الأربعة فكر كل واحد منهم في نفسه إلى الرجال من الأحد والسبعين يغلب على ظنه أنه يرتضيه ويختاره لثقته وأمانته وعلمه وديانته، فيكتب اسمه في قرطاس صغير ويضعه في صندوق مغلق بحيث لا يطلع عليه هو ولا غيره، وكل واحد من المذكورين يكتب من القراطيس على قدر من يختاره ويضع القرطاس في محله المعد له.

---

[276]- الكاسيطة يريد قول Gazeta

[277]- يتعلق الأمر بالبابا Alexandre VIII الذي تولى البابوية ما بين 1689-1691.

فإذا انقضت الأيام المعلومة لذلك وانقضت الكتابة والاختبار، اجتمعوا وجعلوا ديوانا وفتحوا الصندوق وقرأوا القراطيس فأي اسم من الأسماء وجدوه أكثر تعددا في القراطيس اتفقوا عليه وولوه تلك المترلة بعد أن يأخذوا عليه العهود والمواثيق بالشروط المعلومة عندهم من الأمانة والصدق. ويأخذ عليه أيضا هو من العهود ما هو معروف عندهم ، وصار هو إذ ذاك البابا. ومن عادتهم دمرهم الله أن لا يختاروا إلا من نيف على الثمانين سنة، والذي صيروه بابا[278] هذه المرة هو أصغر سنا من ذلك، فقد زعموا أنه ابن خمس وسبعين سنة ومازالوا يصفونه بصغر السن، وقالوا أنه لم يتقدم أحد قبله في سنه.

وقد كانت قبل هذه السنين عندهم عادة أخرى وهي أن لا يختار لتلك المترلة إلا رجل من أهل إيطالية عمالة رومة وأحوازها لسبب كان ألجأهم إلى ذلك، وهو أنهم عثروا على بعضهم كان من جنس الفرنسيس تولى تلك المترلة وصار يجمع الأموال ويرسلها إلى بلاده، فاتفق رأيهم في ذلك العهد على أن لا يتولى تلك المترلة أحد من جنس الفرنسيس ولا من جنس الاصبانيول الذين لهم الشوكة والعصبية، وإنما يتولاها رجل من إيطالية وأحكام رومة وعمالتها يتولاها رجل من أقارب البابا ولا يتصرف أحد غيره في جميع نواحي إيطالية بشيء من الأشياء.

والبابا الذي ولوه هذه السنة بعد موت البابا، هو من بلاد نابل من حوز إيطالية إلا أنها في يد الاصبنيول، وقد انخرمت هذه القاعدة عندهم هذه المرة وتولاها من هو من عمالة الاصبنيول.

وهذا البابا هو الذي يفرض عليهم الصيام في بعض الأيام لسبب يؤله لهم ويمنع من أكل اللحوم يوم الجمعة ويوم السبت، ويحدث لهم برأيه ما يستحسنه. ويمنع أهل الصليب أن يتزوج أحد قريبته أو بنت عمه أو عمته أو خالته أو خاله إلا إذا

---

[278]- البابا الذي تولى هو Innocent XII الذي تولى من 1691-1700، وقد ولد هذا البابا في Spinazzolo بالقرب من نابل في 31 مارس 1615 ومات في روما في 27 شتنبر 1700، دخل الدير الروماني Curie Romaine في سن العشرين، وفي عهد Innocent X أصبح نونس بابوي في طوسكان ثم في بولونيا في عهد الكسندر السابع . وقد أصبح بابا في 11 فبراير 1691. وبالتالي فالمعلومات التي أوردها الغساني بصدد السن تكاد تكون مضبوطة.
ينظر(www .wikipedia.org.encyclopédie libre, (31 mars 2004

أخذ الإذن من عنده وأحل له ذلك، وعندهم في ذلك إنفاق مال كثير لمن يحتاج الإذن من عنده في تزويج قريبته بما يدفعه للوسائط والطريق من بعد المسافة، ولا يسهل عليه في ذلك إلا إذا كان ذا جاه أو مال يجد السبيل للإذن في التزويج. وقد أذن لهم أيضا في تزويج القريبة إذا وقع بينه وبينها ملاقاة من زنى إلى أن ظهر بها حمل وكانت قريبته، فهذه أطلق لهم فيها الإذن من غير أن يحتاج الوصول إليه.

ولقد رأيت بمادريد امرأة صغيرة ذات حسن وجمال ومنصب، من أكابر أهل اصبانيا وقد تزوجها خالها، وهو يسمى دون بيدر ذي أراغون وهو من أبناء ملوك الأراغون، فتزوج ابنة أخته بإذن من البابا أخزاه الله، وكان كبير السن فخاف أن يموت من غير عقب، و لم يكن عنده من يرثه، فأخذ الإذن من البابا فتزوج ابنة أخته ومات قرب تزويجه منها، وخلف لها من الأموال ما يعجز عن حسابه، ولقد حاول بعض الأعيان تزويجها من بعده فلم ينالوا منها شيئا، من كونها من أهل اصبانيا، وهي ابنة دوك يسمى دوك مدينة سليس[279]. وكانت له عند الطاغية مترلة الوزارة والحجابة والدخول عليه في فراشه وغير ذلك، وكانت له مع ذلك زيادة موروثة ورثها عن سلفه من قديم هو وأبوه وجده، حيث كان من نسل ملوك اصبانيا، كان إذا سلم على الطاغية يقول له "نحن بعدكم"يعني له الولاية بعدهم إذا انقطع عقبه، و لم يخلفوا من يرث من الملك وبقي هو وسلفه على ذلك زمان أسلاف هذا الطاغية وزمانه هو إلى ما قابل (كذا) هذه السنة بتسعة أعوام فيما ذكروا أن الطاغية خامر عقله وشوش ذهنه ما يسمعه من تلك الكلمة التي كانت تؤلم قلبه حيث لم يولد له. فقال له يوما إن هذه الكلمة التي أسمعها منك كثيرا ما تؤلمني وأريد أن تتركها ولا تعد لقولها ولا إلى الارتقاب إليها أنت ولا عقبك من بعدك، فتركها حيث لم تمكنه المخالفة ووجبت عليه المساعفة. وبقي على حال وزارته وتصرفه إلى أن حاول منه الطاغية أمرا أمره به وكان الوزير يحب خلافه، فلم يمتثل لذلك ولا أذعن إليه. فلما رأى منه الطاغية التصميم على خلاف شهوته، وكان بيد الوزير

[279]- Medinaceli وهي المعروفة في المصادر العربية بمدينة سالم وهي المدينة التي توفي بها المنصور بن أبي عامر عندما كان عائدا من غزوة في بلاد النصارى ببلاد قشتالة سنة 392/ 1002.

مفتاح يدخل به على الطاغية أينما كان. جاء الوزير يوما على عادته فوجد الباب مغلقة من داخل ، فحاول فتحها فلم يقدر فقرع الباب إلى أن نهض الطاغية وجاء إلى الباب ينظر القارع، فلما فتح الباب وجد الوزير فأغلقها في وجهه، فرجع الوزير حنقا إلى داره وقعد بها فلم يلبث أن مرض بالمرض المسمى عندنا بالنقطة، وبقي مريضا نحو الثمانية أعوام ولحق بالسعير في هذه السنة ونحن مقيمون بمادريد. وخلف ولدا هو انباشدور في رومة بنيابة عن طاغية اصبانيا، واسطة هنالك عند البابا، إذ من عوائدهم أن يبعثوا سفراء من بعضهم إلى بعض، كما فعل البابا أيضا ببعثه رجلا كبيرا من علماء ملته إلى مادريد يسمونه النونسيوا[280] هو خليفة البابا فيما قرب من أمور الديانات والشرائع.

العلاقات الأوربية الأوروبية

وكذلك بمادريد عدة من الانباشدوريس فإن بها اليوم انباشادور لامانيا وآخر من انكلاطيرة. وقد كان قبل قدم من قبلهم رجل فأقام بمادريد مدة وعشق امرأة حمله ما به منها إلى أن تنصر وتبع دين أهل الصليب، إذ جنس الإنجليز لا يعبدون صلبا، فحيث بلغهم خبر تنصره أبدلوه آخر عوضه، وبقي هو بمادريد، تأهل وجعل له الطاغية راتبا يعيش به مبلغه اثنى عشر ألف ريال عن كل سنة، ولقد فقد ببلاده جميع ما كان يملكه إذ لا طمع له فيه.

وبمادريد أيضا انباشدور بلنسية والبرتقال، فهؤلاء مقرون مستوطنون بأولادهم ونسائهم[281]، والغير يقدم بقصد قضاء ما يأتي إليه ويرجع في حاله. ولقد كان قبل هذه الساعة بمادريد انباشدور افرانسيه[282] ، ولما وقع بين أجناس النصارى

---

[280]- Nuncio

[281]- في ن.ف و ن.م : واشونهم

[282]- يتعلق الأمر بالسفير الفرنسي Le Duc de Créqui الذي غادر منصبه في 20 غشت 1662 على إثر نزاع مع السلطات البابوية لم يرق الاسبان.

ما بينهم اليوم من الفتن والحروب والعداوة حسبما نذكر سببه بعد هذا إن شاء الله، ورجع في حاله إلى مخدومه. وسبب هذه العداوةالتي بينهم[283] مسألتان:

أولاهما، أن الفرنسيس لما سبح[284] بأنفه وجذب لرأيه واشتد كلبه على أبناء جنسه ودخلته النخوة، وكان مجاورا له دوك ولاية وعمالة لم تكن تحت أحد من الملوك وإنما ورثها عن سلفه مثل ما لبعضهم من العوائد عند ملوك العجم. إذ كان له عدة أولاد فإن البكر هو الوارث للملك من بعده يكون دوكا على طرف من البلاد يكون معينا معروفا لا ينازع فيه ولا يطمع هو معه في الملك، إلا إذا انقرض أخوه الوارث عن غير عقب، ووقف الأمر عليه في عوائد ميراثهم. وأما إذا لم يكن في عوائد ميراثهم أن الأخ يرث أخاه إذا لم يكن له ولد فإن غيره من نسل أخيه يرث الملك سواء كان حفيدا أو ابن حفيد أو ابن أخت أو بنت أخت. وكان هذا الدوك المذكور واليا على طرف من البلاد ليس هو من جنس الفرنسيس، فأحب الفرنسيس أن يعزله ويعمل غيره مكانه، وعجز الدوك عن مقاومة الفرنسيس فأنكر البابا عليه ذلك، فأبى إلا تماديا على فعله و لم يحفل بقول البابا ولا بإنكاره عليه. وحيث كان جميع عبدة الصليب تحت نظر البابا وإليه ينتهي جميع كلامهم ومن عنده يلتمسون جل أديانهم وأحكامهم، وعنه يأخذون دينهم المنكب عن طريق الحق والهدى تابعين بذلك سبيل الغي والردى[285]، يحدث لهم أديانا على وفق إرادته وهواه ويساعفونه في الأمور التي قدر الله تعالى فيها شقاوته ورداه. فكانوا لا يبرمون أمرا في أمر دينهم إلا عن إذنه ومشورته، ويوافقونهم فيما يلائم[286] أغراضهم من أمر دنياهم ورياستهم. فحيث وقع الإنكار من البابا على الفرنسيس وخالفه، وقعت المشاحنة بين البابا والفرنسيس لعدم إنصاته إليه وإرادته مخالفته في هذه المسألة وخرمه[287] القواعد التي

283- سقطت من ن.ح. هو فراغ طويل كما نلاحظ

284- في ن. ح : شمخ

285- في ن. م : الردا

286- في ن. م : يوالم

287- في ن.م: خرقها

لا سبيل لهم إلى خرمها من إزالة ذوي الأقدار على مراتبهم وميراثهم، أدى ذلك إلى المشاحنة والمنافرة بينهم.

وفي أثناء ذلك وقع بين الفرنسيس أيضا وبين الانبرادور ملك لامانيا كلام في شأن المهادنة التي بينه وبين ملك الترك[288] -قواه الله- ودعاه إلى إفساد المهادنة ورجوعه عن مواصلته، فلم يكن من الفرنسيس التفات إلى الانبرادور ولا إلى ما دعاه إليه، ووقع الشنآن بينهما بسبب ذلك. فحين صار بينهما ما ذكر من الشنآن أنكر الأجناس الآخر[289] (كذا) من المسيحية على الفرنسيس تصممه على خلاف الانبرادور وعدم مساعفته إلى ما دعاه إليه من طرح المهادنة. وكانت للانبرادور عند الأجناس المسيحية مترلة ومكانة من أجل مقابلته للمسلمين دائما واشتغاله بالحرب معهم سائر أوقاته وزمانه، من أجل ذلك يلقب بالانبرادور، ومن أجل أجناس أخرى يتابعونه في حربه. فأزمع الأجناس الذين هم إلى نظر البابا، وكانوا شيعة للانبرادور، عداوة الفرنسيس وكتبوا إليه قائلين:" اعلم أن تجشمك لهذه الأمور وارتكابك لها من المخالفات[290] للبابا، الذي نحن جميعا إلى نظره، بتعمدك إلى خرق العوائد من إزالة ذوي الأقدار عن مكانتهم، وخالفت رأس هذا الدين وتعمدت مخالفته[291]، وقد علمت ما في مخالفته ومنها مهادنتك مع الترك وبقاؤك معهم على المهادنة، وقد علمت ما بينهم وبين الانبرادور من الحروب التي لا يمكنك جحدها، وفي ديننا ومذاهبنا تجب علينا معونته ومتابعته[292]، فإما أن ترجع عن صلحك مع الترك[293] وتصير معنا ومع الانبرادور حالة واحدة، وإما أن نضرب الديوان على عداوتك

[288]- حول المهادنة بين الأتراك العثمانيين و فرنسا و موقف الهابسبورغ من هذه المعاهدة يراجع:
Resat (Ekrem), *Osmanli Muahedeleri ve Kapitulasiyonlar 1300-1920 ve Lozan Muahedesi*, Istanbul, 1934..

[289]- كذا في جميع النسخ وكتبها البستاني "الآخرون".

[290]- في ن. ح : مخالفتك

[291] لاترتبط هذه المخالفات كما يذهب إلى ذلك الغساني بالسياسة الإسلامية لفرنسا بقدر ما ترتبط بالسياسة التي انتهجها لويس الرابع عشر اتجاه المؤسسة البابوية ، ففي 19 مارس 1682 أصدر لويس الرابع عشر ما يعرف في تاريخ فرنسا بـ Déclaration des quatre articles التي تدعو إلى تحرير الكنيسة وهو ما أدى إلى توتر في العلاقات مع البابا Innocent XI والملكية الإسبانية

[292]- في ن. م ون.ف : تباعته .

[293]- الإحالة هنا على المعاهدة الفرنسية العثمانية التي وقعت 1673. وقد عرفت العلاقات الفرنسية العثمانية على إثرها دفئا غير مسبوق.

وحربك." ظنا منهم أنه إذا رأى اجتماعهم واتفاقهم كلهم على مناوئته[294] وحربه، لا يقدر على مجاراتهم[295] فيرجع على نفسه بالملامة والندامة، وإن صمم على مخالفتهم، وأجمعوا على عداوته برا وبحرا يقصمون[296] ظهره ويكسرون شوكته.

فلما رأى ما أجمعوا عليه وسولت له نفسه مقارعتهم[297] وعلم من نفسه ذلك كتب لهم قائلا: إني اطلعت على ما أجمعتم عليه وأريد أن توجهوا لي ذلك بخطوط ملوككم لأرى في ذلك رأيي وأستشير في نفسي." فأجابوا إلى ذلك واتفقوا عليه ووجهوا إليه به. فلما رأى ما أجمعوا عليه وقرأ ما اتفقوا به من حربهم له إذا لم يرجع عن مهادنته مع الترك، ويساعف الانبرادور في فسادها، ويقلع عما ارتكبه من مخالفة البابا فهم حرب عليه[298]. فكتب تحت إشهادهم بذلك بخط يده هؤلاء الأجناس عدو للفرنسيس والفرنسيس عدو لهؤلاء الأجناس، وبعث به إليهم. فحيث رأوا ما أجمع عليه من عداوتهم لم يكن لهم[299] بد من حربه حيث أشهدوا على أنفسهم بذلك. واشتعلت الحرب بينهم بسبب هذا برا وبحرا وما زالت إلى الآن في هياج واشتعال.

الحروب الفرنسية الانجليزية

وهذه الأجناس المذكورة هي الاصبنيول ولامانيا وإيطالية والسوبسة[300] التي يسمونها(كذا) النصارى بسيسية وسابوية، ولم يتخلف عن الدخول في حزب هذه الحرب إلا البرتقال فقد دعوا طاغيهم إلى الدخول معهم فأبى ولم يدخل لهم حزبا ولا حربا. وكذلك جنس الجنويز لم يدخل لهم شقة، وكبيرهم هي إلى دوك يسمونه

---

[294]- في ن. م : مقاومته
[295]- في ن. م : مقاومتهم
[296]- في ن.ت: يقسمون
[297]- في ن.م : مقاومتهم
[298]- في ن.م ون.ح: حرب له
[299]- في ن.م : له
[300]- في ن. م : السوسة وفي ن. ت : سيسسة

كران دوكي، ومعناه الدوك الكبير، لما تحت يده من الولايات والعمالات، غير أنه لم يورط نفسه مع هؤلاء في حرب، وإنما هو مع الفرنسيس في مهادنة[301] اتفق معه عليها بجعل معلوم وسفائن معدودة في البحر حيث ما يطلبها يجدها، وبقوا مع سائر الأجناس في مهادنة.

وقد كان جنس الإنجليز والفلامنك قبل هذا أيضا لم يدخلوا مدخل هؤلاء الأجناس المسيحية في حرب، لأنهم لم يكونوا معدودين عندهم نصارى بسبب اختلاف ما بينهم من عدم المبالغة في اتباع البابا كما يتبعه سائر النصارى عبدة الصليب. والإنجليز والفلامنك هم حالة واحدة، وهم ينكرون على الصليبيين أمورا وأشياء ابتدعوها من الضلالة، وكلهم على سنن ضالة[302]، نسأل الله السلامة. وبسبب ذلك يسمون (كذا) المسيحيون هؤلاء الإنجليز والفلامنك الريكيس[303]، ومعناه الروافض. وحيث كان طاغية الإنجليز[304] توفي في أثناء عداوة المسيحيين بينهم، ولم يخلف ولدا يلي ملك أبناء جنسه من بعده، وخلف أخا له يسمى يعقوب[305]. وكان يعقوب هذا وزوجته يعتقدان دين النصرانية خفية من غير أن يعلم بهما أحد من قومهما، ولما أن مات أخوه وتعين الأمر عليه لم يكن له بد من توليته وإنزاله منزلة أخيه، فدعوه إلى التملك عليهم فامتنع وأبى تحيلا منه ومكرا، فحيث ألحوا عليه ورأى أن لا سبيل لهم بالتعدي إلى تملك غيره لعدم من يستحقه بالميراث، فقال لهم: لا أساعفكم إلى ما تدعوني إليه وتطلبونه مني إلا إن عملتم لي غرضا لا

---

[301]- أبرمت البرتغال و فرنسا معاهدة في مارس 1667 وظلت هذه المعاهدة سارية المفعول إلى غاية 16 ماي 1703 حيث اضطر البرتغاليون إلى إلغائها، ينظر:

Boudron (Albert-Alain), *Histoire du Portugal*, Paris 1994, p138.

[302]- في ن.م و ن.ح: سنن ضال

[303]- وهو يقصد اريخيس Herejes التي تعني هراطقة أو روافض أي الذين أنكروا عقيدة من عقائد الدين المسيحي ورفضوا الخضوع لسلطة البابا.

[304]- يتعلق الأمر بالملك الانجليزي شارل الثاني الذي توفي سنة 1685

[305]- يتعلق الأمر بجاك الثانيJacques II الذي حكم ما بين 1685 و 1688، وقد كان متزوجا من فرنسية. وكان له بنتان Mary وAnne، وقد تحول إلى الكاثوليكية، ولما أنجب إبنا من زواج ثاني تخوف الإنجليز من إرساء دعائم الكاثوليكية بالبلاد، وهو ما دعاهم إلى الاستنجاد بغيوم الثالث Guillaume III الذي كان حاكما في هولندا. واستغل محاولات لويس الرابع عشر للتغلغل في ألمانيا ليصل إلى إنجلترا إلىTorbay في 5 نونبر 1588 وهو ما دفع Jacques II إلى الفرار واللجوء إلى بلاط لويس الرابع عشر حيث توفي في Saint German en Laye

ضرر عليكم فيه، وهو أن كل من أحب دينا يتبعه. فوافقوه في ذلك وساعفوه، وألبسوه التاج وملكوه، فلم يرعهم إلا وأصبح هو وزوجته وقد علقا عليهما الصلبان، وأظهرا فرائليا من النصارى كان عندهما ودخلا الكنيسة وصليا بصلاة النصارى، وتبعه على ذلك من كان ببطانته عالما به، وأحب أن يحمل أبناء جنسه على اتباع دينه الذي أصبح متدينا به. فحين رأى جنس الإنجليز ما حل بهم من مخالفة ملكهم دينهم واتباعه دين أهل الصليب خافوا سريان ذلك الداء إلى عامتهم فلا يمكنهم حسم تلك المادة، وأنكروا على الطاغية ما فعله من التدين فدونوا ديوانهم مزمعين على قتله، فحيث أحس بذلك منهم هرب إلى ملك الفرنسيس، هو وزوجته واحتمى به فأزمع الفرنسيس نصرته ومحاماته كرها من الإنجليز ورغما على أنفهم، فخاطبوه في ذلك، وصار بينهم كلام كان من الانفصال فيه أن قال لهم: أنتم جميع لي عدو مثل سائر النصارى فاستعدوا لحربي إلى أن أرد الهارب إلى داره ومملكته بالرغم منكم.

فحيث حل بالإنجليز ما حل بهم من خروج ملكهم وتولد الحرب بينهم وبين الفرنسيس، ملكوا عليهم البرنسيي دورانجي[306] قيم جنس الفلامنك، إذ كانوا متدينين وإياهم بدين واحد في اختلاف ما بينهم وبين أهل الصليب، وتولى البرينسبي أمرهم ولقبوه بالملك. وأزمعوا على حرب الفرنسيس برا وبحرا، وحيث كانت بلاد الفلامنك ولانضة[307] مجاورة لبلاد فلانضس. وبلاد فلانضس[308] هي بالأصالة من جنس الفلامنك أيضا، وكانوا قبل على رأيهم ومذهبهم في التدين والاعتقاد. وحين صارت فلانضس عمالة لجنس الاصبنيول بانتقال القند زوج ابنة فرناند الذي كان بإشبيلية- كما قدمنا- وصارت فلانضس وجميع أحكامها إلى نظر طواغي اصبانيا، لزمهم بمالهم عليهم من الغلب أن يتنصروا ويكونوا على دين حكامهم، فنهض إليهم

---

[306]- ويتعلق الأمر بغيوم الثالث Guillaume III d'Orange الذي ولد في 4 نونبر 1650 وتوفي في 8 مارس 1702. كان غيوم من بين المعارضين للسياسة التوسعية الفرنسية في هولندا(1672). وأصبح زعيما لمعارضي هذه السياسة، واستطاع بعد زواجه من ابنة جاك الثاني Mary أن يزيح الملك الإنجليزي عن العرش، لكنه لم يتمكن من كسب الاعتراف الفرنسي به كملك إلا في سنة 1697.

[307]- يقصد هولندة

[308]- في ن. ح : فلانطيز

الفرنسيس هذه السنة بمحلة أصحبها ولده الدلفين[309] -أبعده الله- وأدركه هو بعد ذلك بنفسه، فخيم على قاعدتها مدينة مونص وحاصرها أياما قلائل ونصب عليها المدافع والبونبات، وضيق بهم تضييقا كثيرا. وكان بها من إذالة الاصبنيول إثني عشر ألفا، فحيث رأوا ما حل بهم من التضيق وخافوا الهلاك، أعطوا القياد فملك القاعدة وجميع ما هو مضاف إليها من عمالتها وقراها ومدنها. فقد زعموا أن ما هو محسوب عليها ومضاف إليها من القرى والمدن والعمالات ما ينيف عن سبعمائة بين مدينة وقرية. وحين فتحها دخلها يوم عيد الفصح، منتصف شهر أبريل من عامنا هذا، فترك المحلة صحبة ولده الدلفين ورجع إلى باريز دار مملكته وقاعدة بلاده. وما زال ولده اليوم مقابلا للبرنسبي دورانجي المملك على الجنسين الفلامنك والإنجليز، [وذكروا أن عدد جيش البرنسبي خمسة وسبعين ألفا ولهم عمارة في البحر مقابلة لعمارة الفرنسيس، زعموا أن عمارة الانجليز][310] هزمت عمارة الفرنسيس وأفسدت لهم أربعين سفينة.

الحروب الفرنسية الاسبانية

وحرب الفرنسيس أيضا مع الأصبنيول برا وبحرا، ففي البر حاصر مدينة تسمى قاطلونيا[311] في عمالة برشلونة وقبالة محلة لجنس الاصبنيول، ولى أمرها دوك مدينة صيدونية الملقب بقزمان. وقد كانوا أيام مقامنا بمادريد يخافون عليه الفرنسيس فأمدوه بجيش قليل لا بال له، وكانوا ينتظرون ما يكون بينهما، فزعموا أنه في هذا الشهر خيم عليها ونصب عليها وعلى مدينة برشلونة المدافع والبونبات وهد منها عدة دور، فنهض أهل برشلونة إلى من ببلادهم من جنس الفرنسيس وأمروا بخروج

---

[309]- استمرت الحروب الفرنسية الهولندية مدة طويلة بالرغم من المحاولات الهولندية لوقفها ولو أدى ذلك إلى أداء إتاوة للملك الفرنسي كما هو الشأن بالنسبة للمحاولة الأولى في 29 يونيوه 1672 ولم تتوقف هذه الحروب إلا في 10 غشت 1678.

[310]- ساقطة من ن.ف

[311]- استمرحصار الفرنسيين لقاطالونيا سنة كاملة من أكتوبر 1683 إلى صيف 1684.

سائر من هو بها من أعزب و لا يترك إلا من هو متأهل. وحين فعلت سفن الفرنسيس في برشلونة ما فعلت تقدمت إلى مدينة تسمى اليقنتي[فهدت منها أيضا بالبونبات ما ينيف عن ستمائة دار، فأحاط أهل اليقنتي[312]] بمن معهم أيضا من الفرنسيس وقتلوهم بحيث لم يفلتوا منهم أحدا، فزعموا أن عدة من قتل منهم باليقنتي ثلاثة آلاف نفس.

وحين سمع الاصبنيول بتقدم عمارة الفرنسيس إلى اليقنتي وبرشلونة، وكانت[عمارته[313]] قد ذهبت إلى البحر الكبير بقصد البحث عن سفن الهند لبطء إخبارها عنهم وفوات وقت قدومها بعادهم، وجهوا من استرجع العمارة لتتقدم نحو بلاد اليقنتي وبرشلونة لمحاربة عمارة الفرنسيس[314]، فلم تصل العمارة إلا وقد هد الفرنسيس ما هد وعمل ما عمل ورجع، فلم يدركوا بتلك الناحية أحدا من عمارة الفرنسيس.

وللفرنسيس أيضا حروب أخرى مع أهل بنيسية وإيطاليا ولامانية وسابوية، فإن بلاد سابوية هي في يد دوك يدعى دوك سابوية، كان قد دخل في حزب أهل الصليب في العداوة التي نشأت بينهم وبين الفرنسيس. وفي هذه السنة[315] تقدمت محلة للفرنسيين نحو سابوية وضيقت بأهلها تضييقا كثيرا وملكت جميع بلاد سابوية ومدنها وقراها حتى لم يبق للدوك القيم عليها إلا مدينته التي هو محاصر بها اليوم، وما زالت المحلة محيطة به ومحاصرة له[316].

وبسبب محاربة الفرنسيس للإنبرادور حسبما تقدم ذكر الأسباب المثيرة لها ينسبون له المعونة لملك الترك قواه الله، ويزعمون أنه يمده بما يحتاجه من الأمور الحربية

312- سقطت من ن. ح

313- سقطت من ن. ح

314 عول الأسبان أيضا على المساعدات الجنوية، حيث كانت جنوة تمدهم بالسفن، وهو ما أدى بالفرنسيين إلى الإندفاع نحو جنوة التي وصلوها ودمروا أسطولها في ماي 1684.

315- وضع ناسخ ن.ح في الحاشية ما يشير إلى أن السنة المقصودة هي سنة " 1077 كذا زعم بعد ذلك"

316- كانت محاصرة الفرنسيس لـ Savoye خلال صيف 1688

مثل المدافع وغيرها[317]، وبسبب مقام انباشدور للفرنسيس ببلاد اصطنبول[318]. يزعمون أنه يمده والصحيح أن أهل افرانسة هم أهل أسباب وتجارات، وجل تجارهم إنما هي في الناحية الاصطنبولية، ولأهل الأسباب والتجارات عند طاغية الفرنسيس- دمره الله- منزلة ومكانة، وإذ كانوا هذه السنين هم أهل ديوانه وجل بطانته، فكان يساعفهم فيما يؤول إلى منفعتهم من الأسباب والتجارات التي يعود نفعها ويحصل له بسببها من الأموال ما يحصل بخلاف غيره من الأجناس مثل الجنس الاصبنيولي، فإن التاجر عندهم لا يعد شيئا، وبسبب ذلك قل التجار من جنس الاصبنيول ولا تجد أحدا منهم مسافرا في بلد بقصد التجارة إلا ما كان في بلاد الهند. وأكثر من باصبانية من المتسببين والتجار هم الإنجليز والفلامنك والجنويز وغيرهم. فديوان الفرنسيس مع التجار من قومه هو بسبب ما يراه من المنفعة. وإلا فالترك يطلبون القوة والمعونة من الله تعالى لا كما يزعم هؤلاء الجهلة أهل الضلال أن انتقال الفرنسيس للانبرادور وحربه معه للترك بسبب استخلص في السنة الفارطة مدينة ابن الأغراض[319] وما حولها والله تعالى ناصر لدينه.

---

[317]- ظلت فرنسا وخلال كل حقب التاريخ العثماني تساعد الدولة العثمانية عسكريا وعندما فكر العثمانيون في إنشاء مدارس عسكرية عولوا كثيرا على التأطير الفرنسي ويكفي أن نذكر أسماء Le conte de Bonval وBaron de Tott لنتبين طبيعة هذه المساعدات.

[318]- سبق وصول السفير الفرنسي في استانبول الذي تمكن من تجديد الاتفاقيات العثمانية الفرنسية مرحلة حرجة في تاريخ العلاقات بين البلدين، ففي سنة 1660 قامت السلطات العثمانية بطرد السفير الفرنسي جون دو لاهاي بسبب تورطه في تهريب أسير نمساوي من سجن يدي قوله وبسبب المواقف الفرنسية من الحملة على كريت سنة 1660. وقد ظلت فرنسا، ولأول مرة منذ سنة 1535 بدون سفير إلى سنة 1665، وقد تفاقمت الأمور عندما تولى فاضل كوبرولى أحمد باشا الذي كان يكن عداء للفرنسيين والأوربيين بشكل عام، ولم يستطع Denis de Lahaye تجاوز أثار الأزمة التي سببها والده، ولم تستطع جهود السفير Marquis de Nointel الذي وصل إلى استانبول سنة 1670 أن تثمر منذ الوهلة وظل يعمل بلاكلل مدة ثلاث سنوات حيث استطاع في النهاية تجديد الاتفاقية الفرنسية العثمانية. ولاشك أن الظرفية الأوربية لعبت دورا أساسيا في ذلك. ينظر:

Mantran (Robert),*Histoire de l' empire Ottoman*,Fayard Paris 1989, p.245

[319]- والقصد منها بلغراد التي استرجعها السلطان العثماني من دوق بافاريا وفتحها في أكتوبر 1690

والذي ورد هذه الساعة من الأخبار عن ملك الترك –أيده الله– هو أنه جمع جموعا كثيرة وآل أن لا يثني العنان بحول الله وقوته دون مدينة باينا[320] (كذا) التي هي قاعدة لامانيا ومحط سريره. ولقد أخرجوا في أخبارهم التي يكتبوها على عوائدهم في هذا الشهر أن وزير السلطان سليمان[321] برز بمحلته وبها مائة ألف مقاتل[322][وخمسة وعشرون ألف مقاتل[323]] وأن جيش التتار قدم في ميعاد محلة الترك بثمانين ألف مقاتل، وصادف وصولهم الموضع المعتاد محلة لقبطان من خدام الانبرادور مخيما بموضع من المواضع معه ستة آلاف مقاتل، فحارب التتار محلة القبطان فأسروا من قومه أربعة آلاف رأس وقتلوا عدة و لم يفلت من الباقين إلا النزر الذي لا يعد لقلته. ومع الترك محلة أخرى لقند يسمونه التاكلي ، كان قبل هذا تحت ملك الترك بذمة وعهد وجذب بعد ذلك لرأسه، فلما أن وقع بمدينة ابن الأغراض ما وقع رجع التاكلي إلى نصرة السلطان سليمان أيده الله، وفعل بجنس أهل الصليب أفاعيل نوهوا به في تواريخهم بسببها، ولقد ذكروا أن الانبرادور كثيرا ما حاول أن يثني التاكلي عن ملك الترك فلم يقدر، ثم بعد ذلك أغار بعض أصحاب الانبرادور على قوم التاكلي فأسر منهم عدة، كان فيمن أسر زوجة التاكلي وبعض أولاده[324]، فأزمع الانبرادور قتلهم رجاء أن يثنيه فلم يفعل.

---

[320]- المقصود فيينا ويتعلق الأمر بخبر حصار فيينا سنة 1683.

[321]- اختلط الأمر على المؤلف فأشار إلى أن الحملة على فيينا كانت في عهد السلطان الذي كتب في عهده وهو السلطان سليمان الثاني (1687- 1691) . والواقع أن الأمر يتعلق بالسلطان محمد الرابع (1648-1687). أما الوزير المقصود بتوجيه الحملة على فيينا في يوليوز – شتنبر 1683 فهو مصطفى قره باشا الذي تم إعدامه في نفس السنة (25 دجنبر 1683).

[322]- تختلف المصادر دائما عندما تكون بصدد إيراد الأرقام، ولكن الرقم الذي يورده الغساني يقارب الأرقام التي توجد في المصادر العثمانية و الأوروبية، فهذا Hammer يشير إلى أن الجيش الهمايوني كان يتكون من 162.000 جندي منهم مائة ألف منتشرون على مساحات واسعة و 60000 مشاركا في الحصار ينظر. Hammer, *Histoire*… T. XII. p. 508- 510

[323]- سقطت من ن. ح

[324]- سجنت زوجة التاكلي وأولادها في Munkacs زمن الحصار من سنة 1685و 1688.

فحينئذ حبس الانبرادور زوجة التاكلي ومن أسر معها وما زالت إلى الآن عنده [تحت نظره[325]]، وازداد بذلك التاكلي جرأة وتماديا على أهل الصليب -دمرهم الله- ، وما زال الانبرادور -قبحه الله- يستغيث بأهل الصليب ويجعل بينه وبينهم المهادنات ممن والى بلاد الترك ليكونوا له معونة باشتغال المسلمين قواهم الله مثل جنس يسمى بلونيا[326]. فإن بلونيا هذه جنس من أجناس النصارى دمرهم الله ولهم عمالات وبلاد موالية لبلاد الترك، ولهم طاغية هو في حرب مع الترك أيضا[327].

وزعموا أن الانبرادور كان يريد أن يدخل معه في حرب الترك جنس مسكوبيا[328]، وهم في بلاد من ناحية الشمال، فحاول منهم ذلك إلى أن أجابوه، ثم وقع بينهم ما أوجب المنافرة والوحشة، ويزعمون أن طائفة من التتار بينهم وبين إخوانهم منافرة، وهم تحت عهد طاغية مسكوبيا بذمة، ويزعمون أن لهم عددا كثيرا أخلى الله من جميعهم [وجه[329]] الأرض وعمرها بدوام ذكره وتوحيده ونصر دينه القويم.

المجتمع الاسباني

ولجنس الاصبنيول عادة فيمن يحب[330] الكبيرة و لم يظهر له من أين يدركها أو لم تكن له يد عند المخزن يلحق بها ما يعيش به ويكفيه عن معاطاة الأسباب

325- سقطت من ن. ح

326- في ن. ح : بولونيا

327- بدأت بولونيا تخوض حروبا ضد الدولة العثمانية منذ أن قررت روسيا وقف الحروب فيما بينها بموجب هدنة وقعت لمدة 13 سنة في الستينيات من القرن السابع عشر. و قد استعملت بولونيا هذه الهدنة وسيلة للضغط على الدولة العثمانية، وقد ورد ذلك على لسان القائمقام التركي الذي قال "تقولون أنكم عقدتم سلاما مع روسيا، إن هذا الأمر لا يزعجنا، واعلموا أن الملوك السبعة أو التسعة الذين حاربوا الدولة العلية لم يمكنهم أن ينتزعوا ولو شعرة من اللحية بقوة الله وجاه نبيه"

.Hammer, *Histoire*…. T.XI, p. 259-260

328- ويقصد الروس، إذ يظهر أن الفشل العثماني أمام أسوار سنة 1683 أيقظ شعورا بالخطر داخل أوروبا تم استغلاله من قبل الأسبان الذين حاولوا استمالة كل بلدان الجوار للدولة العثمانية وانضمت كل من بولونيا والنمسا وروسيا إلى الحلف البابوي وقادت معارك ضد الدولة العثمانية خلال سنتي 1683 و 1684.

329- سقطت من ن. م

330- في ن.ح : يريد

وغيرها بأن يقصد بلاد لامانيا على بعدها ويحضر هنالك لحرب مع المسلمين أعزهم الله، ويجعل بيده إشهادا وبينات تثبت له خدمته ونصيحته وبذل مجهوده، وحين يرجع إلى بلاد اصبانيا يستظهر بالإشهاد الذي بيده ويدلي بحجة الخدمة وصدق النية فيما كان توجه إليه، فيدرك بذلك من الكبيرة ما هو له أهل أو مثل ما يدرك أمثاله الذين لهم يد أو لهم حجة يطلبون بها ذلك. وهذه من عوائد الشلظاظ منهم من الذين يحبون الكبيرة، وإن كان من نسل أعيان أهل بلاده وكان لوالده لقب من ألقاب كبيرة مثل الدوك[331] أو القند أو المركيز وأكدها، أو من هو دونهم في المترلة، و لم يكن له ميراث يرث به كبيرة والده، يتقدم إلى محلة من المحال وأكثرها بلاد لامانيا، فيحضر هنالك حربا أو لم يحضره، (كذا) فحين ينقلب يأتي في يده بإشهاد من رئيس المحلة بأن حضر معه حرب كذا في موضع كذا وأبلى بلاء حسنا وفعل و فعل سواء فعل ذلك [أولا[332]]، فيطلب مترلة أو راتبا يتسع فيه حاله. لأن من عوائدهم في الميراث إنما هو للبكر من الولد ذكر كان أو أنثى، فإذا مات أحد من الأعيان من الملقبين بهذا اللقب يورث ذلك للبكر بجميع متروكه بحيث لا يرث غيره معه من إخوانه شيئا ولو كانوا بعدد كثير، وليس لهم إلا ما يمنحهم والدهم في حياته بعطية أو هبة أو صداق يصدقه البنت لأن من عاداتهم إعطاء الصداق مع البنت، فإذا كانت البنت هي الوارثة لكبيرة والدها وصادف تزويجها بعض من له لقب من ألقاب كبيرتهم مثل لقبها أو أكبر منها يتولى جميع ميراثها وتصير تلقب هي بلقب الزوج. وإذا صادف تزويجها بعض أولاد الأكابر ممن ليس له لقب و لم يكن وارثا لأبيه يحصل هو بتزويجه إياها على كبيرتها ويصير ملقبا بلقبها، ومن أجل ذلك يتعطل تزويج بعضهم ممن ليس بوارث لتشوفه إلى تزويج ابنة أحد الأعيان ممن لها ميراث. وأما إذا لم يكن لها ميراث فعادتها في الصداق هو أن يمنحها والدها مائة ألف ريال لا يزيدون على ذلك بتقدير من الطاغية[والريال عند الإصبان هو جزء من عشرين من الدورو،

---

[331]- يضع صاحب ن. ح هامشا لتفسير معنى الدوك قائلا" الدوقية لقب شرف عند الأعجام ويوجد في أنساب الأندلس لقب الدوك إلى عهدنا هذا ولكنه لا يدل على رفعة أو مزية لكون الإسلام لا يعترف لنصراني بشرف أو رفعة أصلا، قاله مقيدة محمد بن علي الدكالي... الله يخفي لطفه." : (و . 46)

[332]- سقطت من ن. م

والدورو هو الريال المصطلح عليه عند أمم أخرى بكونه خمس فرنكات أو خمس الويز الذهبي، فيكون الصداق المذكور أعلاه هو عشرين ألف دورو من قسمة مائة ألف على 5 يخرج 20 ألفا[333]].

ولهم في الميراث عادات ليست جارية على قانون واحد في ميراث الكبيرة مثل ما لوزير من وزراء طاغية اصبانيا يسمى قند اصطابلي، مع أنه معروف عندهم في الكبيرة، وذلك أن عادته الموروثة من أسلافه إذا مات و لم يخلف ولدا ذكرا فإن ميراثه وكبيرته لا يرثها أحد من ذوي قرابته، وإنما يرثه رجل أجنبي من خدامه الأول منهم فالأول. فإذا مات ينظر أي خدامه أسبق وأقدم في الخدمة، فيتولى جميع مترلته وكبيرته من وزارة وغيرها، وإذا اختلف في أي خدامه أقدم وأسبق يعين ساعة معروفة ويخرج من داره من هو معروف عندهم بالأمانة والثقة في دينهم، فحين يخرج أول مار هم يدعونه ويولونه تلك المترلة سواء كان من ذوي الأقدار أو من سائر الناس، فيأخذونه ويذهبون به إلى طاغيتهم فيبحثوا أمام الطاغية ساعة، وبعد ساعة يأمره بالوقوف عن يمينه موضع الوزير المتوفى، ثم يأمره بعد ذلك بتغطية رأسه وقد تولى تلك المترلة واحتوى على جميع أمتعته وأملاكه وبلدانه وعمالته، لأن من عادة هؤلاء الأكابر الذين عند العجم لهم في يدهم ولايات ومدن ورثوها حين تغلبهم على هذه البلاد، وأعطوها تلك الساعة فلا تنتزع من يد أحد من خلف ذلك السلف الذي ولي شيئا منها. ولهذا [القند[334]] بنت ولد أخ لكنهم لا يرثون منه شيئا لخلوهم[335] عن عادة الميراث. وله ولد ابن زنى لا يرثه وهو حاكم قالص اليوم أخزاه الله.

ولهم عادة أخرى أيضا عند رجل يدعى البرينسبي برشلونة من ناحية قاطالونيا مات وخلف ابنة من أجمل أهل زمانها، وخلف لها من الأموال والأمتعة والذخائر والضياع والمدن والقرى ما لا يحصى، وفي ميراثها منه جميع متخلفه وأن لا

333- سقطت من . م ومن ن.ف ومن ن.ت ، ولا شك أن هذه الإضافة هي من تعليق ناسخ ن.ح أدمجها في النص على غير عادته.

334- سقطت من ن. ح

335- في ن. ح : فخلوهم

يتزوجها إلا من يغلب أترابه بمحضرها بعد المحاربة. وحين توفي والدها وشاع خبر ميراثها في سائر أجناس أهل الصليب، ورد جميع أولاد الأكابر والأعيان من كل فج يطلبون البراز أمامها ويروم كل واحد منهم أن ينالها، وأجل ذلك عندهم ستة أشهر.

فحين يأتي الرجل الذي يريد البراز مع الغير يترل خارج المدينة بعد أن يمر عليها وتراه وتعرفه، ويتواعدون ليوم معلوم فيخرجون إلى موضع المبارزة، ويركب كل واحد من المتبارزين فرسه بعد أن يستعد ويلبس من الحديد والدروع ما يقدر عليه، ويجعل في يده قناة مركبا في رأس حربتها حجرة من اليمنط[336] بحيث تحبس في الحديد ولا تزهق عنه، ويقصد كل واحد منهما صاحبه ويضع القناة في صدره ويتدافعان، فأيهما أردى[337] صاحبه عن فرسه صار هو الغالب إلى أن يغلب فينعزل ناحية، وتصير حينئذ المرأة هي التي تنفق إلى أن ينتهي أمد[338] الأجل المذكور. ولا يبقى من يقوم لذلك القصد، فحينئذ يخرج المنعزلون أيضا من جميع من غلب ويتبارز رجل مع آخر، فأي ذلك العدد المنعزل غلب أيضا صارت له الزوجة بالميراث الذي لها. ولقد زعموا أنه ورد من الأعيان جماعة تبارزوا، وكان من بينهم شاب ابن عم طاغية الفرنسيس أعجبها حين رأته، وبعثت له هدية وضيافة لم تكن من عادتها توجهها لأحد في اليوم الذي يقدم فيه، ووقع بقلبها منه ما وقع[339].

ومثل هذه المسألة وأشباهها من الأمور الجارية على غير قانون واحد هي عوائدهم في الميراث، كل وما يراه برأيه قبل موته. وللرجل عندهم النظر في جميع متاعه وماله إن أحب أن يعطيه لأجنبي أو أجنبية أو يخلي أولاده من الميراث فلا حجر عليه فيه، وإذا ورث متاعه للغير أو ورثه الغير بمصاهرة بأن يتزوج أحد ابنته بعض من له لقب الكبيرة، وكانت هي التي ورثت والدها وليس لزوجها لقب أو كان له لقب

---

[336]- في ن. ح : حجزة من الخيط
[337]- في ن. م وفي ن.ف : أذرا
[338]- في ن. م : آخر
[339]- أعقب هذا بياض في ن. ح وأشار إليه الناسخ وتجاهله صاحب ن. م

دون لقب زوجته صار هو يدعى بلقب والد الزوجة، و يحتوي على جميع ذخائره وأمتعته، وأولاد الرجل الموروث يلقبون بلقب غير لقب والدهم[340].

ومن أجل ميراث النساء على هذه الصورة صار هذا الجنس الاصبنيولي يتوقعون تولية الفرنسيس عليهم بإحد الأمرين، إما بالميراث إذا لم يولد لطاغيتهم، وذلك أن الفرنسيس كان تزوج ابنة فلب كوارط[341]، أخت هذا الطاغية لأبيه، فولدت من الفرنسيس ولدا يسمى الدلفين[342]-أخزاه الله- ظهر له من المكر والخبث أكثر مما لوالده دمرهما الله. فإذا مات هذا الطاغية كرلوس شكوند و لم يخلف من يلي ملك اصبانيا من نسله صار ملكها لولد الفرنسيس بالميراث من قبل أمه[343]. وإما بما يظهر لهم اليوم من حربه معهم وتقدمه بنفسه إلى المحال والحروب وعجز طاغيتهم عن التقدم بنفسه وعدم نهوضه في جميع زمانه إلى حرب وقتال. وبسبب هذين الأمرين وتوقعهم ولايته عليهم صاروا يتعلمون لسان الفرنسيس ويعلمونه لأولادهم في المحافل والمحاضر من غير مبالاة[344] بطاغيتهم ولا اكتراث.

وما وقع هذه السنة من الفتك بالفرنسيس وقتلهم إياه يثير بينهم من الحنق ما يشغلهم ويضرم نيران عداوتهم بينهم، وقد كانوا فيما قبل موت البابا المتوفى هذا العام[345] يزعمون أنه يحاول صلحا فيما بينهم ثم مات أبعده الله، إلا أن الفرنسيس حيث كان وقع بينهم وبين البابا ما تقدم من المنافرة صار يحدث لنفسه أحكاما وأمورا دون البابا.

وسبب مخالفة الفلامنك والإنجليز لأديان الصليب فيما قيل أن بعض الفرايلية كان وقع له مع البابا تنافر ومشاحنة، أدى ذلك إلى أن سجنه سنين. وحيث وقع

---

[340]- في ن.م : والدها

[341]- كان لويس الرابع عشر قد تزوج بنت فليب الرابع لغرض وراثة عرش إسبانيا ، وقد تم الزواج بماريا تيريزا في 9يونيوه 1660 أي قبل ولادة كارلوس الثاني بسنة واحدة.

[342]- هو لقب يطلق على البكر من أولاد الملك الفرنسي، والمقصود به هنا لويس ابن لويس الرابع عشر ووالد فليب دي انجو De Anjou الذي اعتلى عرش اسبانيا بعد حروب طويلة وسمي فيما بعد بفليب الخامس FelipeV .

[343]- صدقت تكهنات الغساني إذ بعد موت كارلوس الثاني اعتلى عرش إسبانيا حفيد ملك فرنسا فليب دي أنجو باسم فليب الخامس وذلك بعد حرب طاحنة عرفت بحرب الميراث.

[344]- في ن.ح : مبالاتهم

[345]- يتعلق الأمر بالكسندر VIII الذي سبقت الإشارة إليه.

لهم السراح نفروا من البابا وانحازوا إلى طاغية الفرنسيس[346]، وصاروا يحدثون له من الديانات ما يوافق هواه إلى أن جوزوا له تزويج امرأة كان عشقها، وأحلوا له أخذها مع زوجته الملكة ، وقد كان البابا نهاه عن ذلك ومنعه من التزويج مدة حياة زوجته، فخالف البابا في ذلك وعمل ما اشتهته نفسه ودعاه إليه قلبه، مع أنه لا يحل لهم في دينهم تزويج أكثر من امرأة واحدة.

الصيام عند المسيحيين

وهذا البابا المذكور لا يقدر أهل الصليب على مخالفته في شيء قل أو جل، حيث كان يحدث لهم الديانات والأحكام والأكل في أيام الصيام وغير ذلك مما هو مخالف فيه لنصارى الشرق، وإن كانوا كلهم على ضلال قبحهم الله وأخلى منهم الأرض. وذلك أنهم في صيامهم يأكلون اليوم كله ويزعمون الصوم كما شاهدناهم، وذلك في آخر شهر فبراير يجعلون أعيادا ومواسم يحتالون فيها للصوم، فإذا كان[أول يوم من شهر مارس فهو[347]] أول يوم من أيام صيامهم، وهي ستة وأربعون[348] يوما المفروضة على بني إسرائيل، والستة الزائدة هي كل يوم [أحد][349] دخل في هذه الأيام التي هي أيام الصوم فتجمل في ذلك ستة وأربعون يوما. وهذا الصوم الذي يصومونه ليس هو بإمساك عن أكل أو شرب أو جماع، وإنما هو إمساك عن أكل اللحم فيما يزعمون، إلا من كان من الأعيان منهم أو من به عذر من مرض فإنه يأكل اللحم بأمر من البابا، وغيرهم من العموم يأكل الحوت في جميع أيام الصوم. وقد أحدث لهم أيضا فيما أحله لهم أكل بيض الدجاج في أيام الصوم بعد أن يأخذ الإذن من الفرايلية ويعطي على ذلك جعلا معلوما قدر ثمن ريال عن كل نفس

---

[346]- هذه الواقعة كانت لملك انجلترا هنري الثامن الذي انشق عن الكنيسة الكاتوليكية و أسس المذهب الانكليكاني، ونسبها المؤلف خطأ إلى ملك فرنسا.

[347]- سقطت من ن.ح

[348]- كذا في جميع النسخ ولعله يريد قول "أربعون يوما".

[349]- ساقطة من ن.م و ن.ح.

صغيرة أو كبيرة، فيتحصل من ذلك مال كثير للطاغية فيه الثلث يصرفه على سفنه البحرية، فتجد الرجل المسكين الذي لا يملك درهما يتطلب في الأسواق ليجمع ما يشتري به البولية[350]، وهي الإذن في أكل البيض.

وأكلهم أيام الصوم هو سائر اليوم، فإذا انتبه النصراني من نومه وقت الضحى أو بعده يشرب كأسا أو كأسين من الشكلاط مع ما يقدر من البشكونشوا[351]، وهو خبز معجون بالسكر وصفرة البيض. فإذا انتصف النهار ومرت بعده ساعة يأكلون أكلا ذريعا، فمن كان من الأعيان الذي لا حرج عليه أو اعتذار بمرض يأكل من اللحوم أيها شاء، ومن لم يكن من الأعيان أو نوى الصوم في زعمه يأكل [لحم[352]] الحوت والبيض وغيره ويشرب من الخمر ما شاء صرفا أو ممزوجا، ومتى عطش يشرب على اختياره، حتى إذا انتصف الليل يأكل ما خف قدر نصف رطل في زعمه فيبيت إلى الغد إلى حين انتباهه من نومه يشرب على العادة، وهكذا سائر أيام الصوم. إلا أن الفرايلية لهم إذن في الأكل أيام الصوم قبل انتصاف النهار بنصف ساعة، وعذرهم في ذلك أنهم يبيتون من الليل في التهجد والعبادة في زعمهم، وغير الفرايلية لا يأكل إلا بعد انتصاف النهار.

ولهم في أيام الصوم يوم زائد على يوم الأحد في استماع الكفر والدخول إلى الكنائس وهو يوم الجمعة رجالا ونساء، وعندهم من القربات أن يمشي الإنسان ذلك اليوم راجلا فيترل من على فرسه أو من كدشه ويتمشى ساعة ومتى عطش شرب. ويستمرون على صومهم على الوصف المذكور إلى أن تمر ثمان وثلاثون يوما، فتدخل عندهم الأعياد التي جمعوها في هذا الصوم حسبما يزعمون وقوع ذلك للمسيح في اعتقادهم، فإذا كان اليوم التاسع والثلاثون كان عندهم عيد الشعانين.

350- البوليه La bola أي التفسيح وهو الإذن الكنسي الذي يسمح لحامله الأكل في الأصوام لعذر يقدمه.

351- في ن. ح : البشكوتشو

352- سقطت من ن. م

عيد الشعانين

وعيد الشعانين هو يوم دخول المسيح بيت المقدس على ما في إنجيلهم المتداول بينهم وأن المسيح لما دخل بيت المقدس في ذلك اليوم خرج جميع بني إسرائيل لملاقاته وقد فرشوا الطريق والسكك بالجريد وورق الشجر، وفيه كان بنو إسرائيل يتطلبون عليه شهادة ليمسكوه ويقتلوه، فآمن به في ذلك اليوم جمع كثير على ما هو مذكور في إنجيلهم، فلم يمكنهم إمساكه و لا الإنكار عليه في ذلك اليوم لكثرة من آمن به. فأعد النصارى ذلك اليوم عيدا يجتمعون فيه إلى الكنيسة ويخطبون ويذكرون شأنه وما وقع له ويخرجون الصليب ويطوفونه في الأزقة، وفي يد كل واحد من الحاضرين جريدة من نخل أو عود من أعواد الزيتون أو غيره من الأشجار الرطبة اللينة كالرند وما أشبهه ويردونه إلى موضعه.

ولقد رأيت الطاغية ذلك اليوم وقد دخل كنيسة في داره وسمع بها من الكفر والعياذ بالله، ما ألقاه عليه وعلى الحاضرين القسيس قيم الكنيسة، وخرج بعد ذلك هو وجميع القسوس والرهبان والسوبيسب[353] ومعناه المفتي، والنوسي الذي هو خليفة البابا[354]، وقد ألبسوا الرهبان ثيابا فاخرة من الحلل المرصعة، في يد كل واحد منهم جريدة من نخل وقد حملوا صليبا من فضة أمامهم، وعلى الصليب صورة مغطاة بكسوة من حرير، وبين أيديهم جماعة من الفرايلية الصغار الذين يحسنون الغناء، ومعهم آلة الطرب من الموسيقى وشبهها، وفي يد الفرايلية ورقات يقرأونها بألحانهم، وخلف هؤلاء الفرايلية أكابرهم وخلفهم الأعيان من خواص الطاغية، وهو خلفهم

---

[353]- في ن.م : الشدبشب. وقد أخطأ الناسخ في رسم الكلمة والتي يقصد بها المؤلف Arzobispo وهو رئيس الأساقفة.

[354]- يقف ناسخ ن. ح في هامش عند تفسير هذه الوظائف قائلا : قول المؤلف هنا القسيس قيم الكلمة الذي عند ابن سعيد المغربي الأندلسي الغرناطي إن القسيس هو كالمقرئ للقصص ونصه في تاريخه و... للنصارى بمنزلة أئمة أصحاب المذاهب عندنا والأساقفة المفتيون والقسيس المقرئ و... إمام الصلاة كالخطيب عندنا والشمامسة القوام والمؤذن أنتهى، أعني القائمين بضرب النواقيس في هياكلهم. قاله مقيده هنا محمد بن علي سامحه الله تعالى. (و 50 (ب)

وفي يده جريدة من نخل قد غشوها بالأزهار، فطافوا به دار الطاغية وردوه إلى موضعه من الكنيسة. وكذلك يجعلون في كل كنيسة من كنائسهم، فتلقى ذلك اليوم وبعده جميع النصارى وبيد كل واحد منهم جريدة من نخل أو عود من الزيتون أو غيره من سائر الأشجار.

وفي ذلك اليوم[حيث[355]] حضر الطاغية عيد الشعانين ولم تحضر معه زوجته، بعث إلينا يعتذر عن عدم خروجها وحضورها لمرض منعها عن الخروج، وكان لنا بذلك علم فاعتذر لنا من ناب عنه في الاعتذار.

ومن الغد يجتمعون أيضا في الكنائس ويخطبون ويذكرون ما وقع للمسيح بعدما وقع للشعانين مع بني إسرائيل حيث كانوا يتألبون عليه ويتشاورون في قبضه وقتله، فإذا كان اليوم الرابع والأربعون كان عيد الفطر من الصوم وهو المسمى بالفصح.

عيد الفصح

وفي هذا اليوم يجعل الطاغية طعاما معدا للمساكين ويدعو ثلاثة عشر رجلا من الفقراء ويدخلهم بيته ويجلسهم في مراتبهم ويأتي السوبيسب[356] المفتي والنوسي خليفة البابا ويحضران مع الطاغية في تناوله الطعام للفقراء المذكورين بيده، ويتصرف بين أيديهم في تقديم الأواني وتخليفها ورفعها مثل الخديم الذي يناول مخدومه، حتى يدفع لكل واحد من الفقراء الثلاثة عشر ثلاثين آنية من الطعام ليس فيها من اللحم شيء لعدم أكلهم اللحم في أيام الصوم، وإن كانوا اليوم يوم فطر من صوم، فإنهم أدخلوه في الستة الزائدة على الأربعين كما قدمنا، وإنما يطعمهم جميعا[الحوت على اختلاف أنواعه ويكمل عدد الثلاثين آنية بأنواع الفواكه الرطبة واليابسة حتى

355- سقطت من ن. م

356- في ن. م : الشديشب. وفي ن.ف البوسب

يطعمهم جميعا][357]، ويناولهم الشراب والخمر. فإذا فرغوا من الطعام جاء رئيس الكنيسة و [حبس[358]] في يده الطست والنوسي خليفة البابا الماء والطاغية يغسل أقدام هؤلاء الفقراء جميعا وينشفهم بمناديل معدة لذلك[359]، وعند فراغه من تنشيف أقدامهم يقبل قدم كل واحد منهم ويعطيه كسوة ودراهم. وينصرفون بجميع ما دفع لهم وبالطعام الذي فضل بأوانه، فتجدهم يبيعون ذلك بالأزقة بزحام لاعتقادهم في ذلك الطعام بركة. وكذلك تجعل زوجته وأمه فكل واحدة منهما تطعم ثلاثة عشر امرأة من الفقراء على وصف طعام الفقراء الذين أطعمهم الطاغية. وهذا الغسل في زعمهم على ما في إنجيلهم هو قربة وسنة فعلها المسيح فيما يرونه يوم الفصح. وذلك أنه لما كان يوم الفصح وأحب المسيح أن يفطر من صومه قال له تلامذته: أين تريد أن نعد لك الفصح لتأكل، فقال لهم: اذهبوا إلى الموضع الفلاني لموضع سماه لهم حتى يلقاكم رجل يحمل جرة ماء فاتبعوه إلى الموضع الذي يدخل إليه وقولوا لرب الدار أن المعلم يريد أن يأكل الفصح عندك، فذهبوا ووجدوا الرجل الحامل لجرة الماء وتبعوه إلى الموضع الذي وصف لهم، وقالوا لرب الدار إن المعلم يقول لك أعد له الفصح ليأكله عندك. فهيأ ذلك الرجل الفصح، وأتى المسيح مع تلامذته وهم ثلاثة عشر رجلا، فأكل معهم الفصح، ولما فرغ من الأكل قام على قدميه وأخذ منشفة شد بها وسطه وجعل يغسل أقدام أصحابه واحدا واحدا، ولما انتهى إلى سمعان الصفا قال له: أنت تغسل قدمي، فقال المسيح إن الذي أصنعه لست تعرفه الآن ولكنك ستعرفه فيما بعد. فقال له سمعان: لست بغاسل لي قدمي إلى الأبد، فقال المسيح: الحق أقول لك إن لم أغسلها فليس لك معي نصيب، فقال له حينئذ سمعان: يا سيدي لست تغسل لي قدمي فقط بل ويدي ورأسي، فقال المسيح : فإذا كنت أنا معلمكم قد غسلت أرجلكم فأنتم أحرى أن يغسل بعضكم أقدام بعض، وإنما أعطيتكم هذا

[357]- سافطة من ن.م و ن.ح
[358]- سقطت من ن. م
[359]- يشير بذلك إلى رتبة خميس الغسل والعشاء السري.

مثلا لأني كما صنعت بكم تصنعون أيضا. فهذا هو السبب الذي لأجله تغسل أقدام هؤلاء الفقراء، وكذلك يجعل الأعيان والأكابر ومن له وجاهة ومال.

وقد زعموا أيضا أن المسيح لما كان يأكل مع تلامذته الفصح قال لهم : إن أحدكم هو الذي يسلمني الليلة، فجعل كل واحد منهم يتبرأ ويحلف، وكان في التلاميذ الثلاثة عشر رجلا يسمى يهودا الأسخريوطي، زعموا أنه كان من التلاميذ ووسوس له الشيطان أن اتفق مع اليهود المتألبين على المسيح، وباعه لهم بثلاثين[360] من الفضة وأسلمه لهم ليلة القبض عليه، إذ كان في البستان يصلي ليلا، وأتى يهودا هذا مع الحرس الذين أتوا لقبضه [وحيث يطعم الفقراء في يوم الفصح][361].

ولما كان العيد يخرج سائر النصارى والقسيسون والرهبان والخصوص منهم والعموم، ويخرجون جميع ما عندهم من الصلبان والصور التي يعبدونها، ويطوفون بها في جميع أزقة المدينة، وقد حملوا الشموع الموقدة نهارا ما لا عد له. ولا يقدر أحد يرتفع[362] عن حمل الشموع والمشي أمام الصلبان والصور، ويقصدون بذلك من كنيسة إلى أخرى مظهرين مع ذلك حزنا و ترحا وأنه في زعمهم كذلك فعل بالمصلوب، فيمرون بصورته قاعدا في بستان يصلي، وقد نزل عليه صورة ملك في يده كأس المنية وهو يتلقاه بيده، ثم وهم يمرون بصورة أخرى ومعها من الحرس طائفة زاعمين أنهم كذلك تألبوا على المسيح. ثم يمرون بالصورة وقد [جلد وأثر الجلد باق على كتفيه، ثم يمرون بالصورة وقد][363] حمل صليبه على كتفه، ثم يمرون به مصلوبا، ثم يمرون به بعد ذلك في نعش محمولا بعد أن نزل من الصليب. فمن النصارى من يمثل نفسه بذلك المصلوب فيغطي وجهه زاعما أنه يختفي ولا يعرف إلا أن خلفه خديما له أو صاحبا يحفظه ليلا يلحقه غشيان من كثرة الجلد الذي يجلد ظهره، فتجد الدم منحذرا على رجليه، وبعضهم يصلب نفسه وجسده فيربط يديه

---

[360]- في ن. ح : ثلاثة

[361]- سقطت من ن.ت

[362]- في ن. ح : يترفع

[363]- سقطت من ن. ح

ورأسه على عمود من حديد ويمر كذلك في الأزقة أيام البرستسيون[364] وقد غطى وجهه لئلا يعرف.

ومن الغد يخرجون أيضا بصورة المصلوب وقد صلب ويمرون بعد ذلك به وقد أنزل من الصليب، ثم يمرون به وقد دفن في القبر ويقرأون مع ذلك ألحانا محزنة فيدخلون الكنيسة ويخفونه ويطفئون المصابيح والشموع، ويعلقون على الكنيسة ثيابا سودا ويغلقون أبواب الكنائس ولا يضرب لهم (كذا) ناقوس، ولا يركبون كدشا ولا فرسا مدة أيام البرستسيون وإنما مشيهم في جميع الأيام المذكورة على أرجلهم خصوصا وعموما. وقد ذكروا أن كوان أوسطريا أخ هذا الطاغية المتقدم الذكر هو الذي منعهم من الركوب أيام البرستسيون.

ومن الغد وهو اليوم الثالث من الفصح عند منتصف النهار يفتحون الكنائس ويشعلون المصابيح ويوقدون الشموع ويزيلون المعلقات السود ويبدلونها بألوان أخر(ى) ويضربون النواقيس[365] ويفرحون، ويطبعون قراطيس صغارا فيها صور زاعمين أنهم(كذا) صور الملائكة، ويكتبون بين الصور حروفا بالكلدانية وهي الوليا[366]، ومعناها أفرحوا افرحوا. فحين تضرب النواقيس تتطاير القراطيس بينهم ويتلقونها ويتهادونها بينهم فرحين مسرورين في ظنهم بشرى رفعها لاعتقادهم الفاسد صلب المسيح ودفنه ورفعه من القبر، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وأن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم علم به من علم إلا اتباع الظن، وما قتلوه يقينا[367] بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزا حكيما[368].

---

[364]- البرستيسون أي ما يعرف عند مسيحيي الشرق بالزياح أو التطواف Procesion

[365]- في ن. ح : النواقيص

[366]- الوليا أي الهللويا

[367]- سورة النساء ، الآية 155

[368]- سورة النساء، الآية 156

ولقد اغتر هؤلاء الضلال بما عليه مصممون من الاعتقاد الفاسد والضلال البين والتنكب عن النهج القويم والمحجة البيضاء ودلاهم الشيطان بغرور أضلهم عن سواء السبيل، فلقد تصمموا على الكفر، ونهج بهم البابا-قبح الله سعيه- منهجا حائدا[369] عن الطريق، هو ومن اتبعه من أبناء جنسه الذين على مذهبه وطريقه بما يسري منه إلى العامة من الداء العضال والمادة التي لا يحسمها إلا السيف. فإن من عامتهم من إذا تكلم معه ويسمع عن الدين وما عليه المسلمون من النهج المستقيم يصغي إلى ذلك ويشكره ويستحسنه ولا يأنف من سماعه كما شاهدناه منهم مرارا. والمردة من طلبتهم ورهباهم هم أشد عداوة وأكثر قساوة، وأكبر الأشقياء تصمما على الكفر والعياذ بالله، فلقد لقينا من طلبتهم والفرايلية الذين يدينون بهم جماعة، وتكلمنا في أمور ما يدعونه من الدعوى في المسيح - تعالى الله عن قولهم- فوجدناهم أفسد الناس اعتقادا وأكثرهم تصمما.

ولقد وجدت بمادريد راهبا من رهباهم ورد من البلاد المشرقية يتكلم باللسان العربي، وله خبرة ببعض أديان [المشارقة[370]] المسلمين لمخالطته معهم وسكناه بين أظهرهم، وتجاولنا في الكلام إلى أن قلت له: ما تقول في المسيح؟ فقال: إنه من الله، فقلت له: من هذه إن قلت أنه كالبعض من الكل [جزأته[371]] (كذا) والباري جل جلاله لا يتجزأ، وإن قلت أنه كالولد من الوالد أوجبت ثانيا من الأولاد وثالثا ورابعا إلى ما لا نهاية له، وإن قلت على سبيل الاستحالة أوجبت فسادا،

---

[369]- وقد كتبها البستاني : جائرا

[370]- وضع صاحب ن. ح هامشا في التعريف بهذا الراهب قائلا : " الراهب المشرقي العربي اللسان الذي لقيه بمادريد هو ميكاييل القصيري الماروني الشامي من رؤساء الديانة ، استجلبه ملك الاصبان لترتيب خزانة الاسكوريال ، وقد ألف لها برنامجا كبيرا في مجلدين وقفت عليه وقيدت كثيرا عام 1343 من فوائد وأسماء كتب مولاي زيدان السعدي مما بقي محفوظا من كتب خزانته المغصوبة ، وقد رأى منها 2000 من المجلدات الخط غالبها بخط مؤلفيها . ن.ح، ورقة 53.

[371]- سقطت من ن. م

والباري جل جلاله لا يستحيل ولا ينتقل من حال إلى حال، فلم يبق إلا أن يكون على سبيل الخلق من الخالق وهو الحق الذي لا شك فيه. فصمم الكافر أخزاه الله على ما عليه اعتقادهم واعتقاد البابا دمرهم الله من الاستحالة، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا[372].

[ثم ورد علينا يوما آخر بعض الفرايلية من أهل العجمية، وكان لا يحسن شيئا من العربية، فتجاولنا في الكلام معه على حسب ما يفهمه بلسانه الأعجمي بواسطة ترجمان، ففكر ساعة ثم قال: والله إن الذي تذكرونه لهو كلام يقبله العقل ولا تمجه الأسماع، غير أن مسألة واحدة مثل هذه التي وقعت للمسيح هي معجزة خارقة للعادة، وهي من البراهين الكبار التي تخامر العقول لكون الرجل يولد من غير أب[373] وتظهر على يديه من الخوارق والمعجزات التي فعلها المسيح في عهده من إبراء المرضى وذوي العاهات وإحياء الموتى وغير ذلك مما لا ينكر، ولا يدعى فيه مثل ما ندعيه نحن لهي مسألة كبيرة. وكان ذلك الفرايلي كبير أهل مذهبه، وكان أهل مذهبه يختلفون إلينا فانصرف ومنعهم من اعتيادهم في المجيء خوفا عليهم، فلقيت يوما بعضهم فسألته عن سبب تخلفه فأخبر أن شيخه نهاه و لم يطلق لأحد من أصحابه في الزيارة إلى أن قرب رحيلنا من مادريد، فأتى وشيع و لم يقصر في حسن الخطاب.

وسبب تصمم هؤلاء الكفرة أخزاهم الله على اعتقادهم الفاسد هو اتباعهم للبابا الذي يدين لهم الأديان ويشرع لهم الشرائع، وهو في ذلك ناهج منهج أهل الزيغ والضلال من المتقدمين مثل بولس، الذي روى لهم ما بيدهم من الأناجيل المفتعلة على لسان أربعة زاعمين أنهم من الحواريين وحاشاهم من ذلك، وهم يوحنا ومرقش ولوقا ومتي. وبولس هذا زعموا أنه ممن كان يبحث على أصحاب المسيح ويقتلهم ويشعف بهم، وبينما هو مار إلى بيت المقدس بقصد البحث عليهم تراءى له نور

372- تذكرنا هذه المناظرات بما ورد عند مغربي آخر في بداية القرن السابع عشر الذي تمكن بفعل إتقانه اللغة الإسبانية من الدخول في مجالات عميقة مع رجال الدين سواء في إسبانيا أو في فرنسا. وهذه المناظرات يمكن اعتبارها إرهاصات لحوار مسيحي- إسلامي. ينظر أبو القاسم الحجري، **ناصر الدين على القوم الكافرين**..تحقيق محمد رزوق.

373- يورد ناسخ ن. ح في الحاشية : " تعريض بكونه ابن زنى إذ لا يمكن وجود ابن بدون أب وهو من الكليات المسلمة" ينظر: ن.ح، ورقة 53.

وغشي عليه فلما أفاق، قال له: يا شاوول إلى م تطردني، فقام وقد فقد بصره فنوى التوبة، ثم قال له: إمض إلى الموضع الفلاني من بيت المقدس واقصد القديس الفلاني فهو يرد عليك بصرك. فمضى من ساعته إلى حيث أمره ورجع بصره، فانقلب عما كان يشتغل به وقد عد نفسه رسولا من المسيح، وروى لهم هذه الأناجيل على حسب وفق ما أراد من الكفر والضلال والعياذ بالله، وعلى سننه الضال هم مارون نسأل الله العافية والثبات على الدين القويم والنهج المستقيم.

وبسبب الضلال الذي يلقونه هؤلاء الفرايلية إلى غيرهم من سائر النصارى وما ابتدعوه من الأمور التي لا يحل سماعها. و من كثرة عدد الفرايلية والكليريكوش قل ما تجد دارا من ديار النصارى إلا وفرايلي يتعاهدها في كل يوم ليلقي على أهلها من الكفر ما يلقي، حتى ألزموهم الإقرار لهم بالذنوب والجنايات التي يرتكبونها، وذلك أنهم عملوا عادة[374] جارية على الصغير منهم والكبير بأن يقر كل واحد للفرايلي المأذون له في ذلك، ويخبره بما صدر منه من الذنب في زعمه بأن يقول له صدر مني في يوم كذا وفي ساعة كذا الذنب الفلاني، وغرني الشيطان وهجس في خاطري وفعلت وفعلت ، بحيث لا يسمعه ولا يطلع عليه أحد دون الفرايلي المأذون له في ذلك. فيقول الفرايلي حينئذ للمقر هذا ذنب تجب منه التوبة والإقلاع وعدم الإصرار، فانو التوبة وعدم الرجوع لعل أن يغفر لك ما صدر. فحين ينوي التوبة يصلب عليه الفرايلي ويقول له بقدرة كذا، كذا من كلماتهم الكفرية غفر لك ذنبك. وقد ألزموا الإقرار للرجال والنساء والصبيان وغيرهم ولا أقل من مرة واحدة في كل أسبوع. ففي يوم الأحد تخرج النساء جميعا إلى الكنائس بقصد الإقرار ويسمونه الكونفصور[375]، ومن لم تصل الكنيسة يأتيها الفرايلي إلى دارها ويلزمها الإقرار بأن يدخل معها خلوة في زاوية من الدار ويغلقان عليهما البيت والمسكن الذي تدخل فيه المرأة مع الفرايلي، ويبقى معها ما شاء إلى أن تخرج صافية من الذنوب مشحونة بالمثالب والعيوب، وإذا دخل زوجها، ووجدها مع الفرايلي وقد

---

[374]- في ن. ح : عادات

[375]- الكنفصور

خلا بها، لا يقدر الزوج على الولوج عليها ولا يمكنه إزعاجهما ما لم يقضيا الشأن الذي دخلا إليه[376]. ولا يقدر أحد على الطعن في أحد من الفرايلية بوجه من الوجوه ولو شاهده على أقبح الحالات مع ما أودع في هذه الأجناس من قلة الغيرة على المحارم لدخول الرجل على نساء الغير من غير حضور الزوج أو مع حضوره.

وقد ألزم البابا أيضا- قبحه الله- سائر الأجناس الصليبية في مسألة الإقرار زيادة أخرى في عيد الفصح بأن يقصد جميع النصارى رجالا ونساء كنائس مخصوصة لهذا الإقرار سائر أيام الفصح، بأن يقر الكبير والصغير والمرأة والرجل والصبي والصبية بجميع ما صدر منهم، وينووا تجديد التوبة ويأخذوا على ذلك رقاعا على قدر نسمات الدار بأنه أقر في كنيسة كذا عام كذا. فإذا دخلت أيام الفصح يأتي الفرايلي إلى الديار دارا دارا ويتسلم الرقاع منها واحدة واحدة، بعد أن يعرف حساب من في الدار من النسم ليعلم هل أقر جميعهم، فإذا تسلم الرقاع ووجد أحدها غالته يد الضياع أو بقي أحد من أهل الدار بغير إقرار، فإنها شناعة كبيرة يلزم فاعلها إثم كبير ويعطي على تقصيره وإصراره دراهم معلومة، ويقر حينئذ ليخرج من العهدة. واستنادهم في ذلك ما روي لهم في أناجيلهم المتداولة بينهم على لسان المسيح على نبينا وعليه الصلاة و السلام من قوله "من صنع إليكم معروفا فكافئوه ومن استغفر لكم فاستغفروا له". فتلقاها رئيس الضلالة البابا- الذي هم إلى نظره- بفهم معكوس، وقال لهم فاغفروا له، فصار يعطيهم الإذن في ذلك ويأمرهم به، غير أنه لا يعطي الإذن في ذلك إلا للفرايلي الذي جاوز الأربعين، وكان عارفا بعلومهم معروفا عندهم بالثقة والأمانة. غير أن النصارى وإن كانوا ينوون فيهم أو في بعضهم نقيصة أو خيانة، فمن الكبائر عندهم التي لا تغفر أن يتفوه أحد منهم بشيء في أحد الفرايلية

---

[376]- يعلق الناسخ في ن. ح على هذه المسألة في حاشية طويلة قائلا: . قول السعير مشحونة بالمثالب والعيوب يعضده ماوقفت عليه في كتاب لمحمد بن أحمد بن عبدالله النخعي الأندلسي المعروف بابن عبدون في الحسبة وتغيير المناكر قال: " يجب أن تمنع الإفرنجيات من الدخول في الكنيسة إلا في يوم فضل أو عيد فإنهم يأكلون ويشربون ويزنزن مع القسيس، وما منهم واحد إلا وله وعنده منهن اثنتان أو أكثر فيبيت معهن وقد صار هذا عرفا عندهم لأنهم حرموا الحلال واستحلوا الحرام ، يجب أن يومر القسيسون بالزواج كما في ديار المشرق ولو شاءوا لفعلوا ، يجب ألا يترك في دار قس امرأة لا عجوز ولا غيرها إلا أن يثبت الزواج ، يجب أن يجبروا على الختان كما فعل بهم المعتضد بن عباد، فإنهم متعبدون على زعمهم بسنن عيسى وعيسى قد ختن ولهم في يوم ختانه عيد يعظمونه ويتركون ذلك يعني الختان الذي هو شعار ربهم المسيح." ورقة . 54.

أو يلمز بعيب ولو شاهده وحققه، فواجب عليه أن يلتمس له عذرا أو مخرجا مع تحقق سائر النصارى معائبهم ونقائصهم[377]، فكثيرا ما ظهر في بعضهم من النقائص والخداع والأمور التي ينكرها العقل والطبع مع الدعة والراحة التي هم مجبولون عليها، والإنسان هو محل الخطأ والزلل. ويخلو الواحد منهم بالمرأة في بيت مغلق عليها ساعة إقرارها بالذنوب الصادرة منها من زنى وغيره، لا تخفي عنه شيئا ولا تغيب عنه ذنبا صدر منها، فإذا أقرت بذنب من زنى أو شبهه وخلا بها كيف يمكن تورعه عنها مع ما هو فاش في بلادهم من الزنى.

وصدور ذلك من بعض الفرايلية غير مستغرب، مثلما وقع هذه السنة بمادريد من ظهور حمل ببنت بكر وحين سألت عن ذلك أقرت بأخ لها كليريك، فقبض وبعث إلى السفن المسماة بالأغربة. وكذلك أخبرني من أثق به بمعرفة ابنة بمدينة سبتة، أعادها الله دار إسلام، كانت من الحسن بمنصب ومكان، فافتض بكارتها خالها افرايلي، وكشف عن أمرها فلم تتزوج بعد ذلك ، وهي باقية لهذا العهد. وأخبارهم في هذا الباب كثيرة لا حاجة بذكرها، ويراد هذين شاهدين للدلالة على عدم الغيرة التي طبعوا عليها وإلا فوقوع مثل هذا كبير. ويشهد لذلك ما سمعته من امرأة بمدينة إشبيلية حسنة الصورة، وقد وردت مع أمها وأختيها علينا بقصد الزيارة، وقد جرى ذكر الفرايلية والكليركوس بالجمع وكثير من النصارى حضور، فتنهدت وقالت: الفرايلية ملعون من يأمن بهم[378]. فسألناها عن سبب ذلك فقالت: أنا أعرف بهم من كل أحد ولا أحتاج مع قولي هذا إلى تفسير. فقضينا العجب من قولها مع حضور بعض الكليركوس وقلة مبالاتها بهم مع مكانتهم عند النصارى ومنزلتهم لديهم لكونهم هم الذين يتقدمون بهم في صلواتهم ويقرون لهم بذنوبهم رجالا ونساء.][379]

---

[377]- يضع ناسخ ن. ح حاشية بصدد هذه القضية قائلا : " قول المؤلف مع تحقق سائر النصارى معائبهم: ثم رأيت في التأليف الأندلسي المذكور (مقدار كلمة) في الطرة ما نصه يجب أن يمنع النساء المسلمات من دخول الكنائس المشنوعة فإن القسيسين فسقة زناة لوطية " ورقة . 55

[378]- في ن. ح : فيهم

[379]- كل ما سبق وخلال الصفحات الثلاث سقط من تحقيق الفريد البستاني عن قصد، حيث قال: "وهنا مقطع من فصل مؤلف من ثلاث صفحات أثبتت في مخطوطة مدريد وكتبت على الهوامش في مخطوطة تطوان، فقد وصف

ومع ذلك وكثرتهم فإنه فيهم رجالا حسنة أخلاقهم يود لهم الإنسان أن لو كانوا على طريق مستقيمة نسأل الله العافية، كما شاهدته في الكنيسة الكبيرة المسماة بالاسكريال رجلا كبير السن حسن السمت والأخلاق، يظهر من البشاشة والبشر وحسن الملاقاة ما لا يعبر عنه. وهو رجل كان كبير تلك الكنيسة وإليه مرجع كلامها وأمرها وأحكامها وأحكام المداشر التي حوالي الكنيسة والقرى المحسوبة عليها والمضافة إليها، فترك تلك الرياسة وزعم أنه رغب عن الدنيا وزهد فيها وودع الكبيرة وحبها، وأسند ذلك إلى تلميذ له يدعى دون الونص[الليرة[380]]. وكان هذا الفرايلي القيم اليوم على الاسكريال يظهر من البشر والسرور وحسن الخطاب والملاقاة شيئا كثيرا، ولم يزل يتعاهدنا بعد المعرفة مدة مقامنا بمادريد بالزيارة، حين يقدم على الطاغية لمنزله عنده كبيرة، وكانت ترد علينا رسائله من الأسكريال.

الأسكوريال

وهذا الأسكريال هو عبارة عن الكنيسة المتقدم ذكر سبب بنائها في عهد بانيها فلب شكوند، إذ كان حاصر مدينة من مدن الفرنسيس ونصب عليها المدافع والبونبات، وكانت قبالة المدافع كنيسة لراهب يسمى ليرنص الريال، فنذر أن يبني كنيسة أعظم منها فهدها وأصاب المدينة، وحين رجع بنى الكنيسة التي نذر بناءها في سفح الجبل الفاصل بين قشتالة الجديدة وقشتالة القديمة. وهي على أحد وعشرين ميلا من مدينة مادريد، وبناء هذه الكنيسة وما اشتملت عليه من دار الطاغية وتوابعها كله من الحجارة الصلبة الشبيهة بالرخام، منقولة من الجبل المطل على الكنيسة، وهي حجارة كبيرة هائلة جدا، زعموا أنهم جعلوا ساعة البنيان قنطرة كبيرة متصلة من موضع الكنيسة إلى رأس الجبل، وكلها من خشب لسحب القراريط الحاملة للحجارة

فيه المؤلف بطريقة مشوهة ارتداد (شاوول) بولس الرسول وتكلم عن أعمال الرسل الانجيليين، وتعرض إلى سر تجد المسيح وإلى سلطة البابا الروحية وما يسنه من الشرائع والأحكام وذكر بعض مناظراته مع الرهبان في مدريد والكهنة في استعمالهم سر الاعتراف. وأورد بعض أخبار(كذا) ملفقة لا فائدة من ذكرها.

380- سقطت من ن. م

على هذه القنطرة المذكورة، وتوضع الحجارة في موضعها من غير تكلف لحمل الحجارة ليكون ذلك بسهولة، وإلا فهذه الحجارة هائلة جدا، و لم يكن لهذه القنطرة المذكورة بقاء أثر يدل عليها، إلا أنهم ذكروا أنها كانت كلها من خشب فلا يمكن بقاؤها. وهذا الجبل المذكور في غاية العلو والارتفاع، وقدر ما بين الكنيسة ورأس الجبل في صعود ما يقرب من مسافة.

وهذا الاسكريال هو في غاية الضخامة والعلو وارتفاع السمك في الجو، وله من الناحية الغربية ثلاثة أبواب، فالباب الوسطى هي باب الكنيسة وما اشتملت عليه، وفوق الباب صورة من حجارة زعموا أنها صورة الراهب لرينص[381] الريال الذي بنيت الكنيسة باسمه، والباب التي على يمينها ويسارها هما بابان لدارين كبيرتين لقراءة الطلبة الصغار من الفرايلية الذين يتعلمون ويقرأون علومهم وقراءاتهم، ولكل طائفة منهم علامة على ملف أزرق وأحمر على كتفه على قدر ما بلغ إليه علمه من فنونهم. وأول قراءاتهم الفلسفة وما في معناها. وفي هاتين [الدارين][382] من المتعلمين عدد كثير يقصدون التعليم من جميع نواحي مادريد وغيرها، إلا أن الموضع المصدر عندهم للتعليم وكماله بزعمهم هي مدينة أخرى يسمونها صلامنكة[383] على ثلاثة أميال من مدينة مادريد، فإن المعروف عندهم أن من لم يكمل علومه وقراءته ويحصل دراية ذلك بمدينة صلامنكة[384] فلا يعد عندهم بمحصل. وجل قراءتهم في حال الصغر ما يلقونه عليه معلموهم من الكفريات حتى يتدربوا على ذلك ويكون نصب أعينهم، ومن بعد ذلك يتعلمون الحساب وبعده علم الهندسة بلسان اللاطين، واللاطين عندهم هو بمثابة علم النحو عند العرب، فلم يفهموه جميع النصارى ممن لم يحصله في حال صغره، فتجد صغار النصارى يقصدون (كذا) بهم آباؤهم المواضع المعدة للقراءة مثل الأسكوريال وصالامنكة وما أشبههما.

---

[381]- في ن. ح : لرينصوا

[382]- ساقطة من ن.ف و ن.ح

[383]- في ن. ح : صالامنكه

[384]- عن الدور العلمي والثقافي لمدينة صلامنكه يراجع:

Vaquero- Buenaventura(Aldea), *La Educacion en la Espana Moderna siglo XVI – XVII*, Madrid, 1993.

والباب الكبير الوسط الذي يدخل إلى الكنيسة هو باب كبير هائل جدا، به من النقوش والصنائع شيء كثير، ويقابل الداخل من الباب صحن كبير متسع وعلى الصحن سواري كبار (كذا) جدا، وعلى كل سارية منها صورة كبيرة من حجارة، وقد لبست الصور كساوي من جنس الصورة، زعموا أن جميع هذه الصور من حجارة واحدة. وعدد التصاوير (كذا) خمس، زعموا أنهم ملوك ملكوا بني إسرائيل، ومكتوب على الصورة الأولى هذا داوود النبي وعلى رأسه تاج من نحاس مموه بالذهب زنته خمسة أرباع وفي يده الآلة التي أحدثها، ويزعمون أنها هي التي كان يقرأ بها الزبور ويسمونها الأربة[385]. وهذه الأربة هي آلة كبيرة من خشب تقرب من قدر قامة الإنسان ولها من الوتر نحو الستة والأربعين، وهي حسنة النغم لمن يحسن جسها ونقرها، وهذه الأجناس من النصارى يستعملونها كثيرا ويعلمونها نساءهم وأولادهم وبناتهم، فقلما تجد دارا إلا وجميع أهلها يحسنون نقر الأربة،[وضيافتهم وترحيبهم وإكرامهم هو ضرب هذه الأربة[386]] لمن يدخل عندهم. وأكثر من يستعملونها بنات الأكابر والأعيان وأبناؤهم وكذلك في كنائسهم وبيعهم ومواضع كفرياتهم، وهي أكثر ما يستعملونه من ضرب آلات الطرب. وأما الآلة المسماة عندنا بالعود فلا معرفة لهم به، وإنما يعرفون آلة أخرى تقرب منه يسمونها الانكطرة[387]، وهي أصغر من العود بقليل وأوتارها تزيد على أوتار العود بوترين. والأربة هي أخشن شكلا من سائر أنواع الطرب.

وعلى يمين الصورة المكتوب عليها اسم داوود صورة أخرى مكتوب عليها هذا سليمان بن داوود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وعلى رأسه تاج من نحاس مموه بالذهب فيه خمسة أرباع، وبيده عصا من نحاس مموه أيضا زنتها ثلاثة أرباع. وعلى يمينه ثلاث صور أخرى مثل هذه الصور مكتوب على كل صورة منها اسم ملك من الملوك العظام ملكوا لذلك العهد. وبداخل الصحن بلاط كبير متسع

---

[385]- أربة وهي Arpa أو Harpe وهي آلة طرب شبيهة بالقانون.
[386]- سقطت من ن. ح
[387]- Guitara القيطارة.

فبطرفه من الناحية اليمنى مدارس كبار لسكنى طلبتهم والفرايلية، وعدد المدارس أربعة عشر مدرسة، كل واحدة من العدد المذكور مشتملة على بيوت عديدة وغرف من فوقها، وفي كل واحدة من المدارس المذكورة سقاية ماء وخصة كبيرة وسواري عديدة نحو العشرين سارية، كل مدرسة تدخل إلى أخرى.

وعن يسار الداخل من الصحن إلى الكنيسة فيما يقابل باب المدارس باب يدخل منها إلى دار الطاغية، وهي دار كبيرة مبنية كلها مع جدراهٔا وسقفها من حجارة الكنيسة ، وعلى صفة بنائها من الضخامة وارتفاع السمك وعلوه على قدر الكنيسة . ولهذه الدار ثلاثة أبواب، واحدة من داخل الكنيسة والأخرى من خارج الكنيسة والثالثة من داخل البستان المجاور للكنيسة. ومن عادة الطاغية أن يسكن في تلك الدار شهرا واحدا في زمن المصيف لبرودة ذلك الموضع من كونه في سفح الجبل. والكنيسة بنفسها هي كنيسة كبيرة ذات سواري وبلاطات، ويقابل الداخل إليها الصورة المصلوبة التي يتعبدون بها، وهي من فضة مموهة بالذهب. وبوسط الكنيسة قبة عالية السمك والجو، وهي في غاية الإتقان والصناعة، مرتفعة على أربع سواري عظام، سعة كل ربع من أرباع السارية نحو الإثنى عشر ذراعا، وفي كل ربع منها مجلس مفروش بالحرير والديباج يقعد عليه الفرايلي[388] ساعة تعبده وصلاته.

وفي داخل هذه الكنيسة من القناديل الفضية والذهبية والنحاسية المموهة بالذهب عدد كثير، وبداخل هذه الكنيسة من أنواع الجواهر والذخائر والنفائس الموقوفة ما لا قيمة له. وبأعلى هذه الكنيسة موضع صلواهٔم التي يقرأون فيها بالألحان ويسموها الميسة، وبها آلة الموسيقى التي يسموها أركان[389]، وهي آلة كبيرة ذات قنانيط وجعاب[390] كبار من رصاص مموهة تسمع أصواتا عجيبة، وقراءهٔم في هذه المواضع وأشباهها بهذه الآلة، يزعمون أنه زبور داوود عليه السلام والتوراة المترلة على موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام. وتدينهم بالتوراة في زعمهم هي العشر

---

[388]- في ن. ح : الإفرايلي
[389]- في ن. ح : أوركان أي الأرغن Organo
[390]- في ن. ح : حجاب

كلمات[391] التي هم مشتركون فيها مع اليهود، ويزعمون المحافظة عليها، وهي النهي عن القتل والسرقة والزنى والدماء والأموال إلى آخرها.

وفي هذه الكنيسة من الفرايلية الكبار الذين يعلمون الميسات والصلوات مائتان ومن غيرهم الصغار عدد كثير. وفي أعلى هذه الكنيسة تسع منارات كبار عالية السمك والجو، وفي كل واحدة منها ماكنات[392] لمعرفة الساعات، والنواقيس الكبار التي تضرب في الأوقات عدد كثير يسمع لهم(كذا) صوت على أميال يضرب على نوع من أنواع الموسيقى(كذا).

وعلى يمين الكنيسة أيضا خزائن كتبهم[393] وعلومهم وأديانهم والذخائر التي هي موقوفة على الكنيسة من عهد باني هذه الكنيسة إلى هلم جرا، بحيث لا يقدر أحد على التصرف فيه إلا بالزيادة عليه. وإلى هذه الخزانة كانوا نقلوا خزائن كتب المسلمين من قرطبة وإشبيلية وغيرهما وزعموا أنها احترقت بالنار جميعا فيما قرب الآن من عشرة أعوام[394]، وقد رأينا موضع الحرق في تلك الخزائن، وقد أثر فيها وفي الكنيسة أثرا كبيرا وما زال الطاغية إلى الآن مشتغل بترقيع ما أفسدته النار، ولولا ما بهذه الكنيسة من سقف حجارة وعدم الخشب الذي تسرع النار بإحراقه لأتت على

391- وهو يقصد : الوصايا العشر

392- الماكنات، ج ماكنة وهي الساعة في الدارجة المغربية

393- وضع ناسخ ن. ح حاشية لذلك قائلا: الحمد لله رأيت في مجلة المجمع العلمي العربي التي تصدر بدمشق الشام عدد الجزء الخامس من المجلد الثاني بقلم رئيس المجمع العلمي السيد محمد كرد علي تحت ترجمة جلسة عامة التي ذكر فيها الرئيس الأستاذ محمد كرد علي خلاصة أعماله عن زيارته إلى أوروبا ومدارسها ومساجدها ودور كتبها والإطلاع على حركة الاستشراق العربي فيها، قال خلال كلامه : " إني زرت مجريط عاصمة اصبانيا واجتمعت بصديقنا الأب أسين أحد أعضاء مجمعكم (يعني العلمي)، وقد أطلعني في خزانة كتبه قماطر الخزازات التي جمعها الأستاذ ريزا المستشرق الاصبنيولي في تراحم علماء العرب في الأندلس وهي ثلاثون ألف جزازة الثلاثين ألف عالم، وقال لي الأستاذ البرنس كائتاني عضو مجمعكم في رومة قد استنسخها مؤخرا وسيطبعها لتعم فائدتها.
وزرت القسم العربي من خزانة مكتبة الأمة وفيه مجموعة لا بأس بها كما زرت خزانة كتب الأسكوريال من أديار القرون الوسطى والقسم العربي منه حديث أخذ غنيمة من إحدى سفن ملك المغرب الأقصى على مقربة من اصبانيا وذلك في القرن السابع عشر، ولا تقل المجموعة عن ألفي مجلد، وليس في بلاد اصبانيا مجموعات مهمة من المخطوطات العربية لأن رؤساء الدين فيها كما تعلمون يوم فتح صاحب قشتالة الأندلس واستخلاصها في القرن التاسع للهجرة من أيدي العرب ظلوا نحو خمسين سنة يحرقون كتب العرب حيث وجدت ليقضوا بها عليهم وعلى مدنيتهم. انتهى لفظه وكتب في هذه المجلة عن غابر الأندلس وحاضرها في العدد الخامس والسادس كلاما مفيدا نقلناه في غير هذا المحل والرئيس من أهل عصرنا سنة 1340 ومابعد سنة 1341. (و . 59 (أ))

394- يتعلق الأمر بحريق شب بالخزانة سنة 1671 نتيجة صاعقة، وقد أدى هذا الحريق حسب بعض الدراسات إلى إحراق مايزيد عن ثمانية آلاف مخطوط.
أحمد شوقي بينبن، خزانة مراكشية... ص ، 139

آخرها، ومع ذلك صعدت النار إلى رأس منار من منارات الكنيسة وهدت من أعلى المنارة حجارة كبيرة سقطت إلى البستان المحيط بالكنيسة، وهي حجارة كبيرة جدا يعجز الآن على رجوعها إلى محلها.

ويجاور الكنيسة أيضا من ناحية الشمال موضع لدفن أسلاف هذا الطاغية من عهد والد باني الكنيسة كرلوس كينط الذي كان ترهب إلى فلب كوارط والد هذا، ومدفنهم في قبة في غور الأرض ينزل إليها بدرج عديدة من رخام أحمر في غاية الإتقان وحسن الصنعة. ومقابرهم هي صنادق من رخام مموه بالذهب، وقد رفع كل صندوق منها بين ساريتين، وعلى كل واحد منها اسم الطاغية المدفون به وعدد من دفن بذلك الموضع خمس طواغي ونساؤهم كذلك إذ عادتهم أن لا يدفن بهذه المقبرة إلا الطاغية الذي[395] يخلف من يلي الملك بعده، وأما من يموت منهم من غير عقب أو لم يكن له ميراث للملك، فإن هؤلاء لهم مدفن آخر غير هذا ليس هو مثله، وهو مجاور له أيضا، وهذه هي عوائدهم في الدفن دمرهم الله.

ويدور بجميع هذه الكنيسة جميع ما تحتاجه [الكنيسة[396]] من الأمور التي يحتاجها السكان والعمار من آلات الأقوات مثل الأرحي لطحن أقواتهم وموضع الطبخ ودار الدبغ وغير ذلك من جميع ما يكون بالحواضر. وبها من المخازن والديار المعدة للمعاجين الطبية والأدهان والأشربة والمياه شيء كثير. ويدور بجميع ذلك بستان كبير مشتمل على جداول وأنهار وأشجار بشكل عجيب وهو إلى نظر الفرايلية.

ويدور بجميع هذه الكنيسة وبستانها موضع مصيد الطاغية وقنصه، يحيط به سور من حجارة في غاية الإتساع، زعموا أنه في دائرته مقدار ثلاثة وثلاثين فرسخا، وعلى مقدار كل مسافتين منها موضع فيه دار وبستان ليقيل فيه الطاغية حين صيده. وقد دخلت البعض منها حين وصولنا إلى الاسكريال إذ استدعانا الطاغية إلى رؤيته حيث كان معجبا به.

---

[395]- في ن. م : التي
[396]- سقطت من ن.ح

وهذا الأسكريال عندهم هو من الأمور التي يعدونها في بلادهم من الأمور الهائلة، إذ ليست عندهم كنيسة أخرى على شكلها من بناءاتهم أعظم منها.

وأما المساجد الإسلامية فلا ينكرون عظمتها ولا ضخامتها مثل مسجد طليطلة وقرطبة وإشبيلية الشهيري الذكر البعيدي الصيت. وقد مر ذكر مسجد قرطبة في محله وسنذكر مسجد طليطلة وإشبيلية[397] في محلهما إن شاء الله، إذ كانت رؤيتنا لهما عند رجوعنا من مدينة مادريد.

وحيث كان الطاغية مدة إقامتنا عنده يحب تأنيسنا ويريد جلب الخواطر منا بالأمور التي يعلم أنها عنده بمكانة من رؤية منتزهاته ومصائده وقنصه وبستانه وأعياده وداره وبيوتها وغرفها وخزانة عدته وسلاحه وغير ذلك، فلم يزل يتعاهدنا ويستدعينا إلى رؤية ما ذكر وأشباهه. فلقد عمل بداره أعيادا دعانا إلى حضورها في داره التي يسكن بها ثلاث ليال متوالية، وقد أعد لنا مجلسا في قبته لا يسامته غيره وجميع الأعيان الأكابر والدوكيس والقونديس وغيرهم من خواصه حضور، ويخرج بعد ذلك هو وأمه وزوجته بين يديه بنات الأكابر والأعيان وقد حملوا بين يديه من الشموع عدة، فإذا وصل محل جلوسه وقابل المجلس الذي نحن فيه يستقبلنا ويزيل ما على رأسه على هيأة سلامهم، ويقعد هو وزوجته عن شماله وأمه عن شمالها، ويأتوا(كذا) أهل الطرب من النساء والرجال، فيعملون ما هو من عوائدهم في طربهم وغنائهم إلى أن ينتصف الليل، فحين يفرغون ويريدون الانصراف يقوم الطاغية أولا ويزيل ما على رأسه أيضا بعد أن يرفع رأسه إلى مقعدنا، وينصرف كل واحد إلى مقره وموضعه. وكان يسأل [بعد ذلك[398]] من كان يتصرف بين أيدينا من خدامه ويبحث عن حال انشراحنا ولا يريد أن يغيب عنه أي شيء من أمورنا وسؤاله عنا كل يوم.

---

[397]- إذا كان مسجد طليطلة قد حظي بالوصف فإن مسجد اشبيلية لم يوصف- أو على الأقل لم نقف على وصف له في الكتاب بسبب النقص في سائر النسخ التي عثر عليها لحد الآن.

[398]- سقطت من ن. ح

منتزه أرانخويس

ومن جملة منتزهاته ومتصيداته التي يقصد كل عام في شهر أبريل، فيقيم بها قريبا من شهر هو وعياله والخصوص من خواص أصحابه وخدامه، موضع يسمى أرانخويس[399]، وحين انصرف إليه هذه السنة على عادته، وكان علم أمر ما نحن بصدده بيد وزيره ورأس ديوانه الكردنال، فكنا نتكلم و نحثه على سفرنا ونستعجله ونعزمه. وكان الطاغية يريد وفودنا عليه حيث هو في أرانخويس قاصدا بذلك تفرجنا ورؤيتنا له، إذ هو عنده من أحسن منتزهاته، فوجه إلينا يوما رئيس كتاب الديوان يقول: إن طاغيته يريد منكم الوصول إليه حيث هو لترشحوا خواطركم بما هنالك من البساتين والصيد. فأجبناه عن ذلك بتشوفنا إلى سفرنا و لم يبق لنا إرب في متفرج ولا[في[400]] منتزه لبطئنا عن الرجوع إلى بلادنا، ومرادنا هو التشييع إذ فيه جل مرامنا ومنتهى قصدنا. فانصرف عنا وكتب إليه بجوابنا له، فبعد يومين رجع إلينا بأمر عظيمه يقول له فيه وصولنا إليه حيث هو بقصد التنزه والتشييع حيث صحبنا من القلق ما أنهاه إليه هو وغيره من خدامه الموكلين بنا. وقد أمر القند الموكل بنا مع الترجمان الحلبي بمصاحبتنا إلى حيث هو، إذ لا يمكن أحد الوصول حيث هو من غير إذن ولا مشورة.

فانصرفنا ضحوة اليوم الذي خرجنا من مدينة مادريد وسرنا تسعة أميال دخلنا فيها ثلاث قرى، الأولى على مسافة من المدينة تسمى بيردي[401] بلسانهم

---

[399]- أرانخويسAranjuez ويسميها ابن عثمان ران خويز ويذكرها الغزال تحت اسم أرنخويس ويقول بصددها: " هي إحدى ديار الطاغية المعدة لاستراحته من المصيف لطيب هوائها... وقد بنى بإزائها أعيان دولته من الديار المعتبرة حتى صارت من جملة المدن". الغزال، **نتيجة**... ص 159.

[400]- سقطت من ن. ح

[401]- لعله يقصدVilla verde التي يذكرها ابن عثمان هو الآخر تحت إسم "بلبرد" ابن عثمان، **الإكسير**...ص 82.

ومعناها الخضراء لما اشتملت عليه من الغروس والبساتين، وهي [قرية صغيرة قريبة من الحضارة، وبعدها بمسافة أخرى][402] قرية تسمى البنطة[403] هي أكبر من الأولى، وبعدها قرية تسمى بلد الموروا[404] وهي من القريتين المذكورتين، فوجدنا بها دارا معدة للنزول، فنزلنا بها إلى أن اجتاز الحر وركبنا عشية اليوم، فسرنا تسعة أميال أخرى وأشرفنا على المنتزه المسمى أرانخويس الذي قصدنا إليه، فلقينا بالقرب منه خيل بعثها الطاغية للملاقاة والسلام علينا، وقالوا: إنه ظن قدومكم إليه وسط النهار وقد أعد لكم فرجة تروها عند وصولكم. وحيث أبطأ عنه خبرنا بعث من يتلقانا، فكان وصولنا قرب الليل لم يمكن معه شيء دون المبيت، فأنزلونا دارا مشرفة على جميع ذلك المنتزه تنسب لوزيره الكردنال، وبتنا بها تلك الليلة بعد أن أتانا من خدامه من رحب وسلم وناب عنه في البشر وحسن الترحيب.

ومن الغد بعث إلينا فدخلنا بستانا له هنالك وقد حف به واديان كبيران ومجمعهما يسمى وادي طاخوا، وهو المار بمدينة طليطلة من هذا الموضع بعد مروره بنحو مسيرة يوم. وهذا البستان هو غاية في جداوله واتساقه ونظم أشجاره، وقد اشتمل على أزهار وأنوار ودواليب وصهاريج وبرك مياه على كل وصف، وبه مقاعد في غاية الإتقان والحسن مطلة على الوادي من كلا الجانبين.

ومن هذا البستان دخلنا على الطاغية في دار بعد أن بعث لملاقاتنا جماعة من خواصه، وحين دخلنا عليه وجدناه قائما على قدميه، وعن شماله زوجته ومعها جماعة من بنات الأعيان وعن يمينه وزيره وبين يديه خواصه وخدامه، فسلمنا عليه بسلامنا المعتاد من قول السلام على من اتبع الهدى، ورحب وسلم على عادته ووجدنا في يديه براءة، كتبها لصيفنا المنصور بالله، فقبلها ودفعها إلينا بعد أن استخبرنا عن أحوالنا وعن القلق الذي بلغه عنا. فأظهرنا له من العذر ما فهم من

---

[402]- سقطت من ن.ف

[403]- هي قرية Pinto بها قلعة محصنة قديمة وقد ذكرها ابن عثمان عندما كان بصدد الدخوت إلى مدريد. ابن عثمان، **الإكسير**..ص 82.

[404]- قرية توجد- كما يذكر ابن عثمان- على مسافة "5 ساعات من طليطلة، وهي كبيرة في بسيط من الأرض من بقية المسلمين رحمهم الله وبالقرب منها كدى على أحداها قصبة من عمل المسلمين رحمهم الله لا زالت أسوارها قائمة إلى الآن.." ابن عثمان ، **الإكسير**..ص 150-151.

كوننا لم يمكننا البطء عن سيدنا نصره الله، فقال: حيث أظهرتم العذر لا نلزمكم مقاما بعد أن أحببتم الانصراف، ونوبوا عنا في السلام اللائق بالمقام الشريف ونحن نرجو منه الخير في الأسارى الذين عنده، وكل ما يعرض لمقامه العلي عندنا نقضوه[405] (كذا) حبا وكرامة إجلالا لمنصبه. وسأل الترجمان هل لهم غرض نسرع لقضائه، فأظهرنا من الإعراض عن ذلك ما هو لائق بالمنصب الإسلامي والحمد لله.

وانصرفنا من عنده بعد أن شيعنا ودفع لنا الكتاب الذي كتبه لمقام سيدنا المنصور بالله. وبعد ذلك ألحقنا بعض خواصه يستفهمنا هل لنا غرض في المقام بذلك المنتزه أياما بقصد الاصطياد والتنزه، فأجبناه بتطاير قلوبنا إلى وطننا وأن لا تمكننا الإقامة بعد ذلك اليوم ساعة واحدة. وكان يريد الرجوع إلى مادريد من الغد، فبعث إلينا عشية ذلك اليوم ومن صبيحة الغد القيمين على ذلك الموضع وعلى القنص وخرجنا معهم إلى القنص، فإذا فيه من الإيل والقنين[406] شيء كثير، فأسعفناه[407] في ذلك لغرضه، ومن الغد رجعنا إلى مدينة مادريد بقصد التأهب للسفر والاستعداد.

العودة من مدريد

وكان خروجنا من مادريد في اليوم الأول من رمضان المبارك من عامنا هذا، وقد أمر الطاغية من أصحب معنا من خدامه بمرورنا على مدينة طليطلة لنشاهد مسجدها الجامع، الذي هو من عجائب الدنيا في بنائه وذكره وبعد صيته. فبتنا يوم خروجنا من مادريد بقرية يقال لها وشقة[408] وكانت من حواضر العدوة التي لها ذكر ودار علم ونباهة، وهي اليوم قرية متبدية وبها آثار البناء القديم الإسلامي بعض أثر مثل الباب التي كانت تدخل إليها حين كانت في عهد عمارها من أهل الإسلام

[405]- كذا في جميع النسخ
[406]- في ن. ح : القين
[407]- في ن.ف: فساعفناه
[408]- ويسكا Illescas

مدينة، أما اليوم فالتبدي أقرب إليها من التحضر[409]، وبينها وبين مدينة طليطلة واحد وعشرون ميلا.

مدينة طليطلة

وطليطلة هي مدينة كبيرة وقاعدة من قواعد مدن العدوة، ودار ملك قديم، وهي على ربوة من الأرض في حافة مطلة على الوادي المسمى طاخوا وهو الوادي المار بأرانخويس المنتزه المتقدم الذكر، وقد أحاط هذا الوادي بالحافة التي عليها المدينة من ثلاث أرباعها، والربع الموالي للبر هو الآتي من طريق مادريد. وأسوار هذه المدينة وحيطانها وأزقتها باقية على حالها من عهد عمارها[410] من المسلمين، وأثرها أثر الحضارة إلا أن أكثر أزقتها ضيقة جدا، ودورها باقية على حالها من البناء الإسلامي وتفصيله والنقش في السقف والحيطان بالكتابة العربية. ومسجدها الجامع هو من عجائب الدنيا، إذ هو مسجد كبير مبني من الحجارة الصلبة [الغريبة[411]] القريبة الشبه بالرخام، وسقفه مقبوة من الحجارة، وهي في غاية ارتفاع السمك وعلوه في الجو، وسواريه في غاية الضخامة والصناعة العجيبة النقوش. وقد أحدث النصارى في المسجد من جوانبه زيادة في الوسط بشبابيك[412] من نحاس أصفر وفيها من تصاويرهم وصلبانهم وآلة الموسيقي المسماة عندهم اركان[413] التي يضربون بها وقت صلواتهم مع الكتب التي يقرأونها في الصلوات شيء كثير. وقد جعلوا أمام هذه الشباكة صورة المصلوب وهي من ذهب يقابلونها في صلواتهم، وأمام المصلوب مصابيح كثيرة من ذهب وفضة توقد ليلا ونهارا مع شموع كثيرة كبيرة. وأبواب هذا المسجد في غاية الإتقان والصناعة، وقد زادوا فوقها من الصور ما هو من عوائدهم

409- في ن. ح : الحضر
410- في ن. ح : عمارتها
411- سقطت من ن. م
412- في ن. ح : بشباك
413- في ن. ح : أوركان

التي لا يمكنهم تركها. ومن الزيادات المحدثة في جوانب هذا المسجد بيوت كثيرة كبيرة مشتملة على خزائن من الأموال كثيرة، فيها من الذخائر والأحجار الملونة مثل الياقوت الأحمر والأبيض والأصفر والزمرد والتيجان المرصعة بالدر الفاخر والأحجار النفيسة التي لها بال ولا تقوم[414] بمال، ومع هذه الذخائر تاج كبير من ذهب ومعه سواران من ذهب ، زعموا أن ذلك من عهد المسلمين رحمهم الله. وعن يمين هذه الخزائن خزانة فيها كتاب كبير مكتوب بماء الذهب، زعموا أنه كتاب التوراة، وهو عندهم في غاية التحفظ والصون والاعتناء به، ولا يخرج من موضعه الذي به، وذكروا أن فليب كوارط الذي هو والد هذا الطاغية أحب إخراجه من هنالك وأن يكون عنده بعد أن أعطاهم فيه مدينة كبيرة بخراجها بجميع منافعها، فلم يعطوه فيه كلاما لضنهم به. وعن يمين هذه الخزانة أيضا خزانة أخرى فيها صندوق كبير مرصع مشحون بالحوائج الفاخرة من الذهب المرصعة مثل الهويات[415] والقلائد والسلاسل والخواتيم[416] الثمينة، وعن يمينه صومعة من فضة تزيد على قامة الإنسان وداخلها وجامورها[417] من الذهب المرصع بالأحجار النفيسة الملونة . وقد عمل هذا المنار على شكل منار مسجد طليطلة و على هيأته ومثاله، وهو عندهم زينة يخرجونه في أعيادهم مع الصلبان التي يطوفونها في الأزقة على عوائدهم في الابرستسيون وما أشبهها[418]. وهذا المنار الذي بهذا المسجد –أعاده الله للإسلام- وعمل هذا على شكله، هو من أعاجيب البناءات صناعة وعلوا في الجو، فقد اشتمل على ثلاثمائة درجة منها مائتان إلى موضع التأذين ومائة إلى رأس الجامور، وفي موضع التأذين جعل أعداء الله تعالى من النواقيس الكبار تسعة نواقيس كبار جدا دائرة، كل ناقوس منها ست وثلاثين شبرا في غلظ [حرفه[419]] ثلاثة أرباع الذراع. وبناء هذا المنار كله من

414- في ن. م : تقدم
415- في ن. ح : الهربات
416- في ن. ح : الخواتم
417- في ن. ح : خارجها
418- في ن. ح : ما أشبهه
419- سقطت من ن. ح

الحجارة الصلبة التي تشبه الرخام من جنس الحجارة التي بني المسجد منها، نسأل الله تعالى أن يعيده لتوحيده وذكره.

وفي حوالي هذه الخزائن أيضا من الخزائن المشحونة بالقناديل الذهبية والفضية والصلبان المرصعة والثياب التي يلبسها الفرايلية وأكابر القسوس والشمامس والرهبان التي طرزت بالجوهر النفيس شيء كثير. وهؤلاء الرهبان الذين في هذه الكنيسة هم جميعا إلى نظر الكردنال، الذي هو اليوم أكبر كردنال عند سائر المسيحية، وهو الذي تحت البابا كما تقدم التنبيه عليه وعلى البابا دمرهما[420] الله.

وحيث كانت طليطلة من قواعد مدن اصبانيا ودار ملك قديم كان الكردنال الذي يتولى أمر كنيستها هو أكبر سائر من يلقب بالكردنال عند عبدة الصليب. وهذا الكردنال الموجود اليوم هو رأس ديوان اصبانيا، وإليه ينتهي جميع أمرهم في دينهم المنكب وفي أمر دنياهم ومشورتهم وأحكامهم كلها إليه، وكلامه هو مع الطاغية وعن رأيه يصدر كتاب الديوان جميعا.

وفي طليطلة أثر القصبة التي كان يسكنها الملوك قبل هذا، وقد أحدث من سكنها بعد التغلب الأخير عليها ولله الأثر من قبل ومن بعد.

وقاعدة طليطلة هي التي كانت دار ملوك العجم من الأول[421] هي وإشبيلية، وإليها كان قصد طارق رحمه الله بوجهته حين دخل العدوة بعد مروره بقرطبة ولم يعرج على غيرها حتى انتهى إليها، ووجد بها من الآثار التي تدل على مكانتها من الخزائن والأموال ما لا حصر له، ومن جملة ذلك المائدة المشهورة. إلا أن بعض أهل التاريخ يزعمون أن المائدة لم تكن بمدينة طليطلة وأنها كانت بموضع آخر قريب من طليطلة يسمى وادي الحجارة، وأن طارقا رحمه الله لما فتح طليطلة خرج إلى الموضع المعروف بوادي الحجارة قرب الفخ الذي كان ينسب إليه خلف الجبل حتى بلغ مدينة المائدة. وسميت بذلك لوجودها بها وهي المنسوبة إلى سليمان بن داوود عليهما السلام، وقيل أنها كانت من زبرجدة خضراء حافاتها منها وأرجلها،

420- في ن. م : دمرهم

421- في ن. ح : الأولى

وأنها كان لها ثلاثمائة وخمس وستون رجلا والله أعلم، وقيل فيها أنها كانت من ذهب مرصعة وهو الأقرب.

وقال[فلما[422]] تيقن طارق أن موسى بن نصير لاحق به وأنه سيسمع خبرها ويطلبه عنها، قلع رجلا من أرجلها ليستظهر به عند أمير المؤمنين الوليد إذا ادعى موسى أنه فتح [البلد[423]] وأصاب المائدة، ثم انصرف من مدينة المائدة إلى طليطلة وقيل أيضا أنه أدرب في وجهته هذه من طليطلة واقتحم أرض جليفية[424] وبلغ مدينة استرقة[425]، ثم انصرف إلى طليطلة وذلك في سنة ثلاث وتسعين من الهجرة، فلم يزل بها حتى وافاه موسى بن نصير [مولاه.[426]]

أخبار فتح الأندلس

ودخول موسى بن نصير إلى العدوة كان في سنة ثلاث وتسعين، ودخل معه ثمانية عشر ألفا من قريش و العرب ووجوه الناس فطلب دليلا من العجم يدل به إلى المدن التي لم يفتحها طارق، ووعده على ذلك بالحباء والجزاء فدل به إلى قلعة زعواق[427] من عمل إشبيلية فبدأ بها. وكان طارق لم يعرج عليها ثم سار منها لبلة[428] ثم إلى باجة[429] ثم إلى أكشربنة[430] على سيف البحر، فاقتحمها أجمع سلما. ثم خرج من ذلك القطر على الفج المنسوب إليه من حوز القنت، فانقطع إليه أهل هذا الموضع فأقرهم على حالهم فسموا موالي موسى. ثم سار حتى انتهى إلى طليطلة، فلما بلغ وادي المعرض اعترض جيوشه فسمى الوادي بذلك فعرف من معه، فلما قرب من

422- سقطت من ن. ح

423- في ن. ح : البلاد

424- يقصد Galicia ويذكرها ابن عثمان باسم جليقة. ابن عثمان، الإكسير...ص16.

425- يقصد Astorga

426- سقطت من ن. ح

427- في ن. ح : زغوان

428- يقصد Niebla

429- يقصد Bejar

430- يقصد Ocsonoba

طليطلة خرج إليه طارق بن زياد ونزل بين يديه إعظاما له فغض موسى منه علانية وأظهر ما بنفسه عليه، وقنعه السوط ووبخه على استبداده عليه وأنما كان أمره أن لا يمعن، فاعتذر طارق إليه وخضع له، وقال له إنما أنا مولاك وقائد من قوادك ما فتحته وما أصبته فإنما هو منسوب إليك. واستلطفه حتى رضي عنه وأحضره المائدة التي كان أصابها في المغانم، وقيل أنها كانت من ذهب منظومة بالدر والياقوت والزمرد، وهي التي يزعم الناس أنها مائدة سليمان بن داوود عليهما السلام و لم تكن كذلك، فأتاه بها ناقصة الرجل، وكان اقتلعها[431] طارق. فسأله موسى عنها فقال له هكذا أصبتها، وأحضره ما صار عنده من الخمس، وكان عظيما فزاد رضاه عنه وأمره بالتمادي والمضي إلى الثغر وبقي موسى[432] بطليطلة حتى ضحى بها سنة دخوله.

وقال عبد الملك بن حبيب[433]، يرفعه إلى علي بن رباح التابعي[434] الداخل مع موسى، وكان من خيار التابعين، أنه لما اتصل بموسى أن طارقا فتح ما فتح من بلاد الأندلس حسده وعز ذلك عليه وغضب[435] عليه، فعبر حتى تجاوز قرطبة، التي كانت أكبر قواعد ملوك العجم وأشهرها مع قربها من الساحل، وكان خروجه من إفريقية في رجب سنة ثلاث وتسعين فعبر إلى الأندلس في شهر رمضان منها، فقيل أن عبوره كان من مدينة تونس وقيل من جبل القردة المعروف بجبل موسى من قرب سبتة. فلما التقى بطارق عتب عليه ثم ترضاه فرضي عنه، ووجد عنده من السبي والذهب والفضة والجوهر ما لم يفتح مثله على المسلمين في غزوة قط. قال: ولقد كان الرجلان من الداخلين مع طارق رحمه الله يجدان الطنفسة منسوجة بقضبان الذهب والفضة منظومة بالجوهر والياقوت والزمرذ فلا يستطيعان حملها ولا يتفقان

---

[431]- في ن. م : اختلعها

[432]- في ن. ح : مولاه

[433]- عبد الملك بن حبيب: ولد سنة 174 وتوفي سنة 237 وترجم له سائر مؤرخي الأندلس، ينظر: ابن الفرضي، **تاريخ علماء الأندلس**، ص 269 ابن حيان القرطبي، **المقتبس**..ص 42 ، ابن القوطية، **تاريخ افتتاح الأندلس**...ص 32..

[434]- علي بن رباح التابعي: توفي سنة 114ه، وترجم له المقري ابن الفرضي. ينظر، المقري، **نفح الطيب**...ج3، ص8، ابن الفرضي، **تاريخ العلماء**...ص 310.

[435]- في ن. ح : نهض

عليها فيأتيان بالفأس فيضربان وسطها حتى ينقطع، ويأخذ كل واحد منهما شقا منها على غير مبالغة ولا تحقيق في قسمها، والناس مشتغلون في كل جهة بمثل ذلك.

وقال عبد الملك بن حبيب عن الليث بن سعد[436]: إن إنسانا جاء إلى موسى لما وصل إلى ناحية طليطلة، فقال له ابعث معي أدلك على كتر، فبعث معه رجالا فوقف بهم على موضع، وقال لهم اكشفوا ها هنا، فظهروا على كتر كبير مترع بالجوهر والياقوت [والزمرذ[437]] والزبرجد، فحين رأوه بهتوا وأرسلوا إلى موسى ليحضر.

وقال عبد الملك بن حبيب أيضا: كان ورود موسى بن نصير أولا إلى إفريقية إذ عقد له عليها عبد الملك بن مروان قبل توصيله إلى الأندلس في البربر، وكان أصاب فيهم سبيا عظيما، بعث إلى عبد الملك بخمسه منهم، فكان ذلك عشرين ألفا[438] ثم غزاهم غزوة ثانية فحصل منهم في خمس أمير المؤمنين عشرين ألف أيضا، فأعجب عبد الملك بذلك فكان يكتب عليه ويؤكد عليه في ذلك وفي موالاة غزوهم وفتح ما وراءهم حتى فتح الله عليهم الأندلس في أيام أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك.

قال الرازي، قال عبد الملك بن حبيب: دخل الأندلس مع موسى بن نصير رجل واحد من أصاغر الصحابة رضي الله عنهم، وهو المنيذر[439] الافريقي، لم ينسب بأكثره من الافريقي إذ كان يسكن إفريقية. وروى عنه أبو عبد الرحمن الحبلي[440] قال حدثني المنيذر، وكان صاحبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من قال رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا فأنا

436- هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي ولد سنة 94 ه وتوفي سنة 175، ينظر، - ابن خلكان، **وفيات الأعيان**...ج 1. ص 438.
- القلقشندي، **صبح الأعشى**...ج 3، ص 399-400.

437- سقطت من ن. ح

438- يشير ناسخ ن. ح إلى "بياض قليل" و الحال أن ناسخ ن. م خلو من البياض أو الإشارة إليه

439- في ن. ح : المندر

440- في ن. ح : الجبلي وهو خطأ، فهو عبد الله بن يزيد الأنصاري الحبلي توفي سنة 100 تنظر ترجمته في ، ابن الفرضي، **تاريخ علماء الأندلس** ص 212، ابن القوطية، **تاريخ افتتاح الأندلس** ص37. وقد قرأها البستاني "الحلبي" وهو خطأ.

زعيم له فلأخذن بيده فلأدخلنه الجنة[441]. والذي دخل الأندلس من التابعين على اختلاف الرواية موسى بن نصير البكري وعلي بن رباح اللخمي وحيوة بن رجاء التميمي[442] وأبو عبد الرحمن عبد الله بن زيد الأنصاري الحلبي وحنش ابن عبد الله بن عمر بن حنظلة السبأي[443] وهو الصنعاني نسب إلى صنعاء الشام ويكنى أبا رشدين، وكان من خيار التابعين وكان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالكوفة وتوفي بسرقسطة ودفن عند باب اليهود بغربي[444] المدينة، وكان قبره معروفا عنده مشهورا. وقفل سائر التابعين بقفول موسى بن نصير وبعده، وهؤلاء المسمون لا اختلاف في دخولهم مع موسى ومشاهدتهم معه المغانم والمقاسم في السبي والمتاع والأرضين والرباع، وخروج بعضهم معه وبعده. والمتخلف في دخوله منهم مع موسى حيوة بن رجاء التميمي في أقل الروايات وأبو سعيد الصدفي[445] في أكثر الروايات. وروي عن عمرو بن العاص فاختلفت الروايات في التابعين الداخلين، فمنهم من قال إنهم أربعة وهو الذي لا اختلاف فيه، ومنهم من قال خمسة بالصدفي المختلف فيه.

قال محمد بن مزين[446]: وجدت في خزانة بإشبيلية سنة إحدى وسبعين وأربع مائة، أيام الراضي بن المعتمد، سفرا صغيرا من تأليف محمد بن موسى الرازي[447] سماه "بكتاب الرايات"، ذكر فيه دخول الأمير موسى بن نصير وكم راية دخلت الأندلس معه من قريش والعرب فعدها نيفا وعشرين راية، منها رايتان لموسى بن نصير عقد له أحدهما أمير [المؤمنين[448]] عبد الملك بن مروان [على إفريقية وما

441- حديث حسن صحيح رواه الترميدي في سننه.
442- تنظر ترجمته عند: المقري، **نفح الطيب**...ج 3 ص 10.
443- تنظر ترجمته عند: المقري، **نفح الطيب**...ج 3 ص 7.
- ابن الفرضي، **تاريخ علماء الأندلس**. ص 125.
444- في ن. ح : بقربي
445- هو عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفي أبو سعيد، ولد عام 281 وتوفي عام 347 (894- 958). ابن خلكان، **وفيات الأعيان**...ج 1. ص 278.
446- في ن. ت: بن مرين
447- هو محمد بن موسى الرازي، توفي سنة 886/273. تنظر ترجمته في الزركلي، **الأعلام** ج 7 ص 117.
448- سقطت من ن. م

وراءها [449]]، والأخرى عقدها له أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك على إفريقية أيضا و ما يفتحه وراءها إلى المغرب، وراية ثالثة لابنه عبد العزيز الداخل معه، وسائر الرايات لمن دخل معه من قريش ومن قواد العرب ووجوه العمال، وذكر فيه سائر البيوتات ممن دخل دون راية. وقال فيه: إن موسى بن نصير أجاز بمن معه من العرب من جبل القردة وهو الموضع المعروف اليوم بمرسى موسى إلى الجهة الخضراء، يرمون التوغل في الأندلس، فأقاموا فيها أياما مريحين ومصلحين من شأنهم، وحين عزم على الحركة منها جمع حوله رايات الأعراب ووجوه الكتائب، وتفاوضوا في الرأي وكيف يكون دخولهم، فاتفق رأيهم على المشي إلى إشبيلية وأن يبدأوا بغزو ما بقي من غربها إلى أقصى سائر البحر بأكشبونة وافتتاحه. فقيل أن اجتماعهم بهذا المشهد الكريم كان في الموضع الذي كان مسجد الرايات[450] في الجزيرة الخضراء، وأنه باجتماع الرايات في ذلك اليوم سمي وبها سمى الرازي كتابه.

وقال: إن موسى بن نصير رحمه الله لم يبرح موضعه ولا فارق مشهده حتى أمر بتخطيط الموضع واتخاذه مسجدا، قال محمد: فمشوا على رأيهم وفتحوا غرب الأندلس إلى أقصى أكشبونة. وحين تم افتتاح المسلمين قسمها موسى بن نصير البكري التابعي بين الجيوش الذين(كذا) دخلوها، كما قسم بينهم سبيها وسائر مغانمها وأخرج من أرضها ورباعها الخمس كما أخرجه من سبيها ومتاعها. واختار من خيار السبي وصغاره مائة ألف وحملهم إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، وترك سائر الخمس من كبل[451] السبي ووحش الرقيق في الخمس من الأرضين يعمرونها ليثلث مال المسلمين، وهم أهل البسائط وكانوا يعرفون الأخماس وأولادهم بنو الأخمس[452].

---

[449]- سقطت من ن. ح

[450]- وضع أحد قراء ن. ح حاشية وردها فيها ما يلي: " هذا هو الصواب في تسمية المسجد وقد حاد عن الصواب في تسميته ابن عبدالمنعم في كتابه "الروض المعطار" فقال إنما سمي باجتماع رايات المجوس به لما وصلوا إلى الجزيرة الخضراء وهو غلط فادح. قاله محمد بن علي السلاوي عامله الله بخفي لطفه أمين . في 15 رمضان 1342 بسلا حاطها الله بمنه. (و . 67 أ)

[451]- في ن. ح : كبار السبي

[452]- في ن. ح : الاخماس

وقال: وأما سائر النصارى الذين كانوا في المعاقل المنيعة والجبال الشامخة فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال لأنهم صالحوا على جزء منها مع أداء الجزية في أرض الثمرة وأرض الزرع على ما فعله خير من اقتدى به صلى الله عليه وسلم بيهود خيبر في نخيلهم وأرضهم. قال: فلم يبق بالأندلس بلدة دخلها المسلمون بأسيافهم وتصيرت ملكا لهم إلا قسم موسى بن نصير بينهم أراضيها إلى ثلاثة بلاد (كذا) وهي شنترين وقلنبرية في الغرب وشية في الشرق، و سائر البلاد خمست و قسمت بمحضر التابعين الذين كانوا مع موسى بن نصير و هم حنش الصنعاني والحبلي وابن رباح، ثم توارثت أراضيها الأبناء عن الآباء. والذي ذكره الناس والعلماء من أرض [الصلح[453]] وأرض العنوة بالأندلس، فإنما هو مال الخمس هو أرض العنوة وما صولحوا عليه فهو حال الشمل[454] من أرض وشجر ولا سائر أموال الناس. وقال بعض علماء السلف بأمر الأندلس إن أكثرها إنما فتح صلحا إلا الأقل من مواضع معروفة، وإنه لما هزم لدريق لم يقف المسلمون بعد ذلك ببلد إلا أذعنوا إلى الصلح ولذلك بقي الروم فيها على أرضهم وأموالهم يبيعون ويباع منهم.

ولما وصل خبر فتحها إلى أمير المؤمنين الوليد ووفد عليه موسى وجماعة من المستفتحين للأندلس معه يستأذنون في إخلائها والرحيل عنها إلى أوطانهم فقربهم و أنسهم وأقطعهم الإقطاعات فيها، وأقرهم على (بياض مقدار كلمة[455]) و لم يجعل لهم سبيلا إلى الخروج منها ولا أوسعهم عذرا في إخلائها وردهم[456] إليها وإلى جيرانهم بجوابه. قال: فلما ولي أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الخلافة زاد اعتناء بها وأنزلها عن عمال إفريقية وأفرد لها عاملا، فبعث إليها[457] السمح بن

453- بياض في ن. م

454- في ن. ح : مال أشمل

455- بياض في النسخ كلها

456- في ن. ح : وردها إليهم

457- في ن. م : إليه

ملك[458] عاملا فوردها في جند سوى جندها الأول، فأراد النزول معهم في أموالهم ومشاركتهم فيما بأيديهم فوفد لهم وفد على أمير المؤمنين عمر وشكوا إليه ذلك ورغبوا إليه في الرجوع إلى بلادهم وإدالتهم بمن ورد مع [السمح بن مالك[459]]، فمنعهم من ذلك وأنسهم وعقد لهم وأشهد في عقدهم على إقرارهم في أموالهم، وأقطع الواردين مع [السمح[460]] إقطاعات غيرها. وقال هذه الثغور الهندية لولا إقطاعات عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجند فيها و لم يسدها، فكيف بتلك الناحية فإنا نستخير الله في إجلاء المسلمين عنها. ثم أنه لم ينفذ ذلك ليبلغ الكتاب أجله.

وفي رواية أخرى أن ابن نصير قسم وخمس بعض البلاد وأعجلته حركته منها وإن سأل أمير المؤمنين الوليد فيه عن استيفاء ذلك، فلما ولاها أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز[السمح] ابن مالك الخولاني أمره أن يخمس ما بقي منها ففعل ذلك وأخرج إلى جهات من تولاه وأنفذه في كل ناحية. قال ثم وردت طائفة أخرى من الذين فتحوا الأندلس مع موسى بن نصير وطارق بن زياد مولاه على الوليد بن عبد الملك، فأمرهم على ما قسم بينهم وسجل لهم به، وأقطع من دخل الأندلس بعدهم من الخمس إقطاعات كثيرة.

وقال عبد الملك بن حبيب: لما ولي الأندلس السمح بن مالك الخولاني سنة مائة في خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، دخل معه الأندلس جيش العرب فأرادوا النزول مع الأولين والمشاركة معهم في رباعهم وأموالهم، فشخصت منه طائفة إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه واختبروه[461] بما صنع موسى بن نصير من قسم الأرض بعد إخراج الخمس وإقرار الوليد لهم على ذلك، واستظهروا بسجلاته التي سجلها لهم فأقرهم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه على ما أقرهم عليه الوليد بن عبد الملك وعلى ما قسمه بينهم موسى بن

---

[458]- في ن. ح : مالك، والسمح بن مالك الحولاني قتل في سنة 103 ، تنظر ترجمته عند ابن القوطية، تاريخ افتتاح...ص 38.

[459]- بياض في ن. م

[460]- بياض في ن.م

[461]- في ن. ت: أخبروه

نصير، وأمضى لهم ذلك من أمره وسجل لهم بمثله، وكتب لهم إلى السمح بن مالك بالوقوف عند عهده وإمضاء ما أمر لهم به. وانصرفوا إلى ما تخلفوه مسرورين مبشرين بما لقوه من فضله وعدله، وكتب إلى السمح أن يقطع الجند الذين دخلوا معه الأخماس. وقال غيره من العلماء: لم تزل أموال الأخماس بالأندلس معلومة معمورة لبيت مال المسلمين مدة الأمراء فيها ثم في دول الأئمة من بني أمية تعمر بأسمائهم أيضا إلى أن ثار الرؤساء في كل وجهة وكثرت الفتن فعمرت تلك[462] (مقدار كلمة) بطول المدة واختلاف الدول والولاة والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وقال الرازي عن عبد الملك بن حبيب: وفي مستهل سنة أربع وتسعين دخل موسى رحمه الله إلى بلاد إفرنجة فأوغل فيه حتى انتهى إلى مفازة كبيرة وأرضا سهلة ذات[463] (مقدار كلمة)، فأصاب فيها صنما عظيما قائما على سارية مكتوب عليها بالنقر كتابة عربية قرئت فإذا هي:" يا بني (مقدار ثلاث كلمات) انتهيتم فارجعوا (مقدار كلمتين)[464] ذلك. وقال: وما كان هذا إلا المعنى كبير(كذا) وانصرف بالناس قافلا حتى احتل قرطبة ، فضحى فيها أضحى هذه السنة المؤرخة. وقال: واتصل بأمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك تلوم الأمير موسى بن نصير بالمسلمين في الأندلس وتقحمه بهم أرض العدو من غير مؤامرة[465] فأقلقه ذلك وبعث مولاه مغيثا إليه وأمره أن يعنفه[466] ويقفله إلى إفريقية، فقدم مغيث على موسى وهو في قرطبة فوهبه موسى الموضع الذي ينسب إليه في عهد المسلمين، وهو بلاط مغيث، بجميع أرضه من أرض الخمس. وغزا مغيث إلى جليقية فاستبطأ الوليد قدوم موسى واستقصر مغيثا، فبعث رسولا آخر يعرف بأبي نصر إلى الأندلس وأمره أن يتوكل بموسى بن نصير حتى يصدره إليه، فورد عليه في صدر سنة خمس. قال غيره: [وقد جاء في الأثر أن

462- بياض في جميع النسخ.
463- بياض في جميع النسخ
464- بياض في جميع النسخ.
465- في ن. ت: مأمرة.
466- إلى هذه الكلمة انتهت نسخة ن. ح.

موسى بن نصير خمس قرطبة وخرج في خمسها[467]] البطحاء التي بقبليها التي هي اليوم مقبرة.

فلما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله السمح بن مالك الأندلس أمره أن يجعلها مقبرة للمسلمين، وكان السمح بن مالك هذا من خيار أهل زمانه ثقة وعدالة.

وروى أحمد الرازي في تاريخه، وهي رواية أخرى في صحة تخميس الأندلس، قال عبد الملك بن حبيب: يرفعه إلى بعض التابعين الداخلين بالأندلس، قال كان الخلفاء من بني أمية إذا وردت عليهم الجبايات استقدموا مع جباية كل موضع عشرة رجال من وجوه رجالها وخيارهم فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا إله إلا هو ما فيها دينار ولا درهم أخذ إلا بحقه و أنه فضل أعطيات أهل البلد من العيال و الذرية. قال: فأتى وفد إفريقية بخراجها في آخر أيام سليمان، قال فلما أمروا أن يحلفوا حلف ثمانية ونكد رجلان وهما إسماعيل بن عبيد الله مولى ابن مخزوم والسمح بن مالك الخولاني، فأعجب عمر بن عبد العزيز بفعلهما، فلما ولي الخلافة ضمهما إلى نفسه فاختبر منهما دينا وخيرا، فولى اسماعيل بن عبيد الله إفريقية وولى السمح بن مالك الأندلس، وأمره أن يخمس ما بقي من أرضها وعقارها ويخرج منها خمس الله تعالى ويقر القرى بأيدي أربابها وأن يكتب إليه بصفة الأندلس وبحرها وأنهارها وهيأة مجازها. قال: وكان رأيه أن يقفل أهلها منها لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين. قال: فقدم السمح الأندلس وعزلها عن إفريقية بأمر أمير المؤمنين عمر وميز أرض العنوة من أرض الصلح ليصح الخمس فيترل القسم بتخميس قرطبة، وأخرج البعوث بمثل(مقدار كلمة)[468]، وأخرجت البطحاء المعروفة بمصلى بقبلي قرطبة. فلما أكمل السمح ما أراد خاطب أمير المؤمنين بما عمله في أرض العنوة وأرض الشمل، وهي التي فتحت صلحا فإن أهلها صولحوا على الجزية مع أجزاء من الأرض منها مثالثة ومرابعة، كيفما كان طيب الأرض وغلتها حسبما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في خيبر، ويستأذنه في بناء القنطرة من صخر

---

[467]- ساقطة من ن.ت

[468]- بياض في جميع النسخ

السور، فإنه كان لا يعرف يومئذ في جهة قرطبة مقطع صخر،فورد جواب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بأن يجعل البطحاء التي حصلت في الخمس بقبلي قرطبة مقبرة وأن تبنى القنطرة من صخر السور ويجبر ما تثلم منه باللبن. فصارت البطحاء المذكورة مقبرة للمسلمين من يومئذ من خباسة أمير المومنين عمر رضي الله عنه. قال: وكذلك القنطرة من بنيانه أيضا.

ومن [بعض] فضائل التابعين المشاهدين لفتح الأندلس مع موسى بن نصير على ما حكى بعض الرواة، أنه لما غزوا افرنجة وصاروا من غزاهم تولى حنش بن عبد الله وأبو عبد الرحمن الحبلي تأسيس جامع قرطبة وتجديده بالبناء وقوما محرابه وأسساه بأيديهما. [وورد في[469]] الأثر أنها روضة من رياض الجنة بقيت (مقدار كلمتين)[470] بني أمية، وبنى بنيانا آخر لم يهدم المحراب ومشى على حمر خشب إلى أن وقف في موضعه اليوم تبركا به لما توليا بنيانه بأيديهما رحمة الله عليهما فهو كذلك إلى اليوم. قال: ولما أكمل هذان التابعان بناء الجامع على ما تقدم انصرفوا مع أميرهم موسى بن نصير واجتمعوا في جبل المائدة على النهر بقبلي طليطلة ودعوا لأهل الأندلس، وقد جاءت في فضلهم إجابة دعوهم آثار كثيرة، منها أن موسى بن نصير حاصر حصنا من حصون شرق الأندلس بضعا وعشرين ليلة وألح في قتاله فلم يقدر عليه لمنعته وحصانته، فلما طال عليه ذلك نادى في الناس، قال : فظننا أنه قد بلغته مادة عن العدو وأنه يريد التحول عنه فأصبحنا على تعبئة، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أيها الناس إني متقدم أمام الصفوف فإذا رأيتموني قد كبرت وحملت فكبروا واحملوا، فقال الناس: سبحان الله إن هذه لغفلة يأمرنا أن نحمل على الحصن وما لا سبيل إليه وأين المحال. قال : فتقدم أمام الصفوف حيث يرى الناس ورفع يديه إلى السماء وأقبل على الدعاء والرغبة والتضرع والبكاء، ونحن وقوف ننتظر وقوفه وتكبيره، ثم كبر وحمل إلى سور الحصن، وكبر الناس معه وحملوا فانهدمت[471] ناحية

---

[469]- سقطت من ن. م

[470]- بياض في جميع النسخ.

[471]- في ن. ت: فانهارت

[من سور][472] الحصن التي تليه وجالت الخيل على هدمه، وفتحه الله عز وجل على أوليائه وعبيده المسلمين.

قال: ومنها أنه قاتل حصنا آخر فيه للعدو عدد ظاهر وعدة ظاهرة، فاقتتلوا قتالا شديدا، وجال المسلمون جولة عظيمة، فأمر موسى بن نصير بسرادقه، فكشط عن نسائه وبناته ليبرزهن وأقبل على الدعاء وحمى المسلمون، والتحم القتال ففتحه الله تعالى عليه، وكان يغزو بأهل بيته يرى أن ذلك أقرب لإجابة دعوته.

نبذة عن أخبار رجوع موسى بن نصير إلى المشرق

نبذة عن أخبار رجوع موسى بن نصير رحمه الله رحمه الله إلى المشرق، ففي صدار سنة خمس وتسعين ورد أبو النصر رسول أمير المومنين الوليد بن عبد الملك الموجه في الأمير موسى بن نصير، فأمره بالرحيل وخرج من قرطبة معه ومع طارق بن زياد ومن معه من التابعين وكل من أراد الرجوع والتخلف عن الأندلس وترك مع حبيب ابن عقبة بن نافع الفهري مؤازرا له، وأقام معهما في الأندلس كل من أراد سكناها في مواضعه التي كانوا اختطوها واستوطنوها قبل، وقفل معه الرسولان مغيث وأبو النصر حتى احتلوا إشبيلية ، فأقر موسى بها ابنه المستخلف على الأندلس لاتصالها بالبحر نظرا لقربها من مكان المجاز، وركب موسى البحر مع جماعة القفال فمضى لسبيله راجعا إلى المشرق وهو متلهف على ما فاته من الجهاد متأسف لما لحقه من الإزعاج وذلك في شهر رمضان منها يعني خروجه من إشبيلية.

قال عبد الملك بن حبيب يرفعه إلى أبي نعيم التجيبي: لما خرج موسى بن نصير من قرطبة بعد أن وصل إليها رسول أمير المؤمنين الوليد وأخذ بعنان دابته يخرجه من الأندلس على ما أمر به. قال فلما بلغنا معه فج الماء من وراء شقندة انبعث موسى إلى قرطبة راجعا تحته بغلة شهباء ومعه التابعون ووجوه الناس، حتى بلغ الفج

[472]- سقطت من ن.م

وأطل على قرطبة فوقف وقال: يا قرطبة حبذا أنت ما أطيبك وأطيب ليلك ونهارك وما أحسن اعتدال هوائك، ثم رد وجه دابته على طريقه ثم خرج من إشبيلية بعد أن صام وعيد فيها عيد الفطر.

وقال عبد الملك: توجه موسى بن نصير يريد المشرق فطوى القيروان و لم يدخلها و ضحى أضحى هذه السنة بقصر الماء على ميل منها، وكان الناس قد أقحطوا وأجذبوا جذبا شديدا فخرج موسى بالناس واستسقى و خطب الناس، فلما فرغ من خطبته قيل له ألا تدعو لأمير المؤمنين، قال: ليس هذا اليوم ذلك، فسقوا سقيا كثيرا. قال: ثم مضى إلى أمير المومنين ومعه طارق و كل ما أصاب من الأموال والجواهر والغنائم وخيار السبي نساء وصبيانا و المائدة، قيل أنها قومت بمائتي ألف دينار بما فيها من الجوهر.

قال: ذكر بعض أهل الأخبار في أمر المائدة أنها سيقت من بيت المقدس في الزمن الأول، وذلك أن أول من احتل قاعدة الأندلس واختطها وملكها أشبان بن طوبان ابن يافت بن نوح عليه السلام، وبه عرفت الأندلس بإصبانيا، وأنهم كانوا أكثر من مائة ملك ملكوا على تاريخ أربعة آلاف سنة من هبوط آدم عليه السلام وعلى تاريخ ألف سنة من الطوفان، وهو أول ملك اليونان فيها، وأن اليهود لما ادعت قتل عيسى بن مريم عليه السلام [حميت النصرانية حيث كانت و تكاتب أملاكها، وكان صاحب الأندلس منهم يسمى][473] بيطرش[474] و قيل هراقلش فآلى أن يلقي من زبل الأندلس في بيت المقدس، فغزا من الأندلس واحتمل كثيرا من الزبل وغزا أيضا ملك رومة وملك أرمينية و تحركوا على موعد، واحتل جميعهم بيت المقدس و حاربوا من كان فيه حتى غلبوا عليه، وقتلوا من اليهود مائة ألف، واقتسموا ما وجدوا في البيت من الفوائد والغرائب النفيسة، فخرج في سهم ملك الأندلس يومئذ المائدة و أنها التي وجدت بجهة طليطلة، وخرج في سهم ملك رومة حلة آدم و عصى موسى عليهما السلام، وخرج في سهم ملك أرمينية ياقوتة ذي القرنين، و قيل

473- ساقطة من ن. ت.

474- في ن. ت: بطرش

أيضا أنها الياقوتة التي أصابها موسى بن نصير مع الفيلة في ماردة ، و أنها وقعت في يد ملك الأندلس مع المائدة فأصابها موسى في طليطلة و ماردة، وكانت تضيء منها (مقدار كلمة)، و حمل جميع ذلك إلى أمير المومنين الوليد.

قال: وفيما رواه عبد الملك بن حبيب السلمي أن بحت[475] نصر حشد جميع أقطار الأرض لحرب بيت المقدس، فكان فيمن حشد ملك الأندلس، فحضر الغارة ووقعت في سهمه مائدة سليمان، فجاء بها إلى الأندلس . قال ثم دخلت سنة تسعين ففيها لحق موسى بن نصير بجميع مغانم الأندلس بحضرة أمير المومنين الوليد قبل وفاته بشهرين أو نحوهما، فأحضر موسى بين يديه جميع ما يحمله، وقدم المائدة فأهداها إليه وادعى أنه أصابها، فكذبه طارق وقال بل أنا أصبتها والدليل على ذلك الرجل الناقصة منها معي ، ثم أخرجها فصدقة الوليد وقبل قوله و أعظم جائزته، و أقام موسى قبل الوليد حتى توفي. قال: فلما مات أمير المومنين الوليد وولى أمير المومنين سليمان أخوه أخذ موسى بن نصير و من كان معه من عمال المغرب بما بلغه من إقطاعهم[476] لقرى الأخماس و ما غلوا فيه من الحال فغرموا وأغرم موسى مائة ألف طلبه بها (بياض مقدار كلمة)[477] مائة ألف استجار بيزيد بن المهلب، وكان سليمان بن عبد الملك يجد على موسى بن نصير أبدا ويسميه الشيخ الكذاب، من أجل ما ادعى أنه أصاب المائدة [و كان ذلك مما يعاب به سليمان، فإن موسى لم يكن كذابا ولا كذب في قوله أنه أصاب المائدة][478] فإن كان هو لم يشاهد أمرها فإنما أصابها عامله و مولاه الموجه لذلك بسعيه و أمره كما أن فتح الأندلس إنما ينسب إليه.

---

[475]- في سنة 586 ق.م أغار كبوكد نصر على أورشليم فأحرقها وأجلى أهل يهودا إلى بابل، ولعل هذا هو المقصود.

[476]- في ن. ت إقطاعاتهم.

[477]- في ن . ت. و ن . م.

[478]- ساقطة من ن .م.

ملاحق

هذه الملاحق عبارة عن ظهائر إسماعيلية وقف عليها ناسخ النص الموجود في الخزانة الحسنية محمد بن علي الدكالي، وهي ظهائر لها صلة بنص الرحلة، أوردها في مقدمة النسخة، وهي كما يلي:

النص الأول:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، اسماعيل بن الشريف الحسني رعاه الله اليمن والإقبال وبلوغ الآمال، خديمنا الأرضى الحاج محمد بن علي معنينو سلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد فقد كلمنا خديمنا الأنصح ابن عمك الحاج محمد بن ابراهيم معنينو، وقلنا له أياك تزبلح في هذه الغنيمة كما ازبلحت في سفينة السكان واتكلت على غيرك حتى لم يكن منها شيء حتى الآن، قم تمشي أنت بنفسك إليها وتقف على وسقها حتى تنزل في البر ما يوجد فيها قليل أو كثير، فقال لنا سيدي هنالك وهو ثقة أكثر مني، قلت له : من هو. فقال: ولد خديمك المرحوم بكرم الله الحاج علي معنينو عمه. فقلت له: لعله رجل غافل ، قلت له: ابعث ولدك محمد يقف لذلك. فقال لي: ياسيدي ما عندي أحد أصدق من خديمك الحاج محمد بن علي معنينو ولا نحب أحدا يتامر عليه بوجودك، وهو رجل ثقة، واقف على ساق الجد والاجتهاد ولا تأخذه غفلة في أمر من الأمور

سيما متاع بيت المال عمره الله(...) كن عند الظن بك واحض رقبتك ورقبة ابن عمك فأن ولد عمك كثيرا ما أثنى عليك وغيره فلا تحشمه معنا فإنه تقاك أكثر من نفسه، فاعمل بما قاله فيك، وأياك يضيع شيء ولو قلامة ظفر، فهذه خدمتك ومزيتك عنده، والله يعينك. وأياك يشمت فيك البحرية والرياس وغير ذلك هاه هاه هاه أنت مأمور واعمل بمقتضى ذلك، واعلم عمك بالشادة والفادة، ولا تتكل على أحد، باشر أمورك بنفسك حتى تبلغ ذلك على حسن المراد وكما ينبغي وتعطي للرياس والبحرية كل ذي حق حقه، وحتى ذلك الجائزة اجعلها تحت يدكمأمونة بقصد دارنا العلية بالله. فأياك يضيع منها ولو رشقة واحدةحتى تأتي لحضرتنا العلية بالله والسلام. وكتب في سادس وعشرين من رمضان المعظم عام ثلاثة وثلاثين ومائة وألف.

انتهى الظهير الإسماعيلي الشريف مباشرة ، توفي الحاج محمد بن علي معنينو عام 1136 حسبما أخذ من رسم ايصائه رحمه الله على أولاده الصغار.

النص الثاني:

الحمد لله مما يتعلق بأمر هذه الرحلة الإصبانية الإسماعيلية ما وقفت عليه بظهير اسماعيلي ونصه:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا أثيرا، نص الطابع إسماعيل بن الشريف الحسني رعاه الله اليمن والإقبال وبلوغ الآمال ، خديمنا الحاج محمد بن علي معنينو سلم عليك ورحمة الله وبركاته وبعد،

فاعلم أن عجوزا زوجة القباج الفاسي الكباص جاءت إلى مقامنا العلي بالله وذكرت أن ولدها أسيرا ببلاد النصارى بقالص وطلبت منا هذا النصراني حامله الذي اسمه منويل طرمير الذي صفته أبيض للطول أحول من جنس الاصبنيول، وذكرت أن أخ هذا النصراني هو الذي اشترى ولدها ، ولما أحضر خديمنا عبدالقادر بن عبدالرزاق هذا النصرانيكان أمامنا ورأيناه والتزم إخراج ولدها محمد القباج ويزيد أربعمائة ريال موزونة بوجهها على المسلم، أمرنا خديمنا ابن عبدالرزاق يتولى الكلام مع النصراني ويقبض منه المسلم المذكور والأربعمائة ريال المذكورة. وأنعمنا بالنصراني منويل المذكور والموصوف صدره على هذه المرأة لوجه الله تعالى وابتغاء ثوابه الجسيم لتخرج به ولدها الأسير المذكور وأطلقنا سراح هذا النصراني، فإذا جاءك كتابنا هذا أسماه الله، فلا تمنعه من الركوب والجواز إلى بلاده من النصراني براءة خديمنا ابن عبدالرزاق الذي أمرناه أن يتولى قبض الفدية منه والمسلم والسلام.

وكتب في الثامن عشر من صفر الخير عام ثمانية وثلاثين ومائة وألف، انتهى لفظ الظهير الإسماعيلي مباشرة.

مراجع التحقيق

باللغة العربية:

ابن حـــيان (القرطبي)،**المقتبس من أنبـــاء أهل الأندلس**، تحقيق وتقديم محمود علي مكي، منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة 1971.

ابن عثمان المكـــناسي(محمد)، **الإكسير في افتكـــاك الأسير**، تحقيق وتقديم محـــمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط**1965**.

ابن الفرضي(الوليد بن محمد)،**تاريخ العلماء والرواة بالأندلس**،جزآن القاهرة 1988.

ابن القوطية(أبوبكر بن عمر)، **تاريخ افتـــتاح الأندلـــس**، تحقيق ابراهيم الأبياري، القاهرة –بيروت 1982.

أعمال ندوة **الرحالة العرب والمسلمون: اكتشاف الآخر، المغرب منطلقا وموئلا**، منشورات وزارة الثقافة الرباط 2003.

الأفراني (الوجار المراكشي)، **نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي**، تحقيق عبداللطيف الشادلي، الرباط 2001.

بينبن (أحمـــد شوقي)، **تاريخ خزائن الكتب بالمغرب**، منشورات الخـــزانة الحسنية، مراكش 2003 .

بينبن(أحمدشوقي)، خزانة مراكشية بالأسكوريال، في **مجلة كلية الآداب والعلـــوم الإنسانية الرباط** (9)،1982، ص.ص، 127-142.

التميمي(عبدالجليل)،**الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين**، منـــشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلوميات، زغوان 1991.

الحجري(أحمد بن قاسم أفوقاي)، **ناصر الدين على القوم الكافرين**،**مختصر رحـــلة الشهاب إلى لقاء الأحباب**، تحقيق محمد رزوق، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالدارالبيضاء،1987.

العمراوي(محمد بن ادريس)، **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، تحقيق وترجمة زكي مبارك، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط 1989

الغزال (أحمد بن المهدي)، **نتيجة الاجتهاد في المهــادنة والجهاد، رحلـــة الغزال وسفارته إلى الأندلس**، تحقيق وتقديم اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1980.

القادري(محمد بن الطيب)، **نشر المثاني لأهــل القرن الحادي والثاني**، تحقيق محمد حجي وأحمدالتوفيق، الرباط 1978-1986.

كراتشوفسكي(اغناطيوس)، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، الطبعة الثانية،دار الغرب الإسلامي،بيروت 1957.

الكردودي(أحمد بن محمد)، **التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الاصبنيولية**، تحقيق عبدالوهاب بنمنصـــور، مطبوعات القصر الملكي،الرباط 1963.

المـــؤرخ المجهول، **تاريخ الـــدولة السعدية التكمدارتية**، تقديم وتحقيق عبدالرحيم بنحادة، منشورات عيون، مراكش 1993.

المودن عبدالرحمن و بنحادة عبدالرحيم، **السفر في العالم العربي الإسلامي، التواصل والحداثة**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط2003.

باللغات الأجنبية:

Braudel (Fernand), *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l' époque de Philippe II* , A .Colin, Paris , 1982 .

Caille(Jacques) *La représentation diplomatique de la France au Maroc*, Paris , 1951.

Hammer (Prugstall J.Von), *Histoire de l' empire ottoman depuis son origine jusqu à nos jours* , traduit de l Allemand par Heller , Paris 1923 .

Hess (Andrew), "The Moriscos: An Ottoman Fifth Column in the

Sixteenth Century Spain", in *American Historical Review* (1968), 1, pp. 1-25

Lewis (Bernard), *Comment l'Islam a découvert l Europe*, La découverte, Paris, 1984

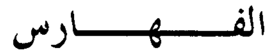
Mantran (Robert), *Histoire de l'empire Ottoman*, Fayard, Paris, 1989 .

Pérès (Henri), *L'Espagne vue par les voyageurs musulmans de 1630 à 1930*, Adrien-Maisonneuve, Paris 1937.

Rouard de Card, *Les relations de l'Espagne et du Maroc au XVIII et au XIX siècles*, Paris, 1906.

Stanley(John),An Account of Embassy from Morocco to Spain in 1690-1691, in *JRAS*, t.II, 1868, pp. 359-378

Vernet (J), La Embajada de Al-Ghassani (1690-1691), in *Al Andalus*, Vol. XVIII, 1953,pp.109-131



فهرس الأعلام والمجموعات البشرية

فهرس الأعلام

فهرس المجموعات البشرية

فهرس الأماكن

الألف

الباء

ج

ن

ه

و

الأماكن الواردة في النص وما يقابلها في اللغة الإسبانية

Ceuta .... سبتة

Gibraltar..........................جبل طارق

Tarifa.............................. طريفة

Algesiras.......... الجزيزة أو الجزيرة الخضراء

Cadiz........................قادس أو قالص

Santamaria......................شنتمرية

Ronda..............................الرندة

Sanlucar.......................سان لوكار

Jerez de la Frontera........ شريش لافرنطيرة

Lebrija ....البريجة

Utrera...........................أطريرة

Maechena......................مرشينة

Guadalquivir.................الواد الكبير

Sevilla...........................اشبيلية

Ecija...............................ايسكا

Huesca..........................ويسكا

Guadix.........................واد آش

Granada..........................غرناطة

Cordoba..........................قرطبة

Sierra Morena.................... سير مرينة

Baeza.............................بياسة

Jaen................................جيان

Malaga............................. مالقة

El Carpio.......................... الكاربي

Andujar.............................. اندوخر

Almeria.............................. ألمرية

Linares.............................. ليناريس

Carmona.................... قرمونة أو كرمونة

Torre Juan Abad................ طري كوان أباد

Mancha............................... مانشا

Orcera .... قوصرا

Venta de San Andres........... بينطة سان اندريس

Membrilla............................ المنبريلية

Manzanares.......................... منسناريس

Almagro............................. الماكرو

Mora................................. مورا

Tajo.................................. طاخوا

Bargas............................... بكنص

Getafe............................... خطافي

Madrid.............................. مادريد

El Ritiro............................ الرطير

El Palacio de El Pardo................. البردو

El Escorial......................... الأسكوريال

Plasencia............................ بلاصينصا

Toledo............................... طليطلة

Consuegra........................... سويقرا

Ayamonte........................... أيا مونط

Medina Sidonia.................... مدينة صيدونة

Valladolid.............................. بلیادولید

Olevira................................. البيرة

Medina Celi........................... مدينة سليس

Barcelona.............................. برشلونة

Alicante................................ أليقانتي

Salamanca............................. صلامنكة

Aranjuez............................... أرانخويس

Verde.................................... بيردي

Illescas................................. وشقة

Guadalajara.......................... وادي الحجارة

Bejar..................................... باجة

Zaragoza............................... سرقسطة

Niebla................................... لبلة

Yjar....................................... ايخر

Valencia................................. بلنسية

Santaren................................ شنترين

Coimbra................................. قلنبرية

Ejea....................................... شية

Almeida................................ مدينة المائدة

Astorga................................. استرقة

Zaguac.................................. قلعة زعواق

Ocsonoba.............................. أكشبونة

Navarra................................. نبارى

قشتالة القديمة............................Castilla la vieja

قشتالة الجديدة........................Castilla la Nueva

ليون..Leon

أراغون..Aragon

قطالونيا......................................Cataluna

جليقية..Galicia

الاصطلاحات والتعابير العامية المغربية الواردة في النص

المخزن: الدولة المركزية المغربية

رجال المخزن: رجال الدولة

مخازني: الساهر على الأمن.

المحلة: الحملة العسكرية .

الأحباس: الأوقاف

المدشر أو الدشرة: القرية

الحوت: يطلق على عموم السمك

الرقاص: الحامل للرسائل من بلد إلى بلد

براوات: جمع "برا" أو" برات" وتعني الرسالة

الكسكسو: لون من الطعام المغربي المشهور.

المكانة: الساعة

القصبة: القلعة.

الألفاظ والتعابير الأسبانية التي استعملها المؤلف

كوشطة:	الشاطئ:	Costa
شلظاظ:	الجند:	Soldados
أهل الوردية:	الحرس	Guardia
كنبنط:	الدير	Convento
الميسة:	القداس	Misa
المنكاص:	الراهبات	Monjas
الامكالصوص	طريقة رهبانية	Descalzos
نوسي أو نونسيو :	ممثل البابا	Nuncio
السوبيسب:	رئيس الأساقفة	Arzobispo
كونديس:	الكونت وهو لقب شرفي	Conde
دوكيس:	الدوق وهو لفب شرفي	Duque
لوبو:	الذئب	Lobo
سره:	ثعلب	Zorra
بينطة:	دار معدة لنزول المسافرين	Venta
الفرية:	سوق جامع	Feria
غليرة:	القارب	Galera
بلاصيو:	القصر	Palacio
مايوردوم:	قيم قصر الملك	Mayordomo
انيشادور:	السفير	Embajador
كند اسطابلي:	قائد أعلى الجيش	Condestable
برنسيي:	أمير	Principe
كران دوكي:	الدوق الكبير	Gran Ducque
بلاصه مايور:	الساحة الكبيرة في مدريد	Plaza Mayor
راي شيك:	الملك الصغير	Rey Chico

ميلاكروس:	الخوارق	Milagros
كاسيطة:	جريدة	Caceta
فرايلي، فرايلية:	راهب، رهبان	Fraile
كليريك:	اكليروس	Clerigo
ضامات:	سيدات	Damas
شمريره:	قبعة	Sombrero
الأربة:	آلة موسيقية تشبه القانون	Arpa
أركانو:	آلة موسيقية، الأرغن	Organo
البرسيسيون:	الطواف أو الزياح	Procesion
انكطارة:	آلة طرب تشبه العود(قيطارة) :	Guitara
كونفصور:	الاعتراف	Confesor
اريكس، أريخس:	هراطقة	Herejes
باسطون:	عصا	Baston
بوليا، بولا:	إذن كنسي	Bula
انكسيشيون:	ديوان التفتيش	Inquisicion
كدش:	عربة.	Coche

فهرس المواضيع

the comments and annotations of the copyist, and because it was accomplished in 1921, one year after the battle of "Anoual".

Tokyo, January 2005

Abderrahim Benhadda
Professor, Muhammad V University- Agdal- Rabat
Visiting Professor (2004-2005) ILCAA,
Tokyo University of Foreign Studies- Tokyo

Despite the images of majesty and grandeur in his descriptions, al-Ghassani was very tactful in his behaviour towards the Spanish dignitaries and avoided mentioning any diplomatic incidents, especially those which happened during other missions to Madrid, related with the arrogance of these ambassadors and their exaggeration in describing the majesty of the sultans of Islam.

4.Al-Ghassani, the religious polemist:

Whenever ambassador al-Ghassani arrived in a city, he met with the religious authorities to discuss matters of faith. Excepting al-Boustani who did not approve of his arguments and his evaluation of the Christian experience, all researchers emphasized the high degree of tolerance shown by al-Ghassani in his debates with the religious men. This respect for foreign religions appeared in many cases, and was especially evident in al-Ghassani's admiration of the benevolent work undertaken by those men in the hospitals and libraries.

Al-Ghassani's debates included Christian-Islamic issues that seemed very similar to those suggested by a Moroccan traveller to Europe in the beginning of the seventeenth century (Abou al-Kassem al-Hajri, called "Afougay"). They are:

First, the relation between Christ and God. The ambassador met one of the monks from Mashriq, and discussed this question with him. The importance of language as an instrument of communication is clear; thus, when al-Ghassani found someone who spoke the Arabic language without the need for translation, he gave free rein to his tongue and his pen to discuss an issue that had been concerning the Muslim jurists for a long time.

Second, the discussion of Christian fasting and feasts. In particular, Al-Ghassani gave his Islamic interpretations of Easter celebrations. This topic was not based on any particular dialogue but presented as his own studies on the matter.

In presenting this important source for Europe in the seventeenth century, we relied on four copies from al- Ghassani's book. The first, No. 5304, is kept at the National Library in Madrid; the second, No. 162, is kept at the Municipal Library in Rouen, France; the third, No. 928 is kept at the General Library in Tetouan, Morocco and the fourth, No. 11329, is kept at the al-Hassaniyah Library in Rabat, Morocco. The last, recording one of the most important stages of the Spanish-Moroccan relations, is considered the most detailed and elaborate of all, considering

Al-Ghassani did not raise the question of Muslims being subject to quarantine, which was subsequently introduced by both Ottoman and Moroccan writers, although this system had been known in Mediterranean world since the fourteenth century. Almost all the Muslim travellers mentioned the issue but each dealt with it from his own angle, varying between refusal and acceptance.

The Spanish were less strict in imposing the quarantine on Muslim ambassadors before the end of the eighteenth century. Al-Ghazal did not spend more than six days in quarantine, whereas Mohammad Ibn Uthman al-Maknassi (Moroccan ambassador in Spain at the end of eighteenth century) and Vasif Efendi (Ottoman ambassador in 1787 in Madrid) were submitted to fourteen days. Al-Ghassani did not refer to this, however. Instead he begain with a description of Gibraltar, and then described the weather conditions that forced him to remain eight days in Gibraltar, allowing him to wait for the sea to calm down. It is probable that he did this to avoid mentioning this system that he knew Muslims would not accept easily.

In audiences with the king, al-Ghassani accepted everything prescribed under Spanish protocol and pointed out that he never declined invitations to ceremonies, except on one occasion which required performing official greetings. Thus the Moroccan ambassador remained faithful to his Islamic traditions while he reminded the Spanish of the Islamic rules concerning greetings.

Like all the other Muslim ambassadors, whether Ottoman or Moroccan, al-Ghassani wrote in detail about the way the king stood while receiving the Moroccan delegation. This detail compared the Spanish king and Moroccan sultan during receptions with foreign delegations, besides showing the dignified status which the sultans of Morocco enjoyed in Europe. Throughout the embassy account, however, we feel as if its goal was to accumulate all proof confirming the protocol of sitting and standing. Here, we should point out that al-Ghassani was only reflecting the Muslim viewpoint of Europe. This tendency is also seen in the accounts by an Ottoman ambassador in Austria in the second half of the seventeenth century, Kara Mehmet Pasha, who did not mention anything about Austria apart from the protocol during receptions--particularly that concerning standing and being seated—instead, taking advantage of every opportunity to praise the majesty of the Ottoman sultan. These descriptions of receptions by al-Ghassani and the Ottoman ambassador constitute an important phase in the conception of a comprehensive image of Europe in Islamic writings.

provisions of food and very favourable conditions of accommodation, besides very caring personnel". He also indicated the role played by religious men in financing clinics and pointed out that for every hospital, there was a special doctor who was given a residence "and all the supplies he needed so as to be continuously available for work, unworried by earning a living. Yet, al-Ghassani refused to send a member of the Moroccan delegation to one of those hospitals when he suffered from a seizure while in the city of San-Locar.

The Inquisition

Al-Ghassani also wrote about the Inquisition, not as an instrument for suppression and state violence, but as an important legal instrument. The institution of the Inquisition was totally independent. Even the king, for all his authority and holiness, could not interfere in its decisions. And in that, al-Ghassani shared the same judgement as the French ambassador Marquis de Villar who considered that an inquisitor was of higher status and authority than the king. Al-Ghassani supported his view with many examples. The tyrannical members of the king's court jailed people arbitrarily, and would sometimes seize a man and his entire family, including his children, taking all his belongings.

3. Al-Ghassani, the diplomat:

Al-Ghassani was, without doubt, an efficient diplomat, as is clearly apparent from the following qualities found in his writing.

The title al-Ghassani chose for his book, *Rihlat al-Wazir fi Iftikak al – Assir,* was his justification for his presence as a Muslim in *Dar al Harb*. For the jurists of Islam, it was forbidden to stay in a country of infidels. Still, there were some exceptions: the "hanafi school" showed much open-mindedness and allowed Muslims to travel to *Dar al Harb* for the sake of commerce, especially in times of famine; the "Maliki school" was more strict and did not allow Muslims to go to *Dar al Harb* except as invaders or for the sake of liberating Muslim prisoners of war. But even if al-Ghassani's mission was to liberate the Muslim prisoners of war, just as Henry Perez pointed out, he indeed avoided the embarrassment of justifying his stay among infidels. It is clear that all travel writings of the time, starting with al-Ghassani, all had similar titles; and this means that Moroccans, until the end of the eighteenth century, were required to provide justifications acceptable by the Islamic law.

adoption of European means to progress did not appear until the end of the eighteenth century.

Among the issues that al-Ghassani discussed were the following:

The postal service

Al-Ghassani was among the few Muslim ambassadors who paid attention to this system soon after arriving in Madrid. Prior to this, when he was still in the city of San Locar, he had received letters from the Cardinal and from the Spanish Court. To his surprise, the letters had been written only three days before, although the distance from the place of issuance was more than 300 miles. He did not wait long before explaining to readers how speedy communication was made possible throughout all of Europe, and not only inside Spain. When describing the market of Madrid, he described the postal service and its profits to the country.

The press

In relation to the role of the postal service in communication, he noticed the importance of the press. We believe once again that al-Ghassani was among the first travellers who demonstrated an interest in the press and gave reliable and authentic information. One traveller in the 19th century talked about the importance of the press in commerce. Indeed, it was al-Ghassani who provided us with information about its role in the transmission of news from distant countries, and warned us of the risks of this means of communication, especially concerning unfounded news.

The safety of roads

For assuring safety throughout the country and to assure the success of the postal service and the press, it was necessary to guarantee safety on the roads. Al-Ghassali seems to have been concerned with this issue, mentioning what he called "*Ventas*"-- what could mean "*nzalat*" in Morocco or the "*karavansary*" in the Ottoman Empire. He also described their important role in the organization of commercial exchange and trips to Spain, just as they contributed in eliminating the phenomenon of theft and robbery so common in that region.

Hospitals

Among the institutions that impressed al-Ghassani and which he described extensively were the hospitals. He indicated that Madrid alone had "fourteen establishments extremely large and clean with great

could have overlooked this protocol but he insisted each time on pointing *out the presence of the king's wife and mother.*

He insisted also on addressing the issue of "the Queen" during the period between the death of King Philip IV and the enthronement of Carlos II, and described the case of Maria de Austria. He was also attracted to the relations between the European royal families, which pushed him to cite a number of cases which showed the political role of women in the transition of rule in European countries. From dealing with these relations he was able to predict situations that Spain would witness after the death of Carlos II.

Al-Ghassani also wrote about women in religion, particularly the issue of monasticism among women. While he was in Linares, he visited a monastery for women, which was an important occasion for him to acquire deep insight into the administration of these monasteries and the reasons causing women to enter them. When describing the monastery, he did not generalize but mentioned specific cases.

He also discussed the role of women in the Spanish society. She was not only a housewife but assured many other roles outside the house such as selling bread on streets or running restaurants in Madrid and other cities of Spain. This description reminds us of the accounts presented by Mehmet Efendi (Ottoman ambassador to France) when he visited Paris in 1721 and wrote about French society.

Al-Ghassani was interested in the social stratification within Spain, and tried to establish a concept of his own: "*al-kabira*", meaning "authority with influence". This authority was not determined by material factors but by two means: firstly, having close relations with "*al-Makhzen*", the rulers; and second, participation in the wars against the Muslims. These two means to rise in the social ladder had a great influence on the economic situation in Spain. The Spanish rarely worked in commerce and crafts, in contrast to the French who immigrated to Spain due to the hard living conditions of their own country, worked hard, and managed to accumulate great sums of money.

Al-Ghassani left no aspect of Spanish life unaddressed. When writing about music and dancing, he mentioned musical instruments such as the guitar, describing them and comparing them to Moroccan counterparts.

The intention of al-Ghassani was not only to insist on what seemed different in the cities which he visited, but also to introduce some social institutions serving as means of progress. This leads us to question the point of view of some researchers who believe that Muslim

Garbi, which relied on European oral sources, and written at the end of the sixteenth century. The book described the land, its population and the animals and expressed wishes that the land would become a Muslim part of the Ottoman Empire. In addition to these two early works on the New World, there was an Arabic travel account written by a monk, Elias bin Hanna al-Mawssili, who lived there from 1675 to 1683, and presented a thorough description of southern and central America.

Although the presence of the New World in the writings of al-Ghassani was transient, it was very important. In fact, he mentioned that whereas Muslim historians did not care to write about America, Spain gained its power thanks to its commercial relationships with the New World. It was as if al-Ghassani was urging readers to open their eyes to one of the causes of the Western power, which the Muslims did not manage to assimilate during the period in which it was written.

2. Al-Ghassani, the ethnographer:

Al-Ghassani did not fail to describe Spanish society with the same accuracy he adopted in writing the political history of Europe, and he left no aspect of daily life unexamined. Fascination with the differences and a consciousness of the absence of common imagery were the motivations behind these unprecedented descriptions. Al-Ghassani, like other Muslim travellers in Europe, was obsessed with recording every unfamiliar aspect in the country, and he openly expressed that from the beginning.

He was, in fact, the first Muslim to describe Spanish feasts and the receptions he was invited to, such as the "feast of the bulls" described faithfully in the first part of his notes.

Concerning his quest for differences and distinction, the topic of women occupied an important place in his descriptions. This topic reflected a cultural reality characterized by self-control. Consequently, the opportunity to describe others became a way to surpass that self-control and release the reins of his imagination. His interest in the topic of women was also dictated by the desire to criticize Spanish society. It is necessary to note that all that was not only written from a subjugation attitude but from a desire to criticise the "country of the infidels".

The topic of women appeared throughout al-Ghassani's descriptions of various aspects of Spanish society:

In discussing politics, he mentioned the presence of women in all receptions offered by the Spanish King to the Moroccan delegation. He

numbers of the participants in the battle of Oued al-Makhazine from both sides: Muslims and Christians. He had collected the information from his informants and the data which were available to him. However, the chronicle was tinted with nationalism; while he accepted the Muslim accounts without question, it was as if all the information from strangers was incorrect and should not be believed without proof. This bias was apparent when he portrayed the way Abdul-Malik fought in the battle as told by one of his informants. Al-Ghassani continued in the tradition encountered in the writings of Muslim historians of glorifying Muslim victories and minimizing their defeats.

In addition to writing about the history of Spain, al-Ghassani also wrote on relations among European countries. He first dealt with the wars between the English and the French following King Jack II's conversion to Catholicism and his escape to France. He then described the wars between the French and the Spaniards and the Papal role played in these wars.

Al-Ghassani did not content himself with exposing these occurrences but also tried to explain the causes of those wars. Two subjects drew his attention: the transition of power in European countries, as most of the wars in his opinion resulted from succession, kin relations and the attitude towards the Muslim rulers. The motivation for the wars against France was basically connected to the French position towards the Ottoman Empire. This also deserved his analysis, considering that France was a nation identified with commercial interests in the East.

The Ottoman-European wars, including those led by Suleyman II(1687-16919) for regaining the city of Belgrade (1690), occupied an important place in the embassy accounts. Al-Ghassani may have relied on superficial information when he described these wars, as he did when mentioning the participation of Poland in those wars and Austria's appeals to Russia to contribute to the defence of Belgrade. Yet, al-Ghassani kept his innate historian's approach when he discussed the French assistance of the Ottoman state, which the Europeans considered decisive in establishing Turkish superiority.

The Moroccan ambassador did not ignore the positive and negative effects of the Spanish presence in America, although mention of the New World in Moroccan writings was very rare. The Ottomans in Istanbul, however, were very interested in the subject, as is manifested in the map kept in the archives of the Top Kapi Sarayi TKS, a copy of the one used by Christopher Columbus and made in 1513. This interest also appeared in an Ottoman book about the New World, *Tarih- i Hind-*

called a "current history" or "immediate history" of Spain and Europe, and managed to write an accurate history for contemporary Europe.

Being interested in the history of Spain, he compared the reign of its kings during the period from "the wars of recovery" (the fifteenth century) to the reign of Carlos II. It should be noted that al-Ghassani's presentation of the information was not superficial. In fact, he insisted on demonstrating many details such as the enthronement of King Carlos V, the relationship that tied the mother of King Carlos II, Maria de Austria, with Fernando de Venezuela, and details of the rapport between Philip IV and one of his ministers.

The Spanish Kings were not all of equal standing in al-Ghassani's evaluation. Indeed, whenever he mentioned one of the kings, he followed his name, just as was the Islamic custom, with the phrase "may God destroy him". He considered Philip II one of the most evil kings of Spain, as he had responded to the insurrection of the Muslims of Granada by violence and torture. Carlos II, on the other hand, was highly esteemed, and considered a peaceful king. This, however, did not mean that Carlos II was spared the refrain which adhered to the names of European kings, whatever their behaviour and their policy towards Muslim countries.

Al-Ghassani did not pay much attention to the description of Carlos II and disregarded the illnesses and the bodily deformities he suffered from, which were the subject of many descriptions by other foreigners. Al-Ghassani visited Spain in the period when the Spanish king started to suffer from deformities, losing all his teeth and hair and becoming so frail that he could not even stand for a long time. Al-Ghassani's tact on the matter was due to the Muslim attitude and culture which discouraged discussing intimate personal matters as well as the diplomatic tact of a Moroccan ambassador.

It should also be noticed that throughout the history of Spain, al-Ghassani had always seized the opportunity to talk about the relationships those kings maintained with the lands south of the Mediterranean World. Thus, he mentioned, in his account of Charles Quint, the attack which the king had led on Algeria in 1541 and the attack he waged to conquer Tunisia in 1534. However, the most important event that al-Ghassani recorded in relation with the southern shores of the Mediterranean Sea was the battle of Oued al-Makhazine (4 August 1578) mentioned in the context of the history of Philip II, as he advised "his uncle" Don Sebastian "*not to leave to a country other than his own, and that he could not possibly defeat the Muslim resistance with the presence of the "state" in Morocco*". Al-Ghassani compared the

the city of Toledo in early *Ramazan* 1102 (May 29, 1691), which means that the voyage took less than eight months.

Despite the brevity of the period the ambassador had spent in Madrid, it was enough time for him to produce a detailed description of Spain, surpassing in its accuracy the descriptions presented by many European travellers and ambassadors in that period. Al-Ghassani was thus a historian and an ethnographer of high standing. His work is considered the most important Islamic history of Europe in the 17th century, just as his description of the Spanish society can be considered one of the most remarkable works written by a Muslim about Europe in the modern era. The book has therefore become an essential reference for all Maghrebian writers who subsequently wrote about Spain.

We aim in this presentation to emphasize the importance of this embassy account by covering the following aspects:

1-Al Ghassani as a historian of Europe
2-Al Ghassani, the ethnographer
3-Al Ghassani, the diplomat
4-Al Ghassani, the religious polemist

1- Al-Ghassani as a historian of Europe

Al-Ghassani was unlike the Muslim historians who had overlooked events that Spain had experienced during its recent history and contented themselves with self-glorifying accounts of Andalusia and the Arab presence in Spanish history. To these historians, the History of Europe at modern era was not in the least important. Two examples would illustrate this. First, the Ottoman historian Mustafa Naima-, the first Ottoman official historian "[Vakanuvis]", summarized the "thirty years" war in Europe in three pages and considered all the events that Europe knew at that time unworthy of his attention, in spite of their great importance especially for the period he was recording. Second, we remark the absence of any historiography writings by Moroccan chroniclers pertaining to any events north of the Mediterranean World. Not until the 19th century do we see some openness toward the history of European issues on the part of certain Moroccan historians.

Al-Ghassani's case was unique even in this aspect, and the history he wrote was far from being a merely heroic narrative. The Arab-Islamic era in Andalusia did not catch his attention until his return from his trip, and as readers may notice, al-Ghassani turned to what could be

second Moroccan ambassador who left a written record of his journey in a book entitled *Natijat al-ijtihad fi al-muhadana wa al- jihad.* (The result of diligence in the conclusion of truce and the Jihad)

The third was Muhammad Ibn Uthman al-Maknassi, who led a mission during the reign of the sultan Muhammad III in 1779. The objective of M. Ibn Uthman's mission was to conclude a peace treaty between the two countries and to retrieve some Muslim captives who were in Spain. Ibn Uthman recorded this mission in a book he entitled: *Al- iksir fi iftikak al-assir (The Elixir in the redemption of the captive).*

The fourth was Ahmed bin Muhammad al-Kardoudi who lived during the reign of the sultan Mawlay Hasan (1876-1894). He was, unlike the preceding encounters, not the chief of the mission dispatched to Spain but only its principal secretary. In 1885, he was appointed secretary of the mission presided by Abd-assadek Arrifi to Spain. For Muhammad al-Kardoudi, it was not the first mission out of Morocco; he had previously accompanied Ambassador Maati Mzamzi to France, and was then chosen, with Torres, as a member of the delegation sent to Italy. The purpose of his mission differed totally from all the preceding ones and strongly reflected the difficult situation of Morocco after the conference of Madrid in 1880. He recorded the voyage in a book entitled *Al -Tuhfa assaniyya li al-hadrat al hasaniyya bi al-mamlaka al-isbaniyoulia.*

The embassy account which we present here is the first of these travel journals and the first of its kind for a Moroccan going to Spain in the modern period. It constituted the fundamental reference for all later missions. Interestingly, the account became known not for its writer but for the significance and the authenticity of the information it provided. Al-Ghassani was not a remarkable figure in Moroccan literary circles; nor was he an eminent bureaucrat. He was no more than a secretary in the palace of the Sultan spending all his time transcribing and gathering books. He was primarily the first to have written a "report" in the form of a travel account.

The mission set out from the city of Sebta (Ceuta) on *Muharram* 15t, 1102 (October19, 1690) heading for Gibraltar, passing by Tarifa, Cadix, Puerto de Santa Maria, Jerez, Lebrija, Utrera, Marchena, Ecija, Cordouba, El Carpio, Andujar, Linares, Tore Juan Abad, La Solona, Alamembrilla, Manzanares, Mora, and Getafe, finally arriving in Madrid in *Rabi'a Annabaoui* of the same year (December 6, 1690). After more than six months in Madrid, it is recorded that the mission turned towards

Introduction

Spain was, by virtue of its geographic proximity, one of the European countries which had attracted the interest of the Moroccan politicians and intellectuals. Ambassadors from the country were delegated to Madrid in order to settle political issues, and in comparison with those sent to other foreign countries apart from the Ottoman Empire, the number sent was much more significant.

In spite of the large number of Moroccan delegates sent to Spain (about 16 ambassadors between 1580 and 1900) only four of them wrote accounts of the embassy. This is of particular interest, as the delegates were highly distinguished in the fields of culture and scholarship and because keeping records was a deeply rooted Moroccan tradition.
The four who kept records were as follows:

The first was al-Ghassani who visited Spain in the last decade of the 17th century. The purpose of the mission he headed was the retrieval of the captives in Spain and the recovery of the Arabic manuscripts kept in Spain. Al-Ghassani is considered the first ambassador who recorded his mission by writing a book entitled: *Rihlat al - wazir fi fikak al assir* (Travel of Alwazir for the Redemption of Captives)

The second was Ahmed ibn-al-Mahdi al-Ghazal sent by the sultan Muhammad III (1757-1790) to address the problem of the captives in Spain. On May 26th, 1768, al-Ghazal's mediation successfully resulted in the signature of a treaty between the sultan Muhammad III and King Carlos III of Spain which al-Ghazal had supervised on behalf of the Moroccan Sultan. This treaty raised many controversial issues when the Moroccan sultan decided to besiege the city of Melilla in 1771. Regardless of the outcome of his mission, al-Ghazal was considered the

Research Institute for Languages and Cultures of
Asia and Africa (ILCAA)
Tokyo University of Foreign Studies

3-11-1 Asahi- cho
Fuchu-shi, Tokyo 183-8534
Japan

ISBN 4-87297-907-9

Cover : Pere Oromig, Embarque de los Moriscos en el Grau de Valencia. Colleccion Bancaja- Valencia- Espana

Printed by
Sanrei Printing, Tokyo

A Moroccan Ambassador in Madrid at the End of the Seventeenth Century

Rihlat al-Wazir fi Iftikak al-Assir

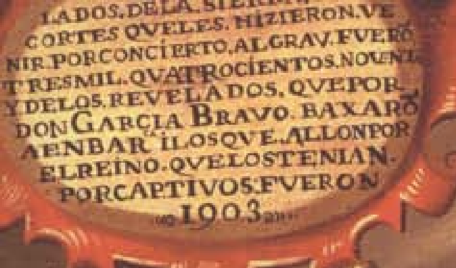
Compiled by
Muhammad bin Abdelwahhab al-Ghassani

Edited by

Abderrahim BENHADDA
Professor, Muhammad V University, Rabat-Morocco
Visiting Professor, ILCAA, Tokyo University of Foreign Studies

Research Institute for Languages and Cultures of
Asia and Africa (ILCAA)

Tokyo 2005



ISBN: 4-87297-907-9
Studia Culturae Islamicae N. 79
MEIS series N.1
Project MEIS

A Moroccan Ambassador in Madrid at the End of the Seventeenth Century

ELGRAV

Rihlat al-Wazir fi Iftikak al-Assir

(Travel of al-Wazir for the Redemption of Captives)

Muhammad bin Abdelwahhab al-Ghassani

MARQVES DECARA.GEN VIREI

Edited by

Abderrahim BENHADDA

Professor, Muhammad V University, Agdal-Rabat

Visiting Professor, ILCAA,
Tokyo University of Foreign Studies

Research Institute for Languages
and Cultures of Asia and Africa
TOKYO 2005